أنا واللغة والمجمع

الدكتور أحمد مختار عمر
الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

عالم الكتب

عالم الكتب
نشر * توزيع * طباعة
الإدارة :
١٦ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٢٤٦٢٦
فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧
المكتبة :
٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : ٣٩٢٦٤٠١
ص.ب : ٦٦ محمد فريد
الرمز البريدى : ١١٥١٨

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م

رقم الايداع ٢٠٠١/١٧٩١٦
ISBN : 977-232-287-o

مطبعة أبناء وهبه حسان
٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة
☎ : ٥٩٢٥٥٤٠

فهرس الكتاب

الباب الأول: أنا واللغة

الباب الثاني: أنا والمجمع

مقدمة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه نوعين من المادة اللغوية، يشمل الأول منهما مجموعة من الأبحاث التي سبق لي نشرها كمقالات، أو إذاعتها ضمن سلسلة من الأحاديث الإذاعية، أو بعض البرامج التي تتلقى أسئلة من المستمعين وتتولى الرد عليها من خلال المتخصصين.

وقد اخترت من هذا وذاك ما يشتمل على الجديد من ناحية، ويمكن أن يجذب المثقف العام من ناحية أخرى.

أما النوع الثاني منهما فيجمع ما قمت به من أنشطة لغوية خلال عامين وبعض عام من عضويتي للمجمع اللغوي، ويربط بينهما جميعا أنها قد متَّت إلى مجمعنا اللغوي بصلة سواء أخذت شكل محاضرات عامة، أو تحقيقات لغوية من خلال لجنتي "الأصول" و "البحوث واللهجات"، أو من خلال مناقشات أعمال اللجان في مجلس المجمع الأسبوعي، أو مؤتمره السنوي، وهي كلها أعمال لم تنشر من قبل.

وقد كشفت لي تجربتي الشخصية من خلال احتكاكي المباشر بأعضاء المجمع العاملين والمراسلين –كشفت لي -من ناحية- عن الهوة العميقة التي تفصل بين الأجيال، ومن ناحية أخرى بين أهل التخصص والهواة الذين يدسّون أنوفهم في كل شيء دون معرفة كافية بأصول الصنعة، وأوليات البحث اللغوي. وقد رأيت أن أقدم عينة من الجدل غير الموضوعي الذي يدور أحيانا في أروقة المجمع فعرضت ملخصا لأهم ما دار من مناقشات استمرت قرابة الساعة حول اقتراحي بجواز فتح همزة "إن" وكسرها بعد القول.

وقد أفردت للمعجم الكبير الذي بدأ المجمع التفكير فيه عام ١٩٣٤، والعمل فيه عام ١٩٤٦، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٥٦، وجزأه الخامس الذي يضم حرف الحاء عام ٢٠٠٠- أفردت له فصلا خاصًّ عنونته"رأي صريح في المعجم الكبير"، وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث، عنوانها على التوالي: "المعجم الكبير بديل المجمع عن المعجم التاريخي"، "معدلات الإنجاز للمعجم الكبير"، "آراء المجمعيين في المعجم الكبير"،وذلك بقصد

إثـارة الانتـباه إلـى معوقات العمل في هذا المعجم، ولفت النظر إلى ضرورة الوقوف وقفة حازمة لتقرير مصيره، سواء في خطته، ومعدل العمل فيه، أو بالتوقف عنه كلية.

وأرجو أن أكون بهذا قد وفيت بجزء من التزاماتي الأدبية والعلمية أمام مجمعنا العريق، وأسهمت —ولو بجهد المقل- في مناقشة بعض المسلَّمات التي أصبح الاقتراب منها محرَّمًا، اقتداء بقول السابقين "إنا وجدنا آباءنا على أمة".

وبالله التوفيق

المؤلف

الباب الأول

أنا واللغة

الفصل الأول

لغويون تحت الضوء



أبو العلاء المعري والنحو*

شغل المعري الباحثين طويلاً وما زال يشغلهم، ولقي من عنايتهم -قديمًا وحديثًا- ما لم يلقه من العلماء أو الشعراء إلا القليلون؛ كل يحاول أن يجلو ناحية من نواحي شخصيته، أو يكشف عن جانب من جوانب نبوغه وعبقريته؛ حتى بلغ ما ألّف فيه المئات من الكتب. ومع ذلك ظلت هناك جوانب عديدة من شخصيته لم يوفها الباحثون حقها من العناية، ولم يقفوا عندها لتمحيصها،ومنها جهوده النحوية. وإنه وإن كانت مؤلفات المعري الخالصة في النحو قد ضاعت فيما ضاع من تراثنا القديم فقد تكفلت كتبه الأدبية التي وصلتنا بحفظ آرائه، والكشف عن شخصيته، ومنها: رسالة الملائكة، ورسالة الغفران، وشرح ديوان الحماسة، ومعجز أحمد، وعبث الوليد، والفصول والغايات.

وكل الذين كتبوا عن نحو أبي العلاء -حتى الآن(١)- ثلاثة هم الأستاذ إبراهيم مصطفى في بحثه"أبو العلاء المعري وعلم النحو"، الذي ألقاه في المهرجان الألفي لأبي العلاء، والدكتورة بنت الشاطئ في بحثها "الغفران"،والدكتور أمجد الطرابلسي في كتابه "النقد واللغة في رسالة الغفران"، ولكنهم جميعًا اعتمدوا اعتمادًا كليًا على " رسالة الغفران" وحدها، مع أن باقي مؤلفات المعري لا تقل أهمية عن هذه الرسالة في الكشف عن مذهبه النحوي، ولا سيما "رسالة الملائكة" و"عبث الوليد"، فقد حشدا بالأبحاث النحوية والصرفية مما لا نجد له نظيرًا في "رسالة الغفران". ولذا كانت أبحاثهم ناقصة، وأحكامهم خاطئة في كثير من الأحيان، كما سنتعرض له في صلب البحث.

ويبدو أن أبا العلاء قد أظهر ميلاً نحو الدراسات اللغوية بعامة والنحوية بخاصة منذ نعومة أظفاره.فقد بكر إلى درس النحو صبيًا فدرس"مختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي، وكتاب الجمل للزجاجي وكتاب الكافي لأبي جعفر النحاس المصري"(٢).

---

*نشر بمجلة كلية المعلمين – الجامعة الليبية١٩٧٢.

(١)كان ذلك حين نشر البحث عام ١٩٧٢.

(٢)إبراهيم مصطفى: أبو العلاء المعري وعلم النحو ص ٣٦٣، ٣٦٤.

ثم ارتحل إلى حلب فقرأ على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي، وعلى بعض من أصحاب ابن خالويه وابن جني، [(١)] وكان لهما إذ ذاك "آثار مدرسة نحوية عظيمة لها أسلوبها في :بحث المتميز بعنايتها بالقرآن الكريم، وجمع رواياته المختلفة ، وتوجيه ما سمي منه شاذًا"[(٢)] . وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة -وإن لم يلق أحدًا من أئمتها- كما سنرى بعد عند الكلام على رأيه في القراءات. وبعد حلب سافر إلى بغداد للقاء فحول العلم والأدب وللاستفادة من دار الكتب التي كانت موجودة بها.

يقول أبو العلاء في إحدى رسائله: " والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها" ويقول في رسالة أخرى: "وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب.. ولكني آثرت الإقامة بدار العلم"[(٣)].

وفي بغداد التقى بعلي بن عيسى الربعي الذي كانت رياسة النحو آنئذ قد انتهت إليه، والتقى كذلك بأبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري [(٤)]

ولم يكتف أبو العلاء بأخذ النحو عن الشيوخ فكان يطلبه كذلك من الكتب.

ومن أشهر ما قرأه في هذا الميدان كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه، وكثيرًا ما يشير إليهما في كتبه [(٥)] .

---

(١)تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠، ٥١٥ .

(٢)إبراهيم مصطفى ص ٣٦٤، ٣٦٥ .

(٣)رسائل أبي العلاء ص٢٨، ٣٤.

(٤)تعريف القدماء بأبي العلاء ص٥١٦، ولكن ياقوتا في معجم الأدباء ١٢٣/٣ يذكر أن المعري حين دخل على الربعي قال له الأخير: ليصعد الاصطبل (أي الأعمى بلغة الشام) فخرج المعري مغضبا ولم يعد.

(٥)شرح الحماسة ورقة ٦٦ ورسالة الملائكة ص١٥ ورسالة الغفران ص٧٦، ١٠٠، ٢٨٣-٢٨٤ وغير ذلك.

وأمامنا رسالة من أبي العلاء بحلب إلى خاله ببغداد يطلب منه أن يستنسخ له كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه، ورسالة ثانية إلى أبي عمرو الاستراباذي في أمر شرح السيرافي[١] .

وقرأ كذلك كتب أبي على الفارسي" كالحجة" و "الإيضاح"، ونقل عنهما في كتبه[٢].

وقرأ كتب ابن جني، وقد ذكره مرارًا ونقل عنه في "معجز أحمد" و " شرح ديوان الحماسة"[٣]. وقرأ أيضًا "المقتضب" للمبرد ونقل عنه في رسالة الملائكة [٤]
وبعد أن أحس أبو العلاء الثقة في نفسه جلس يقرئ التلاميذ كتب اللغة والنحو، وتسامع به التلاميذ فالتفوا من حوله، وكانوا يأتون إليه من مسافات بعيدة ليستفيدوا بعلمه وأدبه، وشجع هذا أبا العلاء فألّف في النحو كتبًا وشروحًا، وأطلق لسانه في النحاة نقدًا وتخطيئًا، وأخذ يبث آراءه النحوية حتى في ثنايا كتبه ورسائله الأدبية، بل كثيرًا ما كان يستوحي من النحو خياله وصوره سواء في شعره أو في نثره الفني [٥]

مؤلفاته النحوية

أكثر مؤلفات أبي العلاء تعليقات وشروح على بعض المصنفات النحوية التي قرأها في حداثته، أو أقرأها بعد أن جلس للتدريس.

---

(١)ص ٣٦-٣٩ من رسائله.

(٢)رسالة الغفران ص١٥٢، ١٥٣ورسالة الملائكة ص١٢.

(٣)معجز أحمد ورقات ١٤١، ١٥٥، ١٧٤وشرح ديوان الحماسة ورقات ١٠، ٦٣، ٨٧، ١١٨، ١٢٩ .

(٤)ص ١٦٠.

(٥)كقوله في إحدى رسائله:"وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدأ نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبدا". وانظر الفصول والغايات ص ١٢٢ واللزوميات ص٨٧، ١٢٠ .

فمن الكتب التي كانت موضع عنايته كتاب" الجمل" للزجاجي، وقد ألف حوله كتبًا أربعة هي:

١ – تعليق الجليس.

٢ – إسعاف الصديق.

٣ –عون الجمل.

٤ – شرح شواهد الجمل [١].

ومن الكتب التي عنى بها كتاب الكافي لأبي جعفر النحاس المصري، وقد علق عليه أبو العلاء في تصنيف عنوانه :

٥ – قاضي الحق [٢].

٦ – وله كتاب يتصل بمختصر محمد بن سعدان اسمه المختصر الفتحي[٣]

٧ – وله كتاب في النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدي ولقبه ظهير العضدي [٤].

٨ – وألف شرحًا لسيبويه ولكنه لم يتم منه سوى خمسين كراسة[٥] .

٩ – كما ألف تفسيرًا لأمثلة سيبويه وغريبها[٦] .

وله مؤلفان مستقلان في النحو هما:

١ – مختصر سماه " الحقير النافع" مقداره خمس كراريس.

٢ – "الطِّل الطاهري" وهو كتاب يتصل بالمختصر السابق [٧] .

---

(١)تعريف القدماء ص٤٦، ٣٣٤، ٥٤٠ وياقوت ١٥٧/٣، ١٥٨، ١٦٠ .

(٢)ياقوت ١٥٨/٣.

(٣) ياقوت ١٥٨/٣ .

(٤)ياقوت ١٦٠/٣ .

(٥)ياقوت ١٦٠/٣ . والكراسة في عرف الأقدمين عشرون صفحة .

(٦)تعريف القدماء ص ٥٤٠ .

(٧)ياقوت ١٥٨/٣ وتعريف القدماء ص ٤٧، ٥٣٨ .

وقد ضاعت كل هذه المؤلفات -مع الأسف- ولم يصلنا منها سوى أسمائها، ولعل الأيام تكشف لنا عن بعضها.

اتجاهاته النحوية

ليس من همنا أن نقدم في الصفحات التالية نحوًا لأبي العلاء، وإنما همنا أن نعرض الأسس التي بنى عليها أبو العلاء تفكيره النحوي.

وقد استخلصنا هذه الأسس بعد تتبعنا لآرائه النحوية والصرفية المتناثرة في كتبه الأدبية التي وصلتنا. وسيخرج القارئ بعد مصاحبتنا في هذه الجولة في نحو أبي العلاء أن أبا العلاء لم يكن ذا نزعة طائفية، ولا متعصبًا لمدرسة نحوية دون الأخرى، وإنما كان متحللاً من قيود الحزبية، ناظرًا إلى العلم نظرة خالصة، لا تشوبها عاطفة مذهبية، ولا تفسدها عصبية إقليمية.

ونتيجة لهذا جاء مذهبه في النحو مذهبًا خاصًا يقوم على الموازنة والبحث والتحليل، وعلى ترك المقدمات لتسلم إلى النتائج دون تدخل أو توجيه.

وأهم الاتجاهات التي أمكننا أن نستخلصها في نحو أبي العلاء ما يأتي:

١ — كراهيته للتكلف والتأويل.

٢ — توسعه في القياس.

٣ — احترامه للقراءات.

٤ — استشهاده بالحديث النبوي.

٥ — استبعاده من الضرورات الشعرية كل ما للشاعر مندوحة عنه.

وإليكم تفصيل ذلك:

كراهيته للتكلف والتأويل:

أولع النحاة من قديم بالتأويل والتقدير، وقلما تخلو صفحة في كتبهم من تأويلاتهم البعيدة، وتخريجاتهم العجيبة، مما أفسد النحو العربي، وملأه بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا وتقويم لساننا.

ولم يكن هناك ما يغيظ المعري أكثر مما كان يقرؤه ويسمعه من تأولات النحاة وتكلفاتهم وتخريجهم بعض الأبيات على غير حقيقتها للاستشهاد بها على آرائهم الخاصة.

وكثير من نقده ينصب على هذا الجانب من نحو النحاة. وقد صوب المعري معظم سهامه إلى نحاة البصرة الذين أكثروا من التأويل والتقدير، وتعسفوا غاية التعسف في تخريج كثير من الشواهد لتستقيم مع أصول مذهبهم .

وقد امتلأت مؤلفات المعري بأمثلة لذلك ، ولكننا سنكتفي بعرض نماذج منها. ولنبدأ بشيخ النحاة سيبويه لنرى ما أصابه من سهام أبي العلاء:

١ – يروي سيبويه في الكتاب بيت النابغة الجعدي:

فليس بمعروف لنا أن نردها صحاحا ولا مستنكرٌ أن تعقرا

ويجيز فيه مستنكرًا بالنصب ومستنكرٍ بالجر ويتكلم في توجيه ذلك.

ولكن المعري لا يستسيغ الجر لأنه يحوج إلى تأويل وتقدير نحن في غنى عنه، فيجري حوارًا في رسالة الغفران بين صديقه ابن القارح والنابغة الجعدي حول إعراب "مستنكر" ينتهي إلى إنكار رواية الجر.

يقول المعري: "يقول ابن القارح مخاطبًا نابغة بني جعدة... أتقول ولا مستنكرًا أم مستنكرٍ فيقول الجعدي بل مستنكرًا، فيقول الشيخ: فإن أنشد منشدٌ مستنكرٍ ما تصنع به ؟ فيقول : أزجره وأزبره نطق بأمر لا يخبره .

فيقول الشيخ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت؛ لأن أبا ليلى أدرك جاهلية وإسلامًا، وغذي بالفصاحة غلامًا" (١).

ولكي نفهم سر إنكار المعرى للجر ينبغي أن نبسط الكلام في هذه المسألة حتى لا نخطئ الجادة كما أخطأ غيرنا فنقول: ينص سيبويه على أن الخبر المشتق لا بد من أن

---

(١) رسالة الغفران ص ١٠٠. وانظر الكتاب ٣٢/١ .

يتحمل ضمير مبتدئه، أو يكون رافعًا لمتصل بضمير المبتدأ، أو رافعًا لاسم ظاهر هو عين المبتدأ. وينص كذلك على أن ما عطف على الخبر حكمه حكم الخبر في ذلك[1] .

فنحو "ليس بقائم أبو هند ولا قاعدة أمها" يمتنع فيه خفض "قاعدة" عطفًا على لفظ الخبر سواء جعلت" أمها" فاعلاً للوصف قبلها، أو معطوفًا على اسم ليس؛ أما الأول فلأن هذا المعطوف ليس متصلاً بضمير يربطه بالمحدث عنه، وهو اسم ليس؛ وأما الثاني فلما يلزم عليه من العطف على معمولي عاملين مختلفين، وهو غير جائز عند سيبويه والجمهور.

وقد جعل المعري قول النابغة من هذا القبيل، فمنع الخفض في المعطوف، سواء جعل المرفوع بعده فاعلاً به، أو معطوفًا على الاسم. أما سيبويه فأجاز فيه الخفض على تأويل يجعل الثاني من سببي الأول، بأن أعاد الضمير في "أن تعقرا" على اسم ليس، وهو "الرد" المضاف إلى ضمير الخيل المأخوذ من "أن نردها"، بعد أن نزل رد الخيل منزلة الخيل، فكأنه قال: ليست بمعروفة لنا الخيل. وأعاد الضمير مؤنثًا على اسم ليس لأنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه. ثم راح سيبويه يستشهد على اكتساب المضاف المذكر التأنيث من المضاف إليه بشواهد من القرآن والشعر العربي[2] .

وقد بان من هذا أن حملة أبي العلاء في هذه القضية يصبها على سيبويه لتكلفه وإبعاده في التكلف، وليس كما قال الأستاذ إبراهيم مصطفى، وتبعته فيه الدكتورة بنت الشاطئ من أنه يرجع إلى بغضه للقياس، وضيقه به، واعتقاده أن "نحاة البصرة بقياسهم قد قوّلوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون" [3]، فقد كان المعري قيَّاسًا يتوسع في القياس، ويمضي به إلى أبعد حدوده كما سنرى فيما بعد.

٢ – ويذهب سيبويه في قول عدي بن زيد:

---

(١) تفصيل ذلك الكتاب ١/٣٠، ٣١ .

(٢) تفصيل ذلك : الكتاب ١/٣٢، ٣٣ وشرح السيرافي ١/٣٤٨، وانظر المقتضب للمبرد ص ٧٩٢–٧٩٤ .

(٣) المهرجان الألفي ص٣٦٧، ٣٦٨ والغفران ص٢٢٦ .

أرواح مودع أم بكـــور ... أنت فانظر لأي حال تصير

إلـى أن "أنت" يجوز أن ترفع على فعل مضمر يفسره ما بعده [١] ، فيقول المعري موجهًا الخطـاب لعدي: "وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته" [٢] . ولم يذكر المعري ماذا يختاره في إعـراب "أنـت"، وإن كـنا نستنتج من طريقته في التناول أنه يختار رفعها محلاً على الابتداء وخبرها "فانظر" على زيادة الفاء .

ونحـب هـنا أن ننـبه إلى أن نقد المعري لرأي سيبويه في هاتين المسألتين لا يعني أن هـذا هو موقفه منه دائمًا، ولا يعبر عن رأيه العام فيه، وأننا إذا أردنا أن نعرف رأي المعري في سيبويه فعلينا أن نجمع إلى هاتين المسألتين غيرهما مما ورد في مؤلفات المعري، ثـم نبـني حكمنا بالنظر إليها جميعًا. نقول هذا لأن من الباحثين من تسرع فاستنتج من هذيـن الـنقدين رأي المعري في سيبويه فقال: "وأما تقديره لسيبويه رحمه الله فإنه لم يزل يـتعرض لـه بالـنقد والتخطـئة" [٣] ولـو كلف الباحث نفسه الاطلاع على سائر مؤلفات المعري لغير حكمه، ولبان له أن المعري يجلّ سيبويه ويقدره ويدافع عنه في أحيان كثيرة :

أ – فهو يؤيده في نصب الجماعة في قول راعي الإبل :

أيام قومي والجماعة كالذي ... لزم الرحالة أن تميل مميلا [٤]

ب – ويصفه بأرفع الصفات في رسالة الغفران[٥] .

جـ - ويثق في نقله، كقوله: "وهذا بناء مستنكر لم يذكر سيبويه له نظيرًا" [٦] .

---

(١)الكتاب ٧١/١ .

(٢)رسالة الغفران ص٧٦ . وانظر رأي المعري في منع سيبويه أن يلي كان معمول الخبر: عبث الوليد ص ٨٠ .

(٣)المهرجان الألفي: إبراهيم مصطفى ص ٣٦٧ .

(٤)رسالة الغفران ص ١٦٣، ١٦٤ .

(٥)ص ٣٦٤

(٦)رسالة الملائكة ص ٢٦، وانظر كذلك ص ٢٠٠ .

د – وينصره على المبرد مبينًا وجهة نظره في أن أصل " دم": دمْي [١] .

هـ -ويؤيد سيبويه في أصالة النون من "شيطان" وأن وزنه "فيعال"[٢]. وغير ذلك كثير.

٣ -وندع سيبويه لنرى ذلك المشهد اللطيف الذي أبدعه خيال أبي العلاء فنرى فيه أبا علي الفارسي وقد أحاط به الشعراء في الجنة وهم يلومونه أشد اللوم على تأويله أشعارهم على غير ما قالوه. قال أبو العلاء على لسان صديقه ابن القارح:" وكنت قد رأيت في المحشر شيخًا لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا.. منهم يزيد بن الحكم الكلابي وهو يقول: ويحك أنشدت عني هذا البيت برفع الماء يعني قوله:

فليت كفافًا كان شـــــرك كله   وخيرك عني ما ارتوى الماءُ مرتوي

ولم أقل إلا "الماءَ". وكذلك زعمت أنني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلا بي كشكلك شكله   فإن خليلاً صالحًا بك مقتوي

وإنما قلت "مُقتوى" بضم الميم... وإذا رجل آخر يقول: ادعيت عليَّ أن الهاء راجعة إلى الدرس في قولي :

هذا سراقة للقرآن يدرسه   والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟ وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله" [٣]

٤- ومن هذا الباب أيضًا حملة المعري على أبي سعيد السيرافي، فقد كان يروي الأبيات المنسوبة إلى آدم هكذا:

---

(١)المرجع السابق ص ١٦٠، ١٦١ .

(٢)المرجع السابق ص ٢٤٧.

(٣)رسالة الغفران ص ١٥٢-١٥٤ . ولمزيد من التفصيلات راجع خزانة الأدب ٢٢٧/١ ،٣/ ٣٢٨، ٣٩٠/٤، ٣٩٤ والحجة ١٦/٣ وشرح الأعلم للكتاب ٤٣٧/١ .

تغيرت البلاد ومن عليها **فوجه الأرض مغبر قبيحُ**

وأودى ربع أهليها فبانوا **وزال بشاشةَ الوجهُ المليحُ**

بنصب "بشاشة" على التمييز، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، ورفع "الوجه" على الفاعلية تجنبًا للإقواء. فقال أبو العلاء : قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شر من إقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة"[1].

وإذن فقد كان أبو العلاء يكره التكلف، ويبغض التأويل، ويرد روايات النحاة المعقدة، ويختار منها ما كان أيسر قبولاً وأقل كلفة. وتلك خطة قويمة وسبيل حكيمة لو اهتدينا بهديها لتخلصنا من كثير من المشاكل التي ترهق الطلاب وليس وراءها طائل، ولجنبنا أنفسنا الخوض في كثير من الخلافات الشكلية التي لا جدوى منها، ولقطعنا شوطًا كبيرًا في سبيل تيسير النحو وإصلاحه.

توسعه في القياس:

كان للقياس أهمية كبيرة في نشأة النحو العربي، وغزارة مادته، واستخلاص قواعده، وضبط أحكامه حتى قال ابن الأنباري: "اعلم أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس.. فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو" [2] .

وهذه كلمة حق؛ فنحن لا نتصور نحوًا بغير قياس، ولا نعرف أحدًا من النحاة قد ناقش مبدأ القياس في النحو أو طالب بإلغائه[3]، وإنما النحاة يختلفون في أمره تضييقًا وتوسيعًا.

---

(١)رسالة الغفران ص٢٨٤ وانظر شرح كتاب سيبويه للسيرافي ٢٢٣/١ .

(٢)الاقتراح ص ٤٦.

(٣)أما ما ردده ابن مضاء القرطبي في كتابه الرد على النحاة، وما نادى به من ضرورة إلغاء القياس(ص١٥٦وما بعدها) فليس مما نحن فيه في شيء. وإن سماه ابن مضاء قياسا، وإن سلكه بعض الباحثين في أنواع القياس(الخضر حسين: القياس في اللغة ص٢٥). فهو في الحقيقة نوع من التعليل المنطقي، وقد مثل له ابن مضاء بما ادعوه من أن الفعل المضارع أعرب لشبهه=

وقد عرف البصريون بأنهم يضيقون أمر القياس فلا يقيسون على القليل إذا وجد ما يعارضه، ولا يعولون على القياس النظري عند فقد الشاهد إلا نادرًا. أما الكوفيون فكانوا على العكس من ذلك يتوسعون في القياس إلى أقصى حدوده، وقد يكتفون بالشاهد الواحد يقيسون عليه ولو خالف الأصل المعروف، وربما وضعوا القاعدة بالقياس النظري دون ورود لمطلق شاهد[1] .

ولهذا فنحن نبادر فنرفض ما قيل من أن المعري كان لا يرضى عن فكرة القياس، وأن أكثر نقده لنحاة البصرة يرجع إلى أنهم" بقياسهم قد قولوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون" [2].

وإنما الذي نقف عنده لنناقشه ما قاله الأستاذ إبراهيم مصطفى وردده الدكتورة بنت الشاطئ من أن المعري كان ينفر من المدارس النحوية البصرية، ويضيق بما فيها من قياس، وأن من أشد ما ضاق به المعري المضي مع القياس مضيًا ينتهي إلى أن يجيز في العربية ما ليس منها، وما قالته الدكتورة بنت الشاطئ من أنه كان" يلتزم السماع في اللغة، ويكره التأول والقياس" [3].

فهل هذا صحيح ؟ وهل كان المعري من المضيقين حقًا في أمر القياس؟

لقد استند هؤلاء الذين قالوا بضيق المعري بالقياس إلى عبارة وردت في رسالة الغفران تناولت بالنقد إجازة سيبويه جر "مستنكر" في بيت النابغة السابق ذكره، فقالوا إن ذلك راجع لضيقه بالقياس البصري.

=بالاسم أو قياسا على الاسم، وما ادعوه في باب الممنوع من الصرف من أن الاسم يمنع من الصرف حملا على الفعل أو قياسا على الفعل.

وهذا النوع من التعليل إن صح تسميته قياسا فليس مرادا لنا، ولا يعنينا في شيء لأنه ليس ذا أثر لفظي، فلسنا حريصين على التمسك به، أو الإبقاء عليه.

(١)انظر في تفصيل ذلك وفي الموازنة بين المذهبين: نشأة النحو ص ٦٩، ٧٨، ٨٦، ٨٧ .

(٢)المهرجان ص ٣٦٨ .

(٣)المهرجان ص ٣٧٠، ٣٧١، والغفران ص ٢٢٤-٢٢٧ .

وقد ناقشنا هذه الدعوى فيما مضى وأثبتنا أن مخالفة المعري لسيبويه هنا ترجع لسبب آخر ليس من القياس في شيء.

والآن نريد أن نسأل القائلين بضيق المعري بالقياس: ماذا تعنون بكلمة قياس؟ إن القياس في النحو على أنوع؛ فهو يطلق ويراد به:

أولا: حمل كلمة على نظائرها في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب.

ثانيا: إعطاء كلمة حكمًا ثبت لغيرها من الكلم المخالف لها في نوعها ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه؛ كترخيم المركب المزجي قياسًا على الأسماء المنتهية بتاء التأنيث [١].

ثالثًا: القياس النظري الذي لا يعتمد على شاهد من كلام العرب.

فأي هذه الأنواع تريدون؟

لا يمكن أن تريدوا الأول إذا كانت النظائر كثيرة؛ فالإجماع منعقد على صحته هو والذي سماه ابن جني" المطرد في القياس والاستعمال جميعًا" [٢]. فهل تريدونه إذا كانت النظائر قليلة في كلامهم؟ ولكن ما معنى ضيق المعري إذن بالأقيسة البصرية، وهي لا تقيس على القليل؟

وأيًا ما كان مرادهم فنحن لا نرى رأيهم؛ فقد وجدنا أبا العلاء -بعد أن تتبعنا آراءه النحوية- يقيس على القليل، ويجيز في العربية ما ليس منها بمقتضى القياس النظري، ويعطي كلمة حكمًا ثبت لغيرها لمشابهة بين الكلمتين، فهو كما قال الدكتور أمجد الطرابلسي: " كثيرًا ما يضرب عن قدسية السماع صفحًا" [٣].

وعلينا الآن أن نستدل لما نقول:

١ — يمنع النحويون الوصف بالمصدر، ويعدون ما ورد من ذلك من قبيل المسموع الذي لا يقاس عليه. ولكن المعري يرى قياسيته:

---

(١)الخضر حسين: القياس في اللغة ص ٢٧ .

(٢)الخصائص ٩٧/١ .

(٣)النقد واللغة ص٢٠٩ .

أ -- فهو يقول في بيت البحتري:

قدت الفلوة الخضيراء منه　　شبهًا مثلما يقد الشراك

يقول: "الأصل في هذا فلوّ بالتشديد، وقلما يقولون فلو بتخفيف الواو، والعامة تستعمله. وله وجه من القياس؛ لأن الفلو إذا كان مأخوذًا من فلوته... جاز أن يقال له فلو فينعت بالمصدر.. كما يقال زَوْر.. ورجل ضيف" [1].

ب — ويقول في قول البحتري أيضًا.

والمرء طاعة أيام تنقله　　تنقل الظل من حال إلى حال

يقول: "يجوز أن يجعل (طاعة أيام) خبر المرء؛ والمعنى: المرء صاحب طاعة للأيام.. وهم يستعملون مثل ذلك في المصادر كثيرًا"[2].

جـ - وينصب" التفاتًا" في قول الحماسي:

فلما أعادت من بعيد بنظرة　　إلى التفاتًا أسلمته المحاجر

على الحالية، أي ملتفتة.

د — ويجيز في قول الآخر:

إني سأستر ما ذو العقل ساتره　　من حاجة وأميت السر كتمانا

أن ينصب" كتمانًا" على الحال [3].

٢ — وقد بلغ من توسعه في القياس أن أجاز في العربية ما ليس منها بمقتضى القياس النظري، فهو يقول في رسالة الملائكة: " ولا أمنع أن يجيء الفعل على (فَعْلَنَ) وإن كان المتقدمون لم يذكروه؛ لأن الاسم إذا جاء على ذلك وجب أن يجيء عليه الفعل إذ كان الاسم أصلا، والفعل متفرع منه. وقد قالوا ناقة رَعْشَن .. وامرأة خلبن" [4].

---

(١)عبث الوليد ص١٦٣ .

(٢)عبث الوليد ص١٨١ .

(٣)شرح الحماسة ورقة ١٤٢و ١٦٠ .

(٤)ص٢٦٣ .

وأمامنا أبو علي الفارسي في "الحجة" يمنع أن يكون" شيطن"زائد النون؛ لأن وزن "فعلن" غير معروف [١] .

٣ – حكى المعري خلافًا بين النحاة في مفرد "أندية" في قول الشاعر:

في ليلة من جمادى ذات أندية

وبعد أن نقل رأي ابن جني والمبرد وغيرهما قال: "وذهب آخرون إلى أنه كسّر فَعَلا على أفعِلة وركب مذهب الشذوذ"، ثم قال: " وهذا وإن كان شاذًا فإن له عندي وجهًا من القياس صالحًا، ونظيرًا من السماع مؤنسًا.

أما السماع فقولهم في تكسير (قفا) و(رحى) أقفية وأرحية.. وأما وجه القياس فإن العرب تجري الفتحة مجرى الألف؛ ألا تراهم لم يقولوا في الإضافة إلى جَمَزَى... إلا بحذف الألف: جَمَزِيّ.. كما قالوا في حبارى: حباريّ.. فكأن فَعَلا هذا فَعال، وفَعَال مما يكسر على (أفعلة) كقذال وأقذلة، وغزال وأغزلة" [٢].

وأنت ترى هنا كيف قاس أبو العلاء على القليل، وكيف أعطى فَعَلا حكم فَعَال المخالفة لها في نوعها، إجراء للفتحة مجرى الألف. فهل هناك توسع في القياس أكثر من هذا؟

٤ – ويجيز المعري إجراء الظن مجرى القول في حكاية الجمل بعده قياسًا عليه. يقول في بيت البحتري:

وقد زعموا مصرًا معانًا من الغنى...

يقول: "يتعذر رفع مصر في البيت إلا أن يجعل زعموا في معنى قالوا، وليس ذلك بمعروف.. إلا أن القياس يوجبه" [٣].

٥ – ويمنع النحويون استقبال القسم بلن، ولكن أبا العلاء يجيزه، فهو يقول في بيت البحتري:

---

(١)الحجة ٢/١٨ .

(٢)شرح الحماسة ورقة ١٩١ .

(٣)عبث الوليد ص ١١٣ .

لن ينال المشيب حظوة ود   حيث يشجو طرف ويحور طرف

يقول: "استقبل القسم بلن لأنه قال: أي وسعي الحجيج. وهذا عند النحويين لا يجوز لأن(لن) لا يستقبل بها القسم.. ولو قال لا ينال لاحتمل، ولن يبعد في القياس أن يوضع لن موضع لا في هذا الموضع لأنهما في النفي متشاركتان [١] .

٦ – وهو يخرج على المسموع حين يجيز همز الواو الثانية في نحو "شوور" حيث يقول في قول البحتري:

ثلاثة جلة إن شووروا نصحوا...

يقول ما نصه: " شووروا بواوين. ولا يجوز إدغام الأولى في الأخرى على مذهب النحويين لأن الواو منقلبة عن ألف فاعل.. والنطق بشوور وبابه ينفر منه الطبع. والغريزة تفر إلى همز الواو الثانية.

وما علمت أن ذلك حكاه أحد لأن الواو المكسورة إنما تهمز إذا وقعت أولاً مثل وشاح وإشاح.. فأما إذا وقعت في غير الأوائل فهي مُقَرَّة على حالها مثل قولهم... مراود في جمع مرود"[٢].

٧ – ويرى المعري أن القياس يبيح دخول" أل" على" كل" و"بعض"؛ ولذا فهو لا يمنعه حيث يقول: "كان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللام على كل وبعض.. والقياس يوجب دخول الألف واللام على كل وبعض" [٣].

٨ – وهو يرى قياسية تعدي الفعل بالهمزة حتى ولو كان متعديًا، فهو يقول: "والمتقدمون من أهل اللغة ينكرون أكسبته مالا.. والقياس يسوغ أكسبه لأن الهمزة مما يعدى به الفعل"، ويقول: "والفعل يعدى بالهمزة، فإذا قال: بذ فرسك الخيل فأراد

---

(١)المرجع ص ١٥٢ . والبيت الذي وقع فيه القسم يقع قبل البيت المقتبس ونصه :

أي وسعي الحجيج حين سعوا   شعثا وصف الحجيج ساعة صفوا

(٢)المرجع ص ١٨٣ .

(٣)المرجع ص ١٩٥، ١٩٦ .

أن يعدي الفعل إلى مفعولين قال: أبذذت فرسك الخيل" [١]. وتعدية الأفعال بالهمزة وبخاصة ما كان منها متعديًا يقصره معظم النحويين على السماع [٢].

وإذن فلم يكن أبو العلاء ممن يضيقون بالقياس صدرًا كما يقولون، وإنما كان من أنصاره والمتوسعين في استخدامه، الذين يمضون به إلى أبعد آماده وأقصى إمكانياته. وقد خلصنا المعري بذلك من كثير من الخلافات بين النحاة حول المقيس والمسموع، والتي يرجع أكثرها إلى عدم تحديد مدلول القلة والكثرة تحديدًا يزيل ما حولها من غموض وإبهام .

كما أنه بتوسعه في القياس قد وسع في أصول اللغة، ونمى من مواردها، وفتح طرقًا يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته، كما صحح كثيرًا من العبارات التي شاع استعمالها ولا نظير لها من السماع بأن التمس لها في القياس وجهًا تصح به.

احترامه للقراءات:

اختلف النحويون من قديم في شأن القراءات؛ فكان بعضهم يجترئ على نقدها ونسبة الخطأ إليها إذا خالفت مذهبه النحوي، وكان بعضهم لا يقدم على ذلك، ويلتمس لكل قراءة وجهًا -وإن كان بعيدًا- في العربية [٣].

ومن الفريق الأول الفراء والزجاج والمبرد والزمخشري. فالفراء ينكر قراءة "مصرخيِّ"، ويرى أنها من وهم القراء. والزجاج يصف هذه القراءة بأنها رديئة مرذولة [٤]. والمبرد يقول في قراءة حمزة "ألذي تساءلون به والأرحامِ": "لو صليت خلف إمام يقرأ ذلك لأخذت نعلي ومضيت" والزمخشري يقول فيها: "والجر على

---

(١)عبث الوليد ص ٢١٢ .

(٢)انظر محاضر جلسات المجمع اللغوي ٣٥١/١ .

(٣)رسالة الملائكة ص٢٠٠ .

(٤)الخزانة ٢٥٨/٢، ٢٥٩ وتفسير القرطبي ٣٥٧/٩ .

عطف الظاهر على المضمر وليس بسديد"[١]. وحجة هؤلاء أن الذين نقلوا القراءات كان فيهم قوم أدركوا زمن الفصاحة فجاءوا بها على ما يجب، وقوم سبقتهم الفصاحة ولم يكن لهم علم بقياس العربية فلحقهم الوهم[٢].

أما الفريق الثاني فكان من أئمته ابن خالويه وابن جني وأبو علي الفارسي. وهؤلاء يرون أن القراءة متى صح سندها ووافقت وجهًا من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحًا مجمعًا عليه أو مختلفًا فيه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم[٣]. وحجتهم في ذلك "أن القراءة سنة" وأن "الرواية تصلها إلى رسول الله" [٤].

فمن أي الفريقين أبو العلاء؟

نستطيع بعد طول البحث والاستقصاء أن نحكم بأنه من الفريق الثاني الذي يحترم القراءات ويقدسها ويردها دائمًا إلى الرواية، فهو يقول: "والقراءة سماع وقياس واختيار. فإذا سمع الحرف وكان السامع له من أهل المعرفة قاسه على نظائره بعد صحة الخبر فيه فإذا وضح له أنه مستقيم كان الاختيار بعد ذلك إليه". ويقول: "والقراء لم يطالبوا بأن يحملوا القراءة على ما يجوز في كلام العرب.. بل قراءتهم مردودة إلى الرواية" [٥].

ولذلك نراه عند تعرضه لإحدى القراءات يحاول تخريجها، ويجهد في توجيهها بما يوافق لغة من لغات العرب؛ فهو يوجه قراءة "فاتبعوني يَحببكم الله" بأنها على لغة من قال في الماضي حببت، ويستشهد على ذلك من كلام العرب. ويوجه قراءة:" بالعشي

---

(١)القرطبي ٣/٥ والكشاف ١٥٧/١ .

(٢)رسالة الملائكة ص ٢٠٠ .

(٣)ابن الجزري: النشر ٩/١-١٠ والدمياطي: إتحاف فضلاء البشر ورقة ١٣ .

(٤)الحجة ٢٨/١ والمحتسب ورقة٢ .

(٥)رسالة الملائكة ص ١٨٨ .

والأبكـار" علـى أنها جمع بَكْر أو بُكرة على طرح الهاء كجمع نعمة على أنعم وشدة علـى أشـد[١]. ومـن ذلـك توجـيهه لقراءة من همز الواو في "سوق" بأنها على لغة من يهمز الواو لمجاورة الضمة كقول جرير:

أحب المؤقدين إليّ مؤسي[٢]

وتوجيهه لقراءة "وقولوا للناس حسنَى" بأنها على قياس قول سيبويه إن "أخرى" معدولـة عـن "الأخـرى"أو أن "حسـنى" مصدر بمنزلة الحسن أو اسم مصدر. وأمامنا سعيد بن مسعدة والزجاج وغيرهما يحكمون على هذه القراءة بالخطأ [٣].

وأخـيرًا نشير إلى توجيهه لقراءة "وما تنزلت به الشياطون"، فقد حكى عن بعض العـلماء أنـه سمع أعرابيًا يقول: هذه بساتون بني فلان، مع أن ابن جني- مع ما عرف عـنه مـن توجـيهه للقـراءات حـتى ألف كتابًا في ذلك أسماه المحتسب- يقول عن هذه القراءة إنها غلط[٤].

وهو يرى أنه لا يصح رفض القراءة بعد أن تستكمل شروط القبول، ولذا فهو يلقن الـنحاة درسًـا في القـراءات؛ ويبين لهم فساد منهجهم في رد القراءة مع أن القرآن ليس بموضع ضرورة.

يقـول المعري على لسان الحية الفقيهة: "فلما توفي أبو عمرو كرهت المقام فانتقلت إلـى الكوفـة، فأقمـت في جـوار حمـزة بـن حبيـب فسـمعته يقـرأ بأشياء ينكرها عليه أصـحاب العربـية كخفـض "الأرحـام"، وكسـر الياء في"وما أنتم بمصرخيِّ"، وكذلك سكون الهمزة في "ومكر السيء".

---

(١)رسالة الغفران ص ٢٤٠ و ٢٨٩ .

(٢)رسالة الملائكة ص ١٢ .

(٣)المرجع ص٣٣ .

(٤)عبث الوليد ص ٢٢٦ والمحتسب ورقة ١١٨ .

وهـذا إغـلاق لـباب العربـية لأن الفـرقان ليس بموضع ضرورة وإنما حكى مثل هذا في المنظوم"[١].

فهـو يرى صحة هذه القراءات التي ردها النحاة كما سبق أن ذكرنا، ويرى أن في إنكارها تضييقًا لواسع وإغلاقًا لباب العربية، وهو يعلل هذا بقوله: "لأن الفرقان ليس بموضـع ضـرورة"؛ فمعناه أن هذه القراءات التي نقلت إلينا يجب أن نتقبلها ولا نردها بضـرورة أو نحوهـا لأنـه لـيس هـناك مـا يدفع القاريء من وزن أو قافية إلى ارتكاب محظـور، أو يفـرض علـيه نوعًـا مـن التعبير قد يخالف الأسلوب القويم. وإنما الضرورة محلها المنظوم.

ولا يعكـر علـى هـذا الفهـم لعـبارة المعري قوله فيما سبق "فسمعته يقرأ بأشياء يـنكرها علـيه أصـحاب العربـية" وقولـه في مكان آخر: "وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة وما أنتم بمصرخيِّ" [٢] لأنه ناقل –وكونه صادقًا في هذا النقل أو غير صادق قضية أخرى-وناقل الكفر ليس بكافر.

كما لا يعكر عليه وصفه بعض القراءات بأنها رديئة كما قال في قراءة ابن مسعود "ولـه الجوارُ المنشآت"[٣]. فهو يعني بذلك أنها ليست في المرتبة العليا من الفصاحة، وأن هـناك مـا هـو أفصـح مـنها. ونحـن لا ندعي-ولا غيرنا- أن القراءات جميعها على درجة واحـدة مـن الفصاحة وإنما نرى أنها تتفاوت فيما بينها في درجات الفصاحة كما تتفاوت اللهجات العربية نفسها التي نزلت القراءات موافقة لها.

ولا يعـد كذلك خروجًا على هذا المنهج ما قاله عن قراءة "أفئيدة" ووصفه هذا اللفـظ بأنـه علـى "بناء مستنكر لم يجيء مثله في الآحاد ولا في الجموع"[٤]؛ إذ معناه أن هـذا الـوزن لم يـنقل سماعه في كلام العرب، كما قال في وزن كمثرى إنه بناء مستنكر لم

---

(١)رسالة الغفران ص ٢٨٩-٢٩٠ .

(٢)المرجع ص ٣٩٣ .

(٣)عبث الوليد ص ٢٢٨.

(٤)رسالة الملائكة ص ٢٠٠ .

يذكر سيبويه له نظيرًا [١] مع اعترافه بصحته وفصاحته. ولا يعني بهذا الطعن على هذه القراءة وإنما يريد أن يقول إن هذه الكلمة جاءت على وزن غير معهود. والمعري في هذا لا يحكم رأيه، وإنما يحكم النقل والسماع اللغوي عن الثقات.

ومنهج أبي العلاء في قبول القراءة وتوجيهها والتماس وجه لها في العربية تحمل عليه منهج قويم لا ينبغي العدول عنه. ولهذا يقول السيوطي في الاقتراح: "أما القرآن فكلما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية" [٢].

استشهاده بالحديث النبوي:

وموقف النحاة من الحديث شبيه بموقفهم من القراءات فمنهم من يرفض الاستشهاد به ومنهم من يستشهد به [٣]. أما أبو العلاء فكان موقفه صريحًا إذ كان يستشهد بالحديث في مسائل اللغة والنحو وأحيانًا يورد في الصفحة الواحدة أكثر من حديث. ولعل خبرته بأصول التحديث واشتغاله برواية الحديث، وسماعه الحديث بالشام عن الثقات[٤] جعله يطمئن إلى سلامة لفظ ما استشهد به، وصحة نسبته إلى الرسول أو الصحابي، فلم يجد حرجًا في الاستشهاد به كما وجد بعض النحاة.

والأحاديث التي استشهد بها أبو العلاء كثيرة ولذا سنكتفي بذكر بعضها ونحيل إلى بعضها الآخر. فمما استشهد به قول الرسول "من فوق سبعة أرقعة"، وقد استشهد به على أن الرقيع: السماء وأنه لفظ مذكر لتأنيث العدد ولمجيء الجمع على أفعلة. إذ لو كان مؤنثًا لكان الواجب أن يقول من فوق سبع أرقع؛ لأن فعيلا إذا كان للمؤنث يجمع على أفعُل.

---

(١) المرجع ص ٢٦ .

(٢) ص ١٧ .

(٣) راجع خزانة الأدب ١/٥، ٦ .

(٤) راجع تعريف القدماء ص ٢٠٠، ٥٢١-٥٢٤ .

كذلك استشهد على أن "الشَّرخ" جمع شارخ بالحديث المرفوع: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بسرية فأمرهم أن يقتلوا شيوخ المشركين ويستبقوا شرخهم [١].

وموقف أبي العلاء في الاستشهاد بالحديث موقف سديد، وإذا كانت الرواية بالمعنى هي السبب في ترك من ترك الاستشهاد بالحديث فقد كان من الرواة من يتمسكون بحرفية النص، وحتى على فرض وقوع الرواية بالمعنى فقد تم ذلك في الصدر الأول قبل فساد اللغة حين كان كلام أولئك المبدلين حجة كذلك [٢] .

الضرورة الشعرية:

اختلف النحويون في حد الضرورة الشعرية فذهب الجمهور إلى أنها "ما وقع في الشعر مما لم يقع في النثر سواء كان للشاعر عنه مندوحة أم لا"، ومذهب ابن مالك، وهو الصحيح عن سيبويه، وما يشعر به كلام ابن الحاجب أنها "ما ليس للشاعر مندوحة عنه" [٣].

ويبين أثر الخلاف فيما جاء في الشعر ووجدت فيه المندوحة، فالجمهور يقصره على السماع وابن مالك يقيس عليه. ولذلك "أجاز وصل أل بالمضارع قليلا ولم يجعله ضرورة استدلالا بقول الشاعر:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

لتمكنه من أن يقول: "المرضي حكومته". وحيث لم يقل ذلك مع الاستطاعة ففي ذلك إشعار بالاختيار وعدم الاضطرار"[٤] .

---

(١) الفصول والغايات ص ٢٨، ٣٧٩ وانظر كذلك الصفحات ١١٤، ١٩١، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٩، ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٨ ...

(٢) راجع الزفزاف: التعريف بالقرآن والحديث ص ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩وخزانة الأدب ٧/١ .

(٣)موطئة الفصيح ورقة ١٩-٢١ والضرائر للآلوسي ص٦ .

(٤)موطئة الفصيح ورقة ٢٠ وخزانة الأدب ١٥/١ .

وكأني بأصحاب المذهب الأول قد وسعوا في مدلول الضرورة لتكون سلاحًا يشهرونه في وجه كل بيت يخالف قواعدهم أو يعجزون عن تخريجه، وفي هذا من الخطورة ما فيه. ولذلك نجد أبا العلاء يرفض هذا المذهب- وإن كان مذهب الجمهور- ولا يتردد في نصرة المذهب الثاني والذود عنه ولذا فهو يقول: "ينشد قول أبي ذؤيب الهذلي:

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهم　　　فتخرموا ولكل جنب مصرع

ولو أنشد: هواي لم يكن بالوزن بأس. والاستشهاد بالشعر على نوعين: أحدهما لا مزية فيه للمنظوم على المنثور، والآخر يكون حكم الموزون فيه غير حكم النثر. فالضرب الأول كبيت أبي ذؤيب الذي مر.. والضرب الآخر هو الذي يكون الوزن إن غير عما استشهد به عليه لحقه إخلال كقوله:

ألا من مبلغ الحرين عني　　　مغلغلة وخص بها أبيا

يطوّف بي عكبّ في معد　　　ويطعن بالصملة في قفيا

فهذا لا يمكن إلا على لغة من قال قفيّ"[1] .

ويقول في بيت الهذلي:

أبيت على معاريَ فاخرات　　　بهن ملوب كدم العباط

الذي يدعي النحاة أنه ضرورة –يقول أبو العلاء: "ولو قال معارٍ لم يخل بالبيت" [2] إذ لن يكون فيه سوى تسكين لام مفاعلتن.

خاتمة

أثره في النحو ومكانته بين النحاة

والآن وقد جلنا جولة في نحو أبي العلاء، وعرضنا أصول مذهبه نحب أن نقف قليلا لنرى أثره في النحو، وما قدمه لهذا العلم من أفضال:

---

(١) رسالة الملائكة ص ١٨١-١٨٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠ .

١ – وأول شيء يذكر للمعري بالحمد والإكبار ذلك المنهج القويم الذي خطه لنفسه وسار عليه في تقعيده للقواعد كما سبق أن بينا.

٢ – وحديثنا عن منهج أبي العلاء يجرنا إلى الحديث عن أسلوبه الخاص الذي ابتدعه ورأى فيه خير طريق يعرض به مسائل النحو الجافة، ويحبّب النشء فيها، ويقربها إلى أفهامهم؛ فكان أن ابتدع ذلك الأسلوب الأدبي والقصصي الذي لا نعرف أحدًا من النحاة غيره قد استخدمه في عرض مسائل اللغة والنحو.

وفي هذا يقول الدكتور طه حسين: "وكثير مما صور أصحاب النحو والصرف..قد سلكه أبو العلاء في كتبه قصصًا جميلا رائعًا، أو حوارًا بديعًا ممتعًا"[١].
وقد عرضنا فيما سبق نماذج لذلك من "رسالة الغفران" ولا نرى الآن بأسًا من أن نشير إلى مؤلف آخر له تبدو فيه تلك الظاهرة بوضوح وهو "رسالة الملائكة" التي يبدو فيها خياله الواسع ولباقته وحسن اختياره للأساليب التي تنفذ إلى أعماق القلوب؛ فقد جعل نفسه كأنه أشرف على الموت وجاءه الملك فأراد أن يدافعه فذكر له أصل "ملك" واشتقاقه، ثم تطرق إلى الحديث عن عزرائيل .. ثم دار الحديث بينه وبين منكر ونكير.

وهو في أثناء ذلك يعرض لأدق مسائل النحو والصرف. إلى أن جرى ما جرى بينه وبين رضوان ، واتخذ ذلك وسيلة للحديث عما في الجنة من نعيم فتحدث عن أحرف كمثرى ووزنها، وسفرجل وسندس ،وشجرة طوبى وهل هي من ذوات الواو أو الياء... ولو أنه سرد تلك المسائل وتكلم عن كل واحدة منها بعد الأخرى كما يفعل النحاة لملها القارىء وتسربت السآمة إلى نفسه.

٣ – كما كان يجلس للتدريس بالمعرة، ويقصده الطلاب من مختلف البلاد لكي يستفيدوا من علمه.

وقد اتفقت كلمة المتقدمين "أن رسالة الملائكة ألفها أبو العلاء جوابًا عن مسائل صرفية سأله عنها بعض الطلبة"[٢].

---

(١)مع أبي العلاء في سجنه ص١٧٣ .
(٢)مقدمة رسالة الملائكة صفحة ب.

كذلك يروى أن أحد طلبة العلم اليمنيين وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله وأعجبه جمعه وترتيبه. وكان يسأل كل من التقى به عن اسمه واسم مصنفه دون جدوى. وأخيرًا دُلّ على أبي العلاء فقصده بالمعرة وقرأ له من الكتاب شيئًا فقال له أبو العلاء: هذا ديوان الأدب ومؤلفه الفارابي وأكمل له النقص الذي عنده [١].

٤ — ومن أفضاله على النحو كذلك تلك الكتب التي ألفها فيه وعددها أحد عشر كتابا كما سبق أن ذكرنا.

ولكن هل كان أبو العلاء نحويًا؟

قد يبدو هذا السؤال غريبًا الآن بعد أن عشنا مع نحو أبي العلاء ورأينا شخصيته النحوية بادية في كل خطوة يخطوها. ولكن ماذا نفعل ونحن مضطرون إلى طرح هذا السؤال بعد أن رأينا من الباحثين من يسخر من نحو أبي العلاء ويستكثر عليه أن يكون نحويًا، فيسلبه بذلك خاصة من ألزم خصائصه، وصفة من ألصق الصفات به. يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى: "وأستطيع الآن أن أقرر مطمئنًا أن أبا العلاء كان عالمًا بالنحو وأن أقرر كذلك أنه لم يكن نحويًا.. وإنما كان ناقدًا لغويًا، درس النحو فعابه، وضاق، وانصرف عنه"[٢] ..

ونحب أن نسأل الأستاذ الفاضل: لماذا أخرجت المعري من زمرة النحاة؟ وما الشروط التي تفرضها لتسلك الشخص بموجبها في عداد النحاة؟

أهي أن يزكيه العلماء ويشهدوا له بالكفاية والسبق في النحو؟

أم هي أن يكون عالمًا باللغة وبالقرآن والحديث راويًا للشعر والأدب؟

أم هي أن يكون صاحب كتب ورسائل في النحو؟

أم هي أن يكون موهوبًا ذا قدرة على المناقشة والبحث والاستقصاء؟

أم هي أن يجلس لتدريس النحو، وأن يكون ذا مدرسة لها منهجها في البحث وطريقتها في التناول؟

---

(١) الفارابي اللغوي ص ١١٣ .

(٢) المهرجان الألفي ص ٣٧٢ .

الحق أننا نحار في تعرف أسباب هذا الحكم الجائر؛ فقد توافرت في أبي العلاء من الصفات والخصائص، ووهب من الذكاء والقدرة على الفهم ما يرشحه لأن يكون نحويًا من الطراز الأول:

فقد زكاه العلماء قديمًا وحديثًا وشهدوا بسبقه في النحو وترجموا له في النحاة كما فعل ياقوت في معجم الأدباء والقفطي في إنباه الرواة والسيوطي في البغية.

وكان عالمًا باللغة وشواردها ملمًا بلهجات العرب حتى قال تلميذه التبريزي: "ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري"[1] .

وكان عالمًا بالقراءات راويًا للحديث بصيرًا بأشعار العرب وآدابها حافظًا لكتب اللغة.

وكان صاحب مؤلفات في النحو بلغت أحد عشر مؤلفًا.

وكان ذا موهبة وقدرة على البحث والاستقصاء لا يعرض لمسألة لغوية أو نحوية ثم يدعها قبل أن يستقصيها. ويكفي أن أحيل السيد الباحث إلى ما قاله أبو العلاء في لفظ "إياك" في رسالة الملائكة ليرى دقته وحرصه على الاستقصاء التام.

وكان صاحب مدرسة نحوية يؤمها الطلاب من شتى البقاع، ولها أسلوبها الخاص في البحث والتناول.

فماذا ينقصه بعد هذا من صفات النحوي.

لقد تسرع الأستاذ الفاضل فأصدر هذا الحكم دون أن يكلف نفسه عناء قراءة نحو أبي العلاء، ودون أن يتعمق في فهم ما قرأه من نحو أبي العلاء فظنه نقدًا سطحيًا "ليس دقيق المسلك ولا خفي المكانة"[2] .

ولو أنه قرأ نحو أبي العلاء وتعمقه وتمعن فيه لتردد كثيرًا قبل أن يصدر هذا الحكم، بل لوضع أبا العلاء في صف أئمة النحو الأعلام، ولشهد له بالسبق والنبوغ،

---

(١)تعريف القدماء ص ٥٦٩ .

(٢)المهرجان الألفي ص ٣٧٢ .

ولقال فيه كما قال الدكتور طه حسين: "كان أبو العلاء في القرن الخامس بإقليم حلب كابن خالويه في القرن الرابع"[1].

وإذا كان أبو العلاء قد نبغ في فروع كثيرة من المعرفة، واشتهر بها، فلا يصح أن يعد ذلك عليه لا له. وكثير من النحاة الذين لمع اسمهم في النحو وحده لم يتركوا من الآثار النحوية مثل ما ترك أبو العلاء رغم تعدد جوانب شخصيته العلمية. وهذا أدعى إلى تقديره والإعجاب به.

---

(١)ذكرى أبي العلاء ص٢١٧ .

مصادر البحث

أ-مؤلفات أبي العلاء المعري:

١ -رسائل أبي العلاء المعري - نشر مرجليوث - ط أكسفورد.

٢-رسالة الغفران- تحقيق بنت الشاطئ -ط أولى ١٩٥٠.

٣-رسالة الملائكة - تحقيق محمد سليم الجندي -ط دمشق ١٩٤٤.

٤-شرح ديوان الحماسة- مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٣٠٨ أدب.

٥-عبث الوليد -دمشق ١٩٣٦ .

٦-الفصول والغايات - نشر محمود حسن زناتي -ط أولى ١٩٣٨.

٧-اللزوميات - ط حجر -بومباي ١٣٠٣هـ .

٨-معجز أحمد - مصورة دار الكتب المصرية رقم ٤٢٤٦أدب.

ب - مراجع أخرى:

١ - أبو العلاء وما إليه - الراجكوتي - ط السلفية ١٣٤٤هـ .

٢-أبو العلاء المعري وعلم النحو - إبراهيم مصطفى - المهرجان الألفي لأبي العلاء - دمشق ١٩٤٥.

٣-إتحاف فضلاء البشر - الدمياطي - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤١٣ قراءات.

٤-الاقتراح في علم أصول النحو- السيوطي - ط أولى- حيدر آباد ١٣١٠هـ .

٥-بغية الوعاة - السيوطي- ط أولى - القاهرة ١٣٢٦هـ .

٦-التعريف بالقرآن والحديث - محمد الزفزاف - ط أولى- القاهرة.

٧-تعريف القدماء بأبي العلاء- جمع وتحقيق لجنة - ط دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ .

٨-الجامع لأحكام القرآن- القرطبي - ط دار الكتب ١٩٣٩ .

٩-الحجة- أبو علي الفارسي- مصورة دار الكتب المصرية رقم ٤٦٢ قراءات.

١٠-خزانة الأدب- البغدادي- ط أولى- ط بولاق.

١١-ذكرى أبي العلاء- دكتور طه حسين -مصر ١٣٣٤هـ .

١٢-الرد على النحاة- ابن مضاء القرطبي - تحقيق د. شوقي ضيف- ط أولى ١٩٤٧ .

١٣–شرح كتاب سيبويه — السيرافي –مخطوطة دار الكتب رقم ١٣٧ نحو.

١٤–الضرائر– الآلوسي –ط السلفية ١٣٤١هـ .

١٥–الغفران– دكتورة بنت الشاطىء –ط أولى– المعارف ١٩٥٤ .

١٦–الفارابي اللغوي– دكتور أحمد مختار عمر –مقال بمجلة معهد المخطوطات —مجلد ٧جزء٢.

١٧–القياس في اللغة– محمد الخضر حسين –ط السلفية ١٣٥٣ .

١٨–كتاب سيبويه– ط أولى – بولاق ١٣١٧هـ .

١٩–محاضر جلسات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢٠–المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات– ابن جني – مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢ ش قراءات.

٢١–مع أبي العلاء في سجنه– دكتور طه حسين – ط مصر .

٢٢–معجم الأدباء — ياقوت – ط الحلبي.

٢٣–المقتضب في النحو — المبرد – مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٩٠٩ نحو .

٢٤–موطئة الفصيح — ابن الطيب الفاسي – مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٧٩لغة.

٢٥–نشأة النحو– محمد الطنطاوي – ط الصاوي١٩٣١.

٢٦–النشر في القراءات العشر — ابن الجزري –دمشق ١٣٤٥ .

٢٧–النقد واللغة في رسالة الغفران — دكتور أمجد الطرابلسي – الجامعة السورية ١٩٥١ .

جهود ابن سينا في اللغة والأصوات*

١- مقدمة

ولد أبو علي بن سينا عام ٣٧٠ أو ٣٧٣ أو ٣٧٥هـ في قرية أفشنة بالقرب من بخارى . وقد قال عن نفسه: "أُحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأتيت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب" . وقد درس في صباه إلى جانب القرآن والأدب: الفقه والمنطق ، وبعد ذلك درس الطب والفلسفة . وكان يقرأ الكتب المصنفة في الطب بنفسه بعد أن وجد " علم الطب ليس من العلوم الصعبة ".

وبرز في الطب في أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليه علم الطب وهو ابن ست عشرة سنة . وفي تلك السنّ شارك في مداواة الأمير نوح بن منصور وسمح له بدخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها . وحين بلغ ثماني عشرة سنة كان قد فرغ من هذه العلوم كلها.

وكان ابن سينا كثير التطواف في بلاد فارس إلى أن توفى في همذان عام ٤٢٨ بعد أن ترك ما يزيد على مائتين وخمسين مؤلفًا ما بين كتاب ورسالة ومختصر من أشهرها : القانون، والشفاء، والنجاة، والإشارات[١] ..

ولم يكن ابن سينا في تآليفه متخصصًا ، فقد جمع إلى الفلسفة التي اشتهر بها علومًا أخرى كثيرة ، حتى صح أن يقول عنه الأب جورج قنواتي: " كان ابن سينا من الرجال القلائل في العالم الإسلامي الذين يصح أن نسميهم موسوعيين ، أو كما يسمون اليوم: كتاب دائرة المعارف"[٢] ، وأن يقول عنه الدكتور شاكر الفحام: "كانت إحاطته بالعلوم شاملة ، وكان شغفه بالمعرفة لا حدود له".

ألف في الطب ، وألف في الفلســـفة .. وألف في الدين والزهد والتصوف والعشـق،

* نشر في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي- العدد الخامس- مكة المكرمة١٩٨٢.

وألف في الكيمياء والأسرار وتأويل الرؤيا ، وألف في الفلك ، وألف في تدبير الجند وخراج الممالك ، وألف في الموسيقى ، وألف في اللغة والنحو .."[٣] .

٢- جهوده اللغوية

يبدو أن اشتغال ابن سينا باللغة جاء بأخرة . إذ يذكر المترجمون لحياته قصة جرت له مع أبي منصور الجبان[٤] استثارته ودفعته إلى دراسة اللغة والتعمق فيها. يقول ابن أبي أصيبعة: "كان ابن سينا جالسًا يومًا بين يدي الأمير ، وأبو منصور الجبان حاضر . فجرى في اللغة مسألة تكلم ابن سينا فيها بما حضره ، فالتفت أبو منصور إليه يقول : إنك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها. فاستنكف ابن سينا من هذا الكلام ، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان للأزهري . فبلغ ابن سينا في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها. وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظًا غريبة في اللغة.."[٥] ويذكر ابن أبي أصيبعة لابن سينا المؤلفات اللغوية الآتية:

١- لسان العرب . في عشرة مجلدات، قال عنه: لم يصنف في اللغة مثله، ولم ينقله في البياض حتى توفي فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه . وجاء عنه في بنج رسالة: "يشتمل كل كتاب منها على فنون. وهو كتاب نادر، قد جعل له ترتيبا حسنا. غير أنه لم يتمم ، ولم يخرجه عن المسودة إلى البياض. وقد تخطأ عن حصر الألفاظ على عادة أهل اللغة إلى الإبانة عن مقتضياتها ، والفرق بين ما تقتضيه من معانيها. وقد رأيت طرفا من هذا الكتاب بخطه بمقدار مائة وثلاثين ورقة فما تمكنت من تحريرها فانتخبت منه فصولا ونكتا عجيبة"[٦] . ويبدو أن هذا الكتاب من نوع معاجم الموضوعات التي تجمع كلمات كل موضوع تحت عنوان واحد وتفسرها. كما يبدو من الاقتباس الموجز الذى ذكرته كتب اللغة أنه كان يهتم بالتفريق بين المعاني المتقاربة أو المتشابهة ، ومن ذلك قوله: "المشابهة اتفاق في الكيفية وما يجري معها، والمساواة اتفاق في الكمية، والمحاذاة والموازاة اتفاق في البعضية، والمماثلة والمشاكلة اتفاق في الذات، والمواطأة اتفاق في العزم"[٦].

٢- مقالة في مخارج الحروف . وهي التي طبعت تحت اسم: أسباب حدوث الحروف.

٣- جواب لعدة مسائل في تبيين ماهية الحروف . ولعله المطبوع تحت اسم الرسالة السابعة النيروزية: في معاني الحروف الهجائية.
٤- كتاب الملح في النحو(٧).

ولم يصلنا من هذه المؤلفات سوى رقمي ٢، ٣ بالإضافة إلى بعض الآراء اللغوية المتناثرة التي وردت في مؤلفات أخرى له مثل الشفاء والقانون . وستكون هذه وتلك عمادنا في هذه الدراسة ، كما سينال مؤلفه رقم ٢ منا عناية خاصة نظرًا لأهميته وتفرده.

٣-التعريف بمؤلفاته اللغوية

أولا: أسباب حدوث الحروف:

أ-عنوانه ووقت تأليفه:

ورد هذا الكتاب في المراجع باسمي: رسالة، ومقالة، ووردت بقية الاسم هكذا: في تحقيق الحروف – في أسباب الحروف – في أسرار الحروف – في حدوث الحروف – في مخارج الحروف – في أسباب حدوث الحروف ومخارجها – في الحروف – في مخارج الحروف وصفاتها. كما ورد بالأسماء الآتية:

معرفة حدوث الحروف – مخارج الصوت والحروف – أسباب حدوث الحروف.

ولما كانت هذه الرسالة قد ألفت في أصفهان كما صرح الجوزجاني(٨) فلابد أن يكون تأليفها قد تم عام ٤١٤ أو ما بعده لأنه العام الذي ذهب فيه الشيخ إلى أصفهان(٩).

ب- طبعاته:

طبع هذا الكتاب عدة طبعات باللغة العربية وبلغات مختلفة:

١- فطبع بالعربية بمطبعة المؤيد بالقاهرة عام ١٣٣٢هـ ، وقام محب الدين الخطيب بتحقيقه ومقابلته معتمدًا على نسختين إحداهما رقم ١٦٦٥٩ بالمتحف البريطاني ، والأخرى رقم ٢٠٠مجاميع ، بالمكتبة التيمورية بالقاهرة.

٢- كما طبع بإيران طبعة أولى عام ١٣٣٣ ضمن السلسلة التى تنشرها جامعة طهران، وقام بتحقيقها برويز ناتل خانلري.

٣- وبسبب نفاد نسخ الطبعة السابقة أعيد طبع الكتاب في إيران عام ١٣٤٩ . ولما كان للكتاب روايتان مختلفتان إلى حد يجعل من المتعذر إدماجهما في نص واحد ، فقد نشر الكتاب في روايتين منفصلتين باللغة العربية ، مع ترجمة كاملة باللغة الفارسية للرواية الأولى ، وإضافة بعض الزيادات على النص المترجم من الرواية الثانية.

٤- وفي عام ١٩٣٤ نشر الأستاذ Max Bravmann ترجمة ألمانية لهذا الكتاب طبعها في جوتنجن كجزء من رسالة بالألمانية عنوانها:

Materialien Und Untersuchungen Zuden Phonetischen Lehren der Araber

٥- وفي عام ١٩٦٣ نشرت للكتاب ترجمة إنجليزية في لاهور مع مقدمة للأستاذ خليل سمعان.

٦-وفي عام ١٩٦٦ نشر الأستاذ فلاديمير أخولدياني في تفليس ترجمة روسية له مصحوبة بالمتن الأصلي ، بعد أن عكف على تصحيحه ووضع له فهرسا للاصطلاحات ، ومقدمة مسهبة حول علم الأصوات العربي.

جـ- نسخه المخطوطة:

توجد عشرات النسخ المخطوطة لهذا الكتاب في كثير من مكتبات العالم من بينها:

١- نسخة المتحف البريطاني السابق ذكرها.

٢- نسخة المكتبة التيمورية السابق ذكرها.

وهما النسختان اللتان اعتمدتهما الطبعة الأولى للكتاب.

٣- نسخة مكتبة مجلس النواب الإيراني ، وهي أقدم النسخ إذ يرجع تاريخها إلى عام ٥٦٩هـ.

٤- ويليها في القدم نسخة في استانبول في مكتبة أونيورسينه يرجع تاريخها إلى عام ٥٧٩هـ.

٥- ونسخة ثانية بنفس المكتبة يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٨هـ.

٦- وهناك نسخة يمتلكها الدكتور يحيى مهدوي الأستاذ بجامعة طهران يرجع تاريخها إلى عام٥٩٦ و ٥٩٧ .

٧- ونسخة تمتلكها مكتبة أيا صوفية غير مؤكدة التاريخ.

وهي نسخ اعتمدتها طبعة إيران ، وقابلت بينها.

وهناك نسخ أخرى في تركيا وهولندا وإيران تجد وصفا لها في:

- فهرست نسخه هاى مصنفات ابن سينا للدكتور يحيى مهدوي.
- مؤلفات ابن سينا للأب جورج قنواتي.

د — وصفه:

يقع الكتاب في مقدمة وستة فصول.

أما المقدمة فقد بدأت — في إحدى روايتيها — قائلة: "الحمد لله وحده، حمدًا يستأهله بعظمة ذاته، وسعة رحمته، وفيضان جوده. وصلواته على نبيه محمد وآله. وبعد: فليس كل قابل هدية محتاجًا إليها، ولا كل طالب تحفة فاقدًا لها. بل ربما آثر الغنيّ في ذلك إكرام الفقير، وتوخّى الكبير به التبسط من الصغير. والشيخ الكبير الكريم الأستاذ أبو منصور محمد بن علي بن عمر [الجيان — الجبان — الجبان[١٠]..] — وهو الذي ما شئت فله في نفسه من المحامد الباهرة، وعندي، وفي ذمتي من المنن الظاهرة - التمس مني التماس باسط لا محتاج أن أكتب باسمه ما حصل عندي بعد البحث المستقصي من أسباب حدوث الحروف باختلافها في المسموع، في رسالة وجيزة جدًا، فتلقيت ملتمسه بالطاعة، وسألت الله أن يوفقني للصواب ألزمه، والحق أتبعه، وهو ولي الرحمة".

وأما فصول الكتاب فقد حملت العناوين الآتية:

١- في سبب حدوث الصوت.

٢- في سبب حدوث الحروف.

٣- في تشريح الحنجرة واللسان.

٤- في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب.

٥- في الحروف الشبيهة بهذه الحروف.

٦- في أن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية.

ثانيا: الرسالة السابعة النيروزية في معاني الحروف الهجائية:

طبعت هذه الرسالة طبعتين حتى الآن ، أولاهما ضمن: تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات (الجوائب- القسطنطينية ١٢٩٨)، وثانيتهما ضمن المجموعة الخامسة من نوادر المخطوطات بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

وليس هدف الرسالة لغويا في المقام الأول ، لأنها – كما يقول ابن سينا نفسه في مقدمتها – "في معاني الحروف الهجائية التي في فواتح بعض السور الفرقانية".

وقد بدأت الرسالة قائلة: "كل تنزع به همته إلى خدمة نيروز مولانا الشيخ الأمير السيد أبي بكر محمد بن عبد الرحيم أدام الله عزه بتحفة تجود بها ذات يده. ولما رغبت في أن أكون واحد القوم ، وتابعًا للسواد الأعظم.. وكانت حالي تقعدني عن إهداء تحفة دنياوية.. ورأيت الحكم أفضل مرغوب فيه..لا سيما الحكمة الإلهية، وخصوصًا ما كان حكيما مليا ، ثم ما كان يكشف سرا هو من أغمض أسرار الحكمة والملة ، وهو الإنباء عن الغرض المضمَّن في الحروف الهجائية، فواتح عدة من السور الفرقانية – اتخذت فيه رسالة وجعلتها هديتي النيروزية إليه.."

والرسالة مقسمة إلى ثلاثة فصول على النحو التالي:

الأول: في ترتيب الموجودات والدلالة على خاصية كل مرتبة من مراتبها.

الثاني: في الدلالة على كيفية دلالة الحروف عليها.

الثالث: في الغرض.

وقد انتهى ابن سينا في الفصل الأخير، وهو الغرض من الرسالة – كما قال – إلى تفسير فواتح السور تفسيرًا جديدًا ؛ إذ ذهب إلى أن المدلول عليه بألف لام ميم هو القسم بالأول ذي الأمر والخلق..وبألف لام ميم صاد: القسم بالأول ذي الأمر والخلق منشئ الكل ، وبصاد القسم بالعناية الكلية ، وبقاف القسم بالإبداع...إلخ.

٤-آراؤه الصوتية

أ- طبيعة الصوت:

تناول ابن سينا طبيعة الصوت في رسالته " أسباب حدوث الحروف"، وفي كتابه "الشفاء" في فصل السمع . وعلى الرغم من أن ابن سينا قد عالج هذه القضية بأسلوب فلسفي ، فقد انتهى إلى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هي:

١- وجود جسم في حالة تذبذب.

٢- وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب.

٣- وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات.

وهو نفس ما انتهى إليه المحدثون من علماء الأصوات[١١].

وقد عبر ابن سينا عن العنصر الأول باشتراط وجود قرع أو قلع" أما القرع فمثل ما تقرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت . وأما القلع فمثل ما يقلع أحد شقي مشقوق عن الآخر ، كخشبة تنحي عليها بأن تبين أحد شقيها عن الآخر طولاً" . واشترط لإحداث القرع أو القلع صوتا أن يكون كل منهما بقوة معينة"فإن قرعت جسمًا كالصوف بقرع لين جدًا لم تحس صوتا. بل يجب أن يكون للجسم الذي تقرعه مقاومة ما، وأن يكون للحركة التي للمقروع به إلى المقروع عنف صادم.. وكذلك إذا شققت شيئا يسيرا وكان الشيء لا صلابة له لم يكن للقلع صوت ألبتة"[١٢].

وعبر عن العنصر الثاني ، وهو وجود وسط ناقل للذبذبات بقوله: "أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان"، وقوله: " وهذا الشيء الذي فيه هذه الحركات شيء رطب سيّال لا محالة ، إما ماء ، وإما هواء. فيكون مع كل قرع وقلع حركة للهواء أو ما يجري مجراه ، إما قليلا قليلا برفق ، وإما دفعة على سبيل تموج أو انجذاب بقوة . فقد وجب أن هاهنا شيئا لابد أن يكون موجودًا عند حدوث الصوت ، وهو حركة قوية من الهواء ، أو ما يجري مجراه" [١٣] .

أما الجسم المستقبل للذبذبات فقد تحدث عنه في كتابيه الشفاء وأسباب حدوث الحروف، وذلك في قوله في الأول: " فإذا انتهى التموج من الهواء أو الماء إلى الصماخ،

وهناك تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهي إليه، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت – أحس بالصوت"[١٤]. وفي الثاني: " ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة في سطحه" [١٥].

ومن اللافت للنظر كذلك أن يتنبه ابن سينا إلى قابلية الأذن لإدراك الأصوات بمعدلات معينة للتردد والتوتر لها حد أدنى وحد أعلى ، وأن يتنبه إلى أن زيادة شدة الصوت عن مقدار معين تسبب الأذى والإزعاج للسامع[١٦]، وذلك في قوله: " القرع الشديد يحدث صوتًا يضر بالسمع"، وقوله: " والتموج الفاعل للصوت قد يحس حتى يؤلم" [١٧]. بل يصرح ابن سينا بقدرة الأصوات الشديدة على تحطيم الأشياء "فإن صوت الرعد قد يعرض منه أن يدك الجبال، وربما ضرب حيوانًا فأفسده. وكثيرا ما يستظهر على هدم الحصون العالية بأصوات البوقات"[١٨].

ب- مخرج الصوت الإنساني وصفاته:

يستخدم ابن سينا للتعبير عن إنتاج الصوت لفظ الحبس ومشتقاته . أما كلمة المخرج فيبدو أنه يستخدمها للإشارة إلى مجرى الهواء أو طريقه الذي يكون إما نحو الأنف أو الفم . وقد تردد في كلامه ألفاظ المخرج والمخارج والحبس والحابس والمحبوس والمحابس.

ويرى ابن سينا أن الذي يميز الحرف (الصوت) عن الحرف (الصوت) جملة عوامل منها:

١-اختلاف نقطة التحكم في مجرى الهواء" بسبب اختلاف الأجرام التي يقع عندها وبها الحبس والإطلاق؛ فإنها ربما كانت ألين، وربما كانت أصلب، وربما كانت أيبس، وربما كانت أرطب.. وقد يكون الحابس أصغر وأعظم، والمحبوس أكثر وأقل، والمخرج أضيق وأوسع، ومستدير الشكل، ومستعرض الشكل مع دقة، والحبس أشد وألين، والضغط بعد الإطلاق أحفز وأسلس.." [١٩].

٢-اختلاف حال التموج (بعد أن ذكر أن نفس التموج إنما يفعل الصوت): "وأما حال التموج في نفسه من اتصال أجزائه وتماسّها، أو تشظيها وتشذبها فيفعل الحدة والثقل. أما الحدة فيفعلها الأولان، وأما الثقل فيفعله الثانيان" [٢٠].

ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الحدة والثقل بأحد تفسيرين:

أولهما وأرجحهما أن ابن سينا هنا يشير إلى درجة الصوت Pitch، لأن طول الموجة مع الصوت الحاد أقل منه مع الصوت الثقيل . فأجزاء الموجة في الصوت الحاد متقاربة متماسكة ، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة.

الأمر الثاني أن ابن سينا في هذا النص أراد فعلا أن يصف لنا حدة الصوت وثقله high and low pitch ، وجعل حدة الصوت أو ثقله متوقفًا على طبيعة الجسم المقروع. فهو في حالة اتصال أجزائه وتماسكها، أي حين تكون كثافة كبيرة كالأجسام الصلبة من معادن ونحوها يكون الصوت عادة حادًا على حين أن الصوت مع الجسم الأقل كثافة كالخشب مثلا يكون ثقيلاً (٢١).

٣- اختلاف طريقة التحكم في الهواء عند نقطة الإنتاج (المحبس). وقد ذكر ابن سينا في هذا الخصوص طريقتين هما:

أ-الحبس التام للصوت.

ب-الحبس غير التام للصوت.

وقد عبر عن هذين بقوله: "والحروف بعضها – في الحقيقة – مفردة ، وحدوثها عن حبسات تامة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت يتبعها إطلاق دفعة . وبعضها مركبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع إطلاقات" (٢٢).

وهنا نلاحظ أن ابن سينا يستعمل المصطلحين: مفردة ومركبة في مقابل مصطلحي سيبويه: شديدة ورخوة ، والمصطلحين الحديثين: انفجارية(وقفية)واحتكاكية.

وقد فرّق ابن سينا بين الحروف المفردة والحروف المركبة قائلاً: " وهذه المفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الإطلاق . وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدث فيه صوت حادث عن الهواء وهو مسكّن بالحبس، وزمان الإطلاق ليس يسمع فيه شيء من هذه الحروف لأنها لا تمتد ألبتة ، إنما هي مع إزالة الحبس فقط . وأما الحروف الأخرى فإنها تشترك في أنها تمتد زمانًا، وتفنى مع زمان الإطلاق التام . وإنما تمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق" (٢٣).

وقد قسم ابن سينا الحروف المفردة (الوقفية) إلى نوعين:

أ- مفردة (على الإطلاق).

ب- مفردة من وجه.

أما المفردة على الإطلاق فهي: الباء والتاء والجيم والدال والطاء والقاف والكاف والهمزة[٢٤].

وأما المفردة من وجه فهي: الضاد واللام والميم والنون.

وقد أصاب ابن سينا في هذه التفرقة بين النوعين، واعتباره الحبس في الأصوات الأربعة الأخيرة حبسا جزئيا في مكان يصحبه تسريح في مكان آخر. فالضاد – كما يذكر القدماء –"إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر"، وكلام سيبويه يدل على أنها تكون من الجانبين[٢٥]. واللام – على حد تعبير سيبويه – صوت منحرف جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة.[٢٦]

والميم والنون صوتان شديدان عند سيبويه يجري معهما الصوت ، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف ، فإنما تخرجه من أنفك.

وقد اعتبر بعض المتأخرين (ابن جني والزمخشري وابن الجزري وغيرهم) النون والميم واللام (مع حروف أخرى) ضمن الحروف المتوسطة ، أو بين الشديدة والرخوة [٢٧].

وأما الحروف المركبة (الاحتكاكية) فلم يذكرها ابن سينا بالاسم مكتفيا بذكر مقابلاتها المفردة (الوقفية) " ولك أن تعدها عدا". وبعملية إسقاط للحروف المفردة يتبين أن المركبة عنده هي: الثاء – الحاء – الخاء – الذال – الراء – الزاي – السين – الشين – الصاد – الضاد – العين – الغين – الفاء – الهاء.

ويبقى تعليق على صوت الراء. فإذا كان التقسيم الثنائي إلى شديد ورخو لم يستطع أن يشملها ، فاختصها اللغويون باسم "المكرر" (وإن اعتبروها نوعا من الشديد) فإن مصطلح "المركب" عند ابن سينا يمكن أن يشملها بسهولة ، لأن شرط

التـركيـب في الصوت أن "يمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق"، وهو ما ينطبق على الصوت المكرر: الراء ، كما ينطبق على الأصوات الاحتكاكية.

جـ – أصوات العربية:

خـص ابـن سـينا أصـوات اللغـة العربـية بفصـل في رسالته ، هو الفصل الرابع الذي عـنونه"في الأسـباب الجزئـية لحرف حرف من حروف العرب". وقد عالج ابن سينا في هذا الفصل الأصوات صوتًا صوتًا على الترتيب التالي:

الهمـزة – الهـاء – العـين – الحاء – الخاء – الغين – القاف – الكاف – الجيم – الشـين – الضـاد – السـين – الصـاد – الـزاي – الطـاء – الـتاء – الدال – الثاء – الـذال– الظـاء – الـلام – الـراء – الفاء – الباء – الميم – النون – الواو الصامتة – الـياء الصامتة – المصوتات: الألف الصغرى والكبرى – الواو الصغرى والكبرى – الياء الصغرى والكبرى.

وأول ما يلفت النظر في ترتيب ابن سينا ما يأتي:

١- تفريقه بين السواكن والعلل ، وتسميته الأولى صوامت والثانية مصوتات.
٢- تفـريقه بـين نوعين من الواو والياء . فنوع أدرجه في الصوامت ، ونوع أدرجه في المصوتات.
٣- تفريقه بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة (الصغرى والكبرى).
٤- اتباعه الطريقة العربية التي ترتب الأصوات من الداخل إلى الخارج.

والتحليل الدقيق لهذا الفصل يجعلنا نخرج بالنتائج الآتية:

أ-هناك فروق في الترتيب بين القدماء وابن سينا كما يبين الجدول الآتي:

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
ع	همزة	همزة	همزة
ح	ألف	ألف	هـ
هـ	هـ	هـ	ع

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
خ	ع	ع	ح
غ	ح	ح	خ
ق	غ	غ	غ
ك	خ	خ	ق
ج	ك	ق	ك
ش	ق[٢٨]	ك	ج
ض	ض	ج	ش
ص	ج	ش	ض
س	ش	ي	س
ز	ي	ض	ص
ط	ل	ل	ز
د	ر	ر	ط
ت	ن	ن	ت
ظ	ط	ط	د
ث	د	د	ث
ذ	ت	ت	ذ
ر	ص	ص	ظ
ل	ز	ز	ل
ن	س	س[٣٠]	ر
ف	ظ	ظ	ف
ب	ذ	ذ	ب
م	ث	ث	م
و	ف	ف	ن

ابن سينا	ابن جني	سيبويه	الخليل
و	ب	ب	ا
ى	م	م	ي
الألف	و[٣١]	و[٢٩]	
الواو			
الياء			

ويتميز ترتيب ابن سينا بما يأتي:

١- عدم وضعه الألف بجوار الهمزة بخلاف ما فعل سيبويه وابن جني . وعدّ الألف مع أصوات الحلق من أخطاء اللغويين القدماء ، وإن حاول بعضهم الدفاع عنه[٣٢].

٢- تقديم القاف على الكاف مخالفا في ذلك سيبويه.

٣- إبعاد الواو والياء إلى ما بعد الانتهاء من الصوامت.

٤- تأخير أحرف العلة الثلاثة (قصيرها وطويلها) إلى ذيل القائمة.

فكأن ابن سينا قد راعى البدء بالصوامت ثم أشباه المصوتات ثم المصوتات.

٥- وضع الميم والنون متتاليين رغم اختلاف مخرجهما لاشتراكهما في صفة الأنفية.

٦-أما وضع الراء واللام عند ابن سينا ففيه نظر. ولعله تبع فيه ترتيب الخليل بن أحمد في معجمه العين.

ب- أما حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها وكيفيات نطقها فنجد فيه تفصيلا دقيقا لا نجده في كتب اللغويين . وقد أعانه على ذكر الحركات العضوية ، وعلى تحديد العضلات والمفاصل المشتركة في إنتاج الصوت خبرته العملية الواسعة بتركيب جسم الإنسان وبتشريح أعضائه . ومن أمثلة ذلك قوله:

١- أما الهمزة فإنها تحدث عن حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير ، ومن مقاومة الطرجهالي[٣٣] الحاصر زمانًا قليلاً لحفز الهواء ، ثم اندفاعه إلى الانقلاع بالعضل الفاتحة وضغط الهواء معا.

٢- وأما الحاء وإن شاركت العين فإنها تخالف العين في هيئة المخرج وفي المحبس وفي القوة وفي جهة تخلص الهواء . فإن الفرجة بين الغضروفين السافلين تكون أضيق، والهواء يندفع أميل إلى قدام ، ويصدم حافة التقعير الذي كان يصدمه هواء العين عند الخروج. وتلك الحافة صلبة ، والدفع فيها أشد فيقسر الرطوبة ويميلها إلى قدام..

٣- وأما الجيم فإنه يحدث من حبس تام للهواء بطرف اللسان ، وحصره في رطوبة وراء طرف اللسان ، ينشق عند الانطلاق من غير امتداد. ويكون تسريب الهواء مع ذلك في مسلك مضيّق ، وموجها نحو خلل الرباعيات أو غيرها ليحدث من نفوذ الهواء فيها صوت حاد صفّار ، ويختلط بفرقعة الرطوبة الشديدة اللزوجة فيكون الجيم.

٤- وأما الثاء فتخرج باعتماد من الهواء عند موضع التاء بلا حبس. وتحبس عند طرف الأسنان ليصير الخلل أضيق فيكون صفير قليل مع القلع . وكأن الثاء سين تلوفيت بحبس فُرَج مسلك هوائها الصفّار.

٥- وحدوث اللام بحبس من طرف اللسان رطب غير قويّ جدًا ، ثم قلع إلى قدام قليلا ، والاعتماد فيها على الجزء المتأخر من اللسان المماسّ لما فوقه أكثر من الاعتماد على طرف اللسان. وليس الحفز للهواء بقويّ. ولو كان الحفز والشدّ قويًا خرج حرف كالطاء.

٦- وإن كان طرف اللسان متعرضًا للموضع الذي يمسه في اللام من غير مس صادق، ولا التصاق رطوبة ، ثم عُرّض حافتاه بالعضلتين المطولتين تعريضًا أقوى من تعريض الطرف نفسه ، وحمل عليه الهواء حتى نفضه وأرعده كما يفعل الريح بكل لين متعرض له متعلق من طرف منه بشيء ثابت حدث منه حرف الراء، وسمع التكرير الذي فيه للارتعاد قدما.

٧- وأما الميم فإن الحبس فيها تام وبأجرام من الشفة أيبس وأخرج . وليس تسريب الهواء مع القلع إلى خارج الفم كله ، بل يصرف بعضه بحفز قوي إلى التجويف الذي في آخر المنخر ليدور فيه ويفعل دويا، ثم يطلقان معا.

ج- وقد فطن ابن سينا إلى وجود أثر سمعي يصاحب نطق بعض الأصوات كالزاي والذال والغين.. (وهو ما سماه اللغويون بالجهر) وحاول تفسيره من الناحية العضوية.

وعلى الرغم من أن تفسير ابن سينا تعوزه الدقة العلمية فهو أقرب إلى القبول من تفسير اللغويين لظاهرة الجهر.

يقول سيبويه معرّفًا الصوت المجهور بأنه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت" (٣٤). ونفس التعريف بألفاظه نجده عند ابن جني وغيره.

أما ابن سينا فيقول عن صوت الزاي مفرقًا بينه وبين السين والصاد: "وأما الزاي فإنها تحدث أيضا قريبا من الموضع الذي يحدث فيه السين والصاد. ولكن يكون طرف اللسان فيها أخفض، وما بعده أرفع وأقرب من سطح الحنك كالمماس بالعرض أجزاءً دون أجزاء. ولكنها أقل أخذا في الطول مما يأخذه المقرّب من سطح الشجْر والحنك في السين. والغرض من ذلك أن يحدث هناك اهتزاز على سطح اللسان وسطح الحنك ليجتمع ذلك الاهتزاز مع الصفير. وأما في سائر الأشياء فهو كالسين. ويكاد للاهتزاز الذي يقع في الزاي أن يكون تكريرًا كالتكرير الواقع في الراء".

ويقول عن صوت الغين: " ويكون الاهتزاز في تلك الرطوبة أكثر منها فيما سلف (مع الخاء)".

ويقول عن الذال إنها "تفارق الثاء في الاهتزاز".

ومعنى هذا أن ابن سينا قد فطن إلى وجود اهتزاز يصاحب نطق الزاي والذال والغين.. وأن هذا الاهتزاز في تكراره يشبه التكرار الواقع في الراء . وهذه نقطة تحسب في صالحه . ولكن الشيء الذي يؤخذ عليه هو عدم اهتدائه إلى العضو المهتزّ. إذ جعله ابن سينا سطح اللسان، أو سطح الحنك أو الرطوبة، مع أنه في الواقع الوتران الصوتيان(٣٥) في منطقة الحنجرة . ويبدو أن وجود الوترين الصوتيين في موضعهما المذكور لم يهتد إليه القدماء ، ولذا لم يرد لهما ذكر في الكتب الطبية والتشريحية العربية . نعم قد ورد في كتابات ابن سينا وغيره مصطلح "الجسم الشبيه بلسان المزمار"أو "الشيء الذي يسمى لسان المزمار" أو "الجسم المعروف بلسان المزمار"(٣٦) . كما ورد في كتابات ابن سينا أن آلة الصوت " الحنجرة والجسم الشبيه بلسان المزمار ، وهي الآلة الأولى الحقيقية ، وسائر

الآلات بواعث ومعينات"(٣٧). وذكر ابن القف أن لسان المزمار "هو الآلة الأولى في الصوت، ويسمى بهذا الاسم لأنه يشبه لسان المزمار في شكله وفعله ووضعه.. فإنه موضوع في الحنجرة في الموضع الذي يوضع فيه لسان المزمار في المزمار.. وقد جعل له الفعل الذي للسان المزمار في المزمار وهو التلحين"(٣٨). ولكنه ليس من السهل التسليم بأنهما يريدان بلسان المزمار الفرجة التي بين الأوتار الصوتية كما يرجح الدكتور أنيس (٣٩). وأغلب الظن أنهما يريدان به ما يقابل المصطلح الأجنبي epiglottis وهو مصطلح يطلق على الغضروف المفرد أعلى غضاريف الحنجرة.. الذي يقع في مقدمة الحنجرة وخلف جذر اللسان مباشرة مشكلاً جدارًا أماميا منحرفا لمدخل الحنجرة.. ويقوم لسان المزمار بالفصل بين الهواء والغذاء أثناء البلع وذلك باندفاعه إلى أسفل تبعًا لحركة جذر اللسان والعظم اللامي ليغلق مدخل الحنجرة (٤٠). ومما يدل على أن هذا هو المراد بلسان المزمار، وليس الفرجة التي بين الأوتار الصوتية ما ورد في كتاب "العمدة" من أن جالينوس سمّاه "طبق الحنجرة".. وما ورد فيه من أنه "حال ازدراد الطعام وشرب الشراب ينطبق الجميع ويحيط بالحنجرة من داخل غشاء ملبس عليها جميعها"(٤١).

وعلى هذا يكون تفسير الجهر عند ابن سينا تفسيرا مقاربا إذ ربطه بالاهتزاز، ولكن يظل غير دقيق لعدم اهتدائه للعضو الأساسي في ظاهرة الجهر وهو الوتران الصوتيان.

أما دور لسان المزمار في عملية الجهر فما يزال موضع نظر، وإن أمكن أن يسهم في تكييف الرنين بما يحدثه من تغيير في حجم فراغ الحنجرة(٤٢).

د-تحدث ابن سينا عما سماه سيبويه بالإطباق ، وما يمكن تسميته كذلك بالتفخيم ، وهو الوصف الذي تتميز به الأصوات: ص- ض- ط - ظ(٤٣). وقد أشار سيبويه إلى الإطباق بقوله: " أما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء.. وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك . فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى

موضع الحروف"، وأشار إليه ابن جني بقوله: "والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له" [٤٤].

ولكننا نجد ابن سينا يتميز عليهما بوصفه التفصيلي المعتمد على تحديد ما يلحق الأعضاء المشاركة في النطق من تعديلات . فحين يتحدث عن الصاد يقول: "ويحدث في اللسان كالتقعير حتى يكون لانقلاب الهواء كالدوي". وحين يتحدث عن الطاء يقول بعد أن حدد مخرجها وربطه بمخرج التاء والدال: " لكن الطاء يحبس في ذلك الموضع بجزء من طرف اللسان أعظم.. وتقعر وسط اللسان خلف ذلك المحبس ليحدث هناك للهواء دوي عند الإخراج، ثم يقلع ويكون الحبس بشدّ قويّ". وحين يفرق بين التاء والطاء يقول: "وأما التاء فيكون مثله في كل شيء إلا أن الحبس بطرف اللسان فقط". فهنا نجد لأول مرة حديثًا عن تقعر اللسان مع الأصوات المفخمة ، وعن اشتراك جزأين من اللسان في عملية نطقها ، وهو ما لم نجده بهذا الوضوح عند اللغويين القدماء[٤٥].

هـ- هناك بعض خلافات يلاحظها الباحث بين وصف بعض الأصوات عند ابن سينا ووصفها عند اللغويين القدماء . ومن أوضح الأمثلة لذلك وصف صوت الجيم . فعلى الرغم من أن ابن سينا يتفق مع القدماء في وضعها قبل الشين مباشرة وبعد القاف والكاف فإننا نجد خلافا في تحديد المخرج أو نقطة الإنتاج:

١- يقول سيبويه: " ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين.."[٤٦]. ومثل هذا نجده بالنص عند ابن جني[٤٧]. ويقول ابن دريد: "القاف ثم الكاف أسفل منها قليلا ، ثم الجيم والشين من اللهاة"[٤٨].

٢- أما ابن سينا فيحدد نقطة إنتاج الجيم بقوله: "وأما الجيم فإنه يحدث من حبس تام للهواء بطرف اللسان ، وحصره في رطوبة وراء طرف اللسان"[٤٩].

والتوفيق بين الرأيين ممكن إذا قلنا إن ابن سينا لا يقسم اللسان إلى أقصى ووسط وحافة وطرف كما فعل سيبويه ، وأنه يطلق طرف اللسان على نصفه الأمامي بادئًا من الوسط. ولهذا أدخل في طرف اللسان كل الأصوات التي تلي الكاف في المخرج. ولم يشر ابن سينا إلى أي أجزاء خلفية للسان ، ولذا فحين تحدث عن صوت الغين اكتفى

بقوله إنه "يحدث في موضع التغرغر". ويبدو أن العضو المؤثر في نطق الجيم كان هو العضو العلوي ، وهو الغار. أما العضو السفلي وهو اللسان فلم يكن هناك طريقة موحدة بين العرب تحدد الجزء المشترك منه في النطق . فمنهم من كان يشرك وسط اللسان، ومنهم من كان يشرك طرفه . ويستطيع القارئ أن يجرب نطق الجيم بأحد الطريقين دون أن ينتقل إلى صوت آخر.

و- وأخيرا نقول إن ابن سينا رغم تفرده في رسالته كان يتوقف أحيانا عن إصدار حكمه حين يغمض عليه الأمر . ولعل أوضح الأمثلة لذلك ما ذكره بالنسبة للمصوتات أو العلل: " وأما المصوتات فأمرها عليّ كالمشكل. ولكني أظن أن الألف الصغرى والكبرى مخرجهما من إطلاق الهواء سلسا غير مزاحم. والواوان مخرجهما مع أدنى مزاحمة وتضييق للشفتين واعتماد في الإخراج على ما يلي فوق اعتمادا يسيرا. والياءان تكون المزاحمة فيهما بالاعتماد على ما يلي أسفل قليلا "[٥٠].

وبعد :

فهذا قليل من كثير ذكره ابن سينا في دراسته للأصوات . وما زال هناك جوانب أخرى يضيق المقام عن ذكرها مثل حديثه عن تشريح الحنجرة ، وعن عيوب النطق ، وعن أثر التنغيم والوقفات في تغيير المعاني ، وهي جوانب تحتاج إلى بحوث أخرى مستقلة.

حواشي البحث

(١) انظر في كل ما مضى: عيون الأنباء ص٤٣٧ وما بعدها، ابن سينا لكارادوفو ص ١٣٠ وما بعدها، مؤلفات ابن سينا للأب قنواتي ص ٢٠وما بعدها، ابن سينا فيلسوف النفس البشرية لعبده الحلو ص ١٠ وما بعدها، تحية لابن سينا للدكتور الفحام.

(٢) مؤلفات ابن سينا ص٧ .

(٣) تحية لابن سينا ص٩، ١٠.

(٤) ورد اسمه: أبو منصور الجبائي في عيون الأنباء، وأبو منصور بن الجبان في فهرس معهد المخطوطات بالقاهرة أمام كتابه "شرح فصيح ثعلب"، وأبو منصور الجبّان في صفحة الغلاف للكتاب السابق، وفي مفتتح الكتاب، وأبو منصور بن الجبان في معجم الأدباء(١٨/ ٢٦٠)، وأبو منصور الحيان والخيام في بعض مخطوطات "أسباب حدوث الحروف"، والجياني الأصفهاني في كشف الظنون.. وقد قال عنه ياقوت: "أحد حسنات الري وعلمائها الأعيان. جيد المعرفة باللغة، باقعة الوقت، وفرد الدهر، وبحر العلم، وروضة الأدب. تصانيفه سائرة في الآفاق.. صنف: أبنية الأفعال- شرح الفصيح -الشامل في اللغة- انتهاز الفرص في تفسير المقلوب من كلام العرب..". وقد نال الأستاذ عبد الجبار جعفر درجة الماجستير في موضوع عنوانه "شرح الفصيح لابن الجبان الأصفهاني-دراسة وتحقيق" من جامعة بغداد ١٩٧٤ .

(٥) عيون الأنباء ص ٤٤٢، ٤٤٣ .

(٦) تحية لابن سينا ص١٥، ٢٩و٣٠ .

(٧) عيون الأنباء ص٤٤٠-٤٥٨ .

(٨) السابق ص ٤٥٧ .

(٩) المقدمة الفارسية لطبعة طهران.

(١٠) وردت بعدة روايات في النسخ المخطوطة.

(١١) انظر دراسة الصوت اللغوي ص٤ .

(١٢) الشفاء- في النفس ص٨٢، وأسباب حدوث الحروف- الفصل الأول.

(١٣) الشفاء- في النفس ص٨٣، وأسباب حدوث الحروف- الفصل الأول.
(١٤) ص ٨٤ .
(١٥) الفصل الأول.
(١٦) انظر في تحديد عتبة السمع وعتبة الألم: كتابنا: دراسة الصوت اللغوي ص٣١.
(١٧) الشفاء -في النفس ص٨٣، ٨٩ .
(١٨) السابق ص٨٣ .
(١٩) أسباب حدوث الحروف -الفصل الثاني.
(٢٠) أسباب حدوث الحروف- الرواية الأولى من طبعة إيران. الفصل الثاني.
(٢١) أصوات اللغة عند ابن سينا ص ١٧٨، ١٧٩ .
(٢٢) أسباب حدوث الحروف -الفصل الثاني.
(٢٣) السابق.
(٢٤) لم ترد الهمزة في هذا الفصل، وإنما وردت في الفصل الرابع حين فرق بين الهاء والهمزة واعتبر الحبس تاما مع الهمزة وغير تام مع الهاء.
(٢٥) الأصوات اللغوية ص ١٣١ .
(٢٦) السابق ص ١٣٦ .
(٢٧) السابق والصفحة.
(٢٨) وفي بعض النسخ: ق ك .
(٢٩) الكتاب ٤٣١/٤ .
(٣٠) وفي بعض النسخ : س ز .
(٣١) سر صناعة الإعراب ٥٠/١ .
(٣٢) الأصوات اللغوية ص ١١٦ .
(٣٣) الطرجهالي هو الغضروف الثالث من غضاريف الحنجرة في تشريح ابن سينا. (انظر الفصل الثالث من: أسباب حدوث الحروف).
(٣٤) الكتاب ٤٣٤/٤ .
(٣٥) رغم شيوع هذا المصطلح فهو غير دقيق. والأدق أن يقال: الطيّتان الصوتيتان. (انظر: دراسات صوتية ص١١٩) .

(٣٦) انظر القانون ص ٣٩٤، والعمدة في الجراحة ص١٠٢ .

(٣٧) القانون ص٣٩٤.

(٣٨) العمدة ص ١٠٢ .

(٣٩) الأصوات اللغوية ص ١٤٤.

(٤٠) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩.

(٤١) العمدة ص ١٠٢، ١٠٣ .

(٤٢) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩ .

(٤٣) الكتاب ٤٣٦/٤ .

(٤٤) سر الصناعة ٧٠/١ .

(٤٥) تجد تطابقًا بين ما قاله ابن سينا، وما يقوله المحدثون. فالدكتور إبراهيم أنيس مثلا يقول عن الظاء: " في حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه" (الأصوات اللغوية ص٤٧، ٤٨).

(٤٦) ٤٣٣/٤.

(٤٧) ٥٢/١ .

(٤٨) الجمهرة ٨/١ .

(٤٩) أسباب حدوث الحروف-الفصل الرابع.

(٥٠) السابق.

مصادر البحث

١- ابن سينا

البارون كارادوفو — ترجمة عادل زعيتر — دار بيروت ١٩٧٠ .

٢- ابن سينا فيلسوف النفس البشرية

عبده الحلو — بيت الحكمة — بيروت ١٩٦٧ .

٣- أسباب حدوث الحروف

ابن سينا — جميع الطبعات العربية والترجمات والمخطوطات الواردة في البحث

٤- أصوات اللغة عند ابن سينا

إبراهيم أنيس — مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٧ يناير ١٩٦٣ .

٥- الأصوات اللغوية

إبراهيم أنيس — الأنجلو — ط رابعة ١٩٧١ .

٦- تحية لابن سينا في ذكرى ميلاده الألفية

شاكر الفحام — فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق — مجلد ٥٦ ج١ .

٧- الجمهرة

ابن دريد — طبعة بالأوفست عن الطبعة الأولى — مؤسسة الحلبي بالقاهرة .

٨- دراسة السمع والكلام

سعد مصلوح — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٠ .

٩- دراسة الصوت اللغوي

أحمد مختار عمر — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ .

١٠- دراسات صوتية

تغريد عنبر — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم — القاهرة ١٩٨٠ .

١١-الرسالة السابعة النيروزية

ابن سينا – ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات – الجوائب – القسطنطينية ١٢٩٨ .

١٢- سر صناعة الإعراب

ابن جني – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ .

١٣-العمدة في الجراحة

يعقوب بن إسحاق المعروف بابن القف –حيدر آباد الدكن – الجزء الأول – ط أولى.

١٤-عيون الأنباء في طبقات الأطباء

ابن أبي أصيبعة – تحقيق نزار رضا – مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٥ .

١٥-الكتاب

سيبويه – تحقيق عبد السلام هارون – هيئة الكتاب بالقاهرة ١٩٧٥ .

أحمد فارس الشدياق
واضع المنهجية الحديثة للمعجم العربي*

مدخل

يعدّ أحمد فارس الشدياق (أو كما سمى نفسه بالفارياق نحتًا من كلمتي فارس وشدياق) واحدًا من علماء اللغة القلائل الذين عشقوا اللغة العربية وافتتنوا بها ، وألفوا حولها الكتب لكشف أسرارها وإبراز مواطن التفوق فيها . ولم يكتف بتأليف الكتب عنها ، وإنما كان يحاول - في استخداماته اللغوية ومن خلال أساليب التعبير التي يختارها - أن يثبت تفوقها وتميزها، وأن يبرز أسرار الجمال فيها، حتى إنه صرح في مقدمة كتابه "الساق على الساق" بأنه هدف أولا إلى "إبراز غرائب اللغة ونوادرها" (ص١) ، كما أنه دافع عن كثرة استخدامه الغريب من الألفاظ وللمترادف والمتقارب منها بأنه قصد به"إبراز محاسن لغتنا هذه الشريفة، وتشويق القارئين إليها" (الساق ص٥٠٩) . بل أكثر من هذا نراه يؤلف كتابًا يبحث فيه خصائص الحروف الهجائية عند العرب ويختار له عنوانا كاشفا هو"منتهى العجب من خصائص لغة العرب". كما نراه يتجه في كتابه "سر الليال في القلب والإبدال" إلى رد كل فرع إلى أصله ، وتنسيق معاني المادة تنسيقًا يبين مأخذها وعلاقتها ومناسبتها (سر الليال ص١٣) . ويكشف عن قصده في اختيار ترتيب يخالف الترتيب الهجائي المعروف مع البدء بالمضعف - يكشف عن قصده قائلا : "ولولا ما قصدت من الوصول إلى علم معاني الألفاظ والاطلاع على أصل وضعها وحكمة مبناها لما كان لي من عاذر على ارتكاب هذه المخالفة" (السابق ص٢٢).

---

* نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة- الجزء٥٥- نوفمبر١٩٨٤.

وقد هداه تفكيره إلى خاصة فريدة في اللغة العربية وهي بناؤها على أصوات طبيعية: "ولعمري إنَّ من لم يكن يدري شيئًا من لغة العرب فإذا سمع مثلا لفظة طنطن ودندن وجلجل ورنَّم وكان ذا ذوق سليم فلا بد أن يتوهم أنها حكاية أصوات . وكلما كانت اللغة مبنية على هذا المبنى الطبيعي كانت للنفس أشوق وبالطبع أعلق . ولو لم يكن للغة العرب إلا هذا الأسلوب البديع ليشهد بأنها أطبع اللغات وأبسطها لكفى" (السابق ص٢٥).

كما نراه يعبر عن مكنون نفسه تجاه هذه اللغة الشريفة فيقول في صدر كتابه "سر الليال": "إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقًا، وكلفت بها حقًا، حتى صرت لها رقًا، فأزهرت لها ذبالي وسهرت فيها ليالي... فإني وجدتها قد مزنت بمزايا بديعة وزينت بصفات سنيعة، تظهر معها بهرجة ما سواها شنيعة" (ص٢).

وقد انعكس حبه وعشقه هذا في كثرة المؤلفات اللغوية والأعمال المعجمية التي تركها حول اللغة العربية ، معجمها ونحوها وصرفها ، ومن ذلك.

- المحاورة الإنسانية في اللغتين الإنجليزية والعربية.
- غنية الطالب ومنية الراغب في الصرف والنحو وحروف المعاني.
- كنز اللغات (فارسي- تركي -عربي).
- الجاسوس على القاموس.
- سر الليال في القلب والإبدال.
- منتهى العجب في خصائص لغة العرب.

(أحمد فارس الشدياق للدكتور محمد يوسف نجم ص٧٧-٨٠) .

هذا إلى جانب تفرق كثير من أبحاثه ومناظراته اللغوية في كتبه المختلفة وفي مقالاته في " الجوائب". فقد كان من عادته أن يستطرد في بعض المواضع إلى البحث اللغوي عندما يجد الجو مهيأ لذلك (السابق ص١٩٦).

ولسنا هنا في مجال عرض كتبه اللغوية أو التعريف بها ، وإنما سنتجه ببحثنا وجهة خاصة يكشف عنها عنوان البحث ، وهي محاولة التعريف بجهود أحمد فارس الشدياق حول المعجم العربي وقضاياه.

وسنتناول جهود الشدياق المعجمية في النقاط التالية:

١- قضايا عامة مرتبطة بالمعجم العربي.

٢- منهجيته المعجمية.

٣- مواصفات المعجمي الناجح.

١- قضايا عامة مرتبطة بالمعجم العربي:

أثار الشدياق في مؤلفاته كثيرًا من القضايا التي تعتبر من مقدمات المعجم العربي ، والتي يعد البت فيها ضروريًا قبل اتباع منهجية خاصة في المعجم ومن هذه القضايا:

(أ)قضية الترادف:

يرى الشدياق أن تفسير اللفظ بلفظ مرادف له قد يكون على حساب الدقة اللغوية لأن ما يسمى بالألفاظ المترادفة ليس متطابقًا في الحقيقة : "على أني لا أذهب إلى أن الألفاظ المترادفة هي بمعنى واحد ، وإلا 'سموها المتساوية ، وإنما هي مترادفة بمعنى أن بعضها قد يقوم مقام بعض (الساق ص١٠). وأعطى الشدياق أمثلة لعدم التطابق منها مقارنته بين كلمتي جلس وقعد (ومشتقاتهما) في السياقات المختلفة، وذلك في قوله: "وعندي أن أصل معنى الجلوس: الحصول على جلَسٍ من الأرض ، وهو يقضي بأن يكون من سفل إلى علو ، ثم عمم. والجلوس غير القعود ؛ فإن الجلوس: الانتقال من سفل إلى علو ، والقعود: الانتقال من علو إلى سفل ، وقد يكون جلس بمعنى قعد كما نقول: (جلس متربعًا) ، و (قعد متربعًا) ، وقد يفارقه ومنه (جلس بين شُعَبها) أي حصل وتمكن، إذ لا يسمى هذا قعودًا ويقال (جلس متكئًا) ولا يقال: (قعد متكئا)... والمجلس: موضع الجلوس وقد يطلق على أهله مجازًا تسمية للحالّ باسم المحل ، يقال: (اتفق

المجلس)... ويقال لمن أصيب برجله: مُقْعَد، ويقال كذلك: مَقْعد صدق ، .." (سر الليال٥٥٨) .

ويحذر الشدياق من مزلق آخر يقع فيه اللغويون وهو تعريفهم لفظة بلفظة أخرى من دون ذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلا : "الوجل: الخوف" مع أن "وجل" يتعدى بمن ، "وخاف" يتعدى بنفسه.

وكقول المصنف (الفيروزابادي): "العتب: الموجدة والملامة"، "ولام" يتعدى بنفسه، و "عتب" و "وجد" يتعديان بعلى (الجاسوس ص ١٢).

(ب) التوسع في النحت:

دعا الشدياق إلى استعمال النحت لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ الأعجمية التي يشيع استعمالها ، ولتنمية الثروة اللغوية ، يقول الشدياق :"وكيفما كان فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ، ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الإفرنجية ، وهي التي كثّرت مواد لغاتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منها" (كنز الرغائب١/٢٠٤).

ويأتي في موضع آخر على ذكر النحت ، ويورد آراء اللغويين فيه ويدعو إلى استعماله ويورد أمثلة مما عثر عليه من المنحوت (السابق٥/٣، ٤). وهو يفسر بعض الألفاظ الرباعية عن طريق النحت فيقول: "جاء الحبتر بالفتح مثل البُحتر ، أي القصير. وعندي أنها منحوته من الحب والبتر، والحبترة ضؤولة الجسم وقلته" (سر الليال ص ٤١). وهو ينعي على العرب إهمالهم لغتهم واستخدامهم لغات العجم بحجة مرونتها وسهولة التعبير بها ، ويرى النحت إحدى وسائل العربية لتنمية مفرداتها "العرب ...لم يقدروا لغتهم حق قدرها ولا عرفوا أنها الفاضلة .. ألا ترى أنهم عدلوا عنها إلى لغات العجم فاتخذوا من هذه ألفاظًا وهي في لغتهم أفصح وأحكم وأعذب منطقًا وأبهى رونقًا... وحتى لو فرضنا أن تلك الألفاظ لم توجد فيها فكان لهم مندوحة عنها إلى النحت الذي هو من بعض مبانيها" (السابق ص٣).

(ج) التثبت قبل ادعاء التعريب:

ينصح الشدياق بضرورة التحفظ والتثبت قبل الحكم على كلمة ما بأنها معربة ، فقد يتصادف اللفظ العربي مع اللفظ الأعجمي كما في كلمة "بعل" التي جاءت عربية بمعنى الزوج، والمالك، واليد، والثقل، وكل ما سقته السماء.. مطابقة كلمة "بَعْل" اسم صنم كان لقوم إلياس، وهو في العبرانية اسم مرادف لقولنا: الصنم (سر الليال ص ٦٨).

وهو لهذا يعجب من بعض المعجميين الذين يسارعون إلى القول بعجمة الكلمة دون سند لغوي ، يقول: "ومن أغرب ما تمحل له (الفيروزابادي) انتصارًا للعجمية قوله في شرز: الشرز الغلظ والقطع والشدة والصعوبة والشديد والقوة... إلى أن قال: والمشرز كمعظم: المشدود بعضه إلى بعض المضموم طرفاه ، مشتق من الشيرازة أعجمية ...اهـ. لأنه إذا كان التركيب يدل على القوة والشدة فأي حاجة إلى اشتقاق المشرّز من الشيرازة؟ قال ابن السراج : مما ينبغي أن يحذر كل الحذر أن يشتق في لغة العرب شيء من لغة العجم فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت كما في المزهر" (الجاسوس ص ٣١١). ويقول: " من الغريب ما قاله الجوهري إن الحُبّ بالضمة: الخابية، فارسي معرب ، مع أن ذكر الماء والطل ونحوهما قد جرى في هذه المادة غير مرة بل هو من عين معنى الحُبّ، أعني المحبة" (سر الليال ص ٣٩).

ويختار الشدياق عربية كلمات مثل "البخت" و "البريد" و"الإبريز" مرجعًا إياها إلي أصول عربية فالبخت إما أن تكون من معنى "بخ"، أو مأخوذة من "البُخْت" وهي الإبل الخراسانية ، والبَخّات : مقتنيها ، والبَخيت والمبخوت: المجدود . أما لفظ البريد فقد قال عنه: "البريد يطلق على مسافة فرسخين أو اثني عشر ميلا . ومع وضوح اشتقاق لفظ البريد فإن أئمة اللغة ذهبوا بها كل مذهب ، قال ابن الأثير في النهاية : البريد فارسية أصلها البغل ، وأصلها : بريده دم ، أي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت مقطوعة الذنب . وأقول: أهل العربية كسوا هذه اللغة الشريفة ثوبًا غير لائق بها فتراهم أبدًا يحومون حول اللغات الأجنبية وينسبون إليها ما هو في العربية من خصائصها ومزاياها السنية . وفي المصباح: البريد: الرسول.. ثم استعمل في المسافة التي يقطعها...ويقال لدابة البريد بريد أيضًا فهو مستعار من المستعار. فأنت ترى أن المصباح

جعل البريد بمعنى الرسول أصلا وهو الحق" (السابق ص١٤١). وقال عن كلمة إبريز: "ذهبٌ إبريز: خالص . وفي المصباح أنه معرب ، وعندي أنه عربي من معنى الظهور" (السابق ص ١٤٣).

وبهذا نرى أن الشدياق في إثباته لعربية الكلمات لم يلجأ إلى الحدس والتخمين ، ولم ينخدع بالشبه الظاهري ، وإنما اعتمد على تشابه المعنى داخل المادة ، وإلى خصائص الحروف والأصوات . وهناك دليل آخر اعتمد عليه الشدياق في إثبات عروبة الكلمة، وهي أن تكون اسمًا لشيء معروف عند العرب: "نعم إني لا أنكر أن يكون قد دخل في لغة العرب بعض ألفاظ من لغة العجم وهي أسماء لأشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الإستبرق مثلا إلا أنَّ ما كان بخلاف ذلك لا ينبغي أن يحمل عليه ، فلا يصح أن يقال إن اللِّجام معرّب لأن العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الأمم . ومن هذا القبيل الكنز والخوان..".
(كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ١٩٠/١)

(د) قبول المولد:

يرى الشدياق أن اللغة بنت الحياة ، ويعتقد أنه من غير المعقول أن تكون اللغة قد نشأت دفعة واحدة ، وإنما عن طريق النمو والتطور: "اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تامًّا كاملا من أول وهلة ولكن على التدريج". (سر الليال ص ٢٥).

وهو من أجل هذا يرى أن باب الوضع مفتوح أمام المولدين لأنه "يراعي به اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة عن أن تُشان بالألفاظ العجمية"، ولأن العرب إذا كانوا قد قالوا كذا وكذا فقد "ساغ لنا أن نقول أكثر من ذلك مما تمس الحاجة إليه، فهم رجال ونحن رجال" (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ٢٠٥/١).

وقد أعلن رأيه هذا بوضوح في خاتمة كتابه" الجاسوس على القاموس"، وقدم له العديد من الأدلة والبراهين، وألح عليه في كتاباته في "الجوائب"، يقول الشدياق:

"ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة ، فهم على هذا غير ملومين ، وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفته العرب... أفيظن أحد أن لفظة المشير والسفير والوالي والمتصرِّف والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي أن تعد من الألفاظ العربية لأنها لم تكن معروفة للدولة العباسية . فإذا برّأ أحد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الألفاظ إذ الحاجة لم تمس إليها لم يكن له أن يلوم دولة أخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة ، فقس عليها غيرها" (السابق والصفحة). ومن الأدلة التي ساقها الشدياق على قبول ما نقل من ألفاظ عن المولدين من الكتاب والشعراء ما داموا متضلعين في العربية ما يأتي:

١- أن المولدين راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها أكثر من العرب في الجاهلية لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف فبالغوا في ضبطها ما أمكن. وهذا الأمر لم يكن يخطر ببال العرب قط.

٢-أنه لا يمكن أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه الطبقة يخترع ألفاظاً ليس لها أصل في العربية ، وهو بين ظهراني علماءَ ينتقدون على الطائر طيرانه، وعلى البعير وخدانه.

٣-أنه لو كان أحد من المولدين ألف كتابًا في اللغة لقبل لا محالة. فليس من الإنصاف أن تقبل روايته في اللغة ويرد كلامه في الشعر(الجاسوس ص ٥٢٠).

(هـ) قبول كل ما يمكن تصحيحه:

بدا الشدياق في كل كتاباته متوسعًا في قبول كل ما تناقلته كتب اللغة ما دام قد صح نقله، أو وجد له وجه في العربية يخرّج عليه. ولهذا كان دائمًا ينضم للرأي المجيز، ويجمع الشواهد لدعمه وتأييده ، ومن ذلك:

١-أنكر صاحب الكليات لفظ "المحسوسات" بناء على أن الفعل عنده رباعي فيلزم أن تكون المُحَسّات ، قال: أما حس الثلاثي فإنه جاء لمعان ثلاثة حسه: قتله، أو مسحه، أو ألقى عليه الحجارة المحماة.

وقد رد عليه الشدياق قائلاً: "إن حسّ الثلاثي ورد بمعنى أحس متعديا بنفسه، صرح به الصغاني في العباب... ومنه الحديث أن أعرابيا جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له: متى حَسَسْت أُمَّ ملدم؟ قال: وأي شيء أمّ ملدم؟ قال: الحمى سخنة تكون بين الجلد واللحم . فإنكار المحسوس مع شهرته على الألسنة والطروس تأباه النفوس". (الجاسوس ص٥٨).

٢- قال الفيروزابادي: "والسائر الباقي لا كما توَهَّم جماعات"، وقال الصغاني: "سائر الناس باقيهم وليس معناه جميعهم كما توهم من قصر في العربية باعه وضاقت في اختيار الغرائب رباعه"، وقال النواوي في تهذيب الأسماء واللغات : "أنكر الشيخ تقي الدين استعمال لفظ سائر بمعنى لجميع فقال هو مردود عند أهل اللغة معدود في غلط العامة وأشباههم من الخاصة".

وقد ذكر الشدياق من الأدلة ما يؤيد صحة الاستعمال ، فقد قال الجوهري: سائر الناس: جميعهم ، وقد ورد في شعر الأحوص وفي كلام الغزالي ، وذكره أبو منصور الجواليقي في أول كتابه "شرح أدب الكاتب" واستشهد على ذلك وإذا اتفق هذان الإمامان على نقلها فهي لغة . ويفهم من كلام الخفاجي أيضا أن أبا علي ومن تبعه أجازوا استعمال السائر بمعنى الجميع فكيف قال الصغاني: كما توهم من قصر باعه في العربية؟ (السابق ص ٢١٤، ٢١٥).

٣-قال الشدياق: المخابرة: المزارعة على بعض ما يخرج من الأرض وهو من خبرت الأرض إذا شققتها للزراعة . أما المخابرة التي تستعملها العامة وهي المشاركة في الإخبار فالظاهر أنها مولدة ، ولكنها ليست بعيدة عن منهاج العربية (سر الليال ص٥١).

٤-قال الشدياق: "باعه يبيعه بيعًا ، فهو بائع ، وأبعته بالألف لغة ، قاله ابن القطاع". (السابق ص٦٤).

٥-قال الشدياق: "برّاني صحيح ، قال في الدر المصون: قول سلمان الفارسي ، لكل امرىء جواني وبراني ، أي: باطن وظاهر". (السابق ص ١٣٧).

٦-أنكر الحريري استعمال "بين" مكررة في نحو قولك "المال بين زيد وبين عمرو". قال الشدياق: "وهو كثير في كلام العرب" وساق له شاهدًا من قول الأعشى:
بين الأشجّ وبين قيس باذخ
وقول عدي بن زيد:
بين النّهار وبين الليل قد فصلا (السابق ص ٢٦٠) وغير ذلك كثير.

(و) توهم الأصالة أو الزيادة وتغير بناء الكلمة تبعًا لذلك:

يقوم ترتيب الكلمات في المعجم العربي على أساس الجذور، ووضع الكلمات تحت أصولها بعد تجريدها من الزوائد. ولكن هناك كلمات كثيرة توهم العرب فيها زيادة الحرف الأصلي أو أصالة الحرف الزائد وصرفوها بناء على هذا التوهم مما غير بناءها ونقلها من وزن إلى وزن آخر، ومثل هذا النوع من الكلمات يجب التنبيه في صيغته المتوهمة على أصله. ومن الأمثلة التي ذكرها الشدياق على ذلك ما يأتي:

١- المكان: الموضع والجمع أمكنة وأماكن، توهموا الميم أصلا، حتى قالوا: تمكن في المكان، وهذا كما قالوا في تكسير المسيل: أمسلة (الجاسوس ص٣٢، ٣٣).

٢- أسنتوا: أي أصابتهم سنة جدب فإنهم توهموا أن السَّنَة يوقف عليها بالتاء. (السابق ص١٣٥).

٣- بعد أن ذكر أن الأوجه أن يكون وزن "أوّل" على "فَوْعل" بين علة منعه من الصرف وهي "شدة مشابهته لأفعل التفضيل لأنه مبدوء بالهمزة". وبعد أن ذكر أن وزن "أشياء": "أفعال" ذكر أنها منعت من الصرف تشبيها لها بفعلاء وعقب على ذلك بقوله: "وقد يشتبه الشيء بالشيء فيعطى حكمه". (السابق ص ٣٧٣).

٤- ذكر أن "المَرْهم" مأخوذ من "رَهَمَ" وأن العرب اشتقوا من الاسم "مرهم الجرح" على توهم أصالة الميم كقولهم "تمكحل" و "تمذهب" و "مردسه" أي رماه بحجر، وهو من المرداس لآلة الرمي. وقالوا أيضًا: مرحبك الله ..(السابق ص٣٩٥).

وقالوا كذلك "تمسكن" من "سكن" و "تمندل" أي تمسح بالمنديل و"مَخْرَقَ على الناس" أي كَذَبَ وموّه. وكما أنهم استعملوا هذه الأفعال على توهم أصالة أوائل

الحروف ، كذلك استعملوا غيرها على توهم أصالة الأواخر مثل "برهن" و "تسلطن" (سر الليال ص ٢١).

(ز) مشكلات جمع التكسير:

اعتبر الشدياق جمع التكسير من صعوبات اللغة العربية لما يأتي:

١- أنه أكثر من أن يحصر وربما كان للاسم الواحد عدة جموع كالناقة والعبد مما يقضي بالعناء والجهد (سر الليال ص٣).

٢-أنَّ الجمع قد يختلف باختلاف معنى المفرد فكلمة "حاجب" بمعنى بواب تجمع على حُجّاب وحَجَبة ، وكلمة حاجب للعظم فوق العين تجمع على حواجب (السابق ص ٤٢١).

كذلك يفترق معنى "عباد" عن معني "عَبيد" مع أن مفردها "عبد" فالعباد مختص بالله تعالى ، فيقال "عباد الله" والعبيد مختص بالناس فيقال "عبيد فلان" (الجاسوس ص ٢٠٥).

٣- أنَّ من جموع التكسير ما ليس جمعًا لمفرد ، بل جمعًا لجمع . فالسحاب الغيم مفرده سحابة وجمعه سُحُب . أما جمع السحابة فسحائب . والبيضة واحدة البيض، والبيض يجمع على بيوض (السابق ص ٢٠٦).

٤- أنَّ من جموع التكسير ما لا مفرد له مثل التجاويد والتعاشيب والتعاجيب والتباشير (السابق ص٢٠٧).

٥- أنَّ من جموع التكسير – مع اشتهاره –غير قياسي مثل جمع حاجة على "حوائج" (السابق ص ٢٢٨).

(ح) شيوع التصحيف في مرويات اللغويين:

لاحظ الشدياق شيوع التصحيف في المعاجم العربية وعزا ذلك إلى ثلاثة أسباب، اثنان منها يعودان إلى طبيعة الحرف العربي ، والثالث يعود إلى غفلة المعجمي ، وهذه الأسباب هي:

١-أنَّ كثيرًا من الكتابات القديمة وصلتنا بدون نقط أو شكل؛ لأن التصحيف لم يخطر لهم على بال ، أو كأنهم كانوا آمنين أن يطرأ على كلامهم تحريف أو غلط ، فلا تكاد تجد كتابًا قديمًا إلا على هذا النمط ، ومن هنا كثر الخلاف في الروايات واتسع المجال في التأويل ما بين نفي وإثبات واحتمال وإبتات" (الجاسوس ٣). كما أنه يَرُدُّ كثيرًا من أمثلة التصحيف فيما نقله الليث إلى هذا السبب فيقول: " ولا يخفى أن الكتابة في عهده لم تكن مضبوطة ، وخصوصًا في وضع النقط فأيسر شيء تبديل الفاء بالقاف والقاف بالفاء" (السابق ص٤١٤).

٢-أن حروف الهجاء العربية متشابهة في الرسم "كأنها نقوش أريد بها الزينة لما يرقم، كما يزين النقش الدرهم" (السابق ص٥) ، فلا عجب "أن تلتبس على قارئها وإن كان من أحذق الخلق .. فيقرأ المهمل منها معجمًا ، والمعجم مهملاً " (السابق ص٣، ٤).

٣-أن اللغوي حين صادفته روايتان تحتملان التصحيف لتشابههما في الرسم لم يكن يجوز له أن يثبتهما أو يثبت إحداهما إلا بعد تحقق وتثبت يقوم على الأسس الثلاثة الآتية:

(أ)الاحتكام إلى القوانين الصوتية "فإن التعاقب إنما يكون من الحروف التي تكون من مخرج واحد مثل الباء والفاء، والتاء والطاء. فأما الراء والزاي فإنه جاء لفظ فيهما بمعنى واحد فمرجعه إلى التصحيف ، مثال ذلك قول المصنف: الشغربية: اعتقال المصارع رجله برجل آخر وصرعه إياه كالشغزبية.. وإنما حملته على التصحيف لأن اللفظة الأولى جاءت مقتضبة من دون فعل.. وقوله: اجترع العود: كسره، وهو تصحيف اجتزع؛ إذ ليس في مادة جرع مايدل على الكسر، ولم يحك هذا الحرف أحد غيره من أئمة اللغة (السابق ص١٨٦، ١٨٧).

(ب) الاحتكام إلى معنى كل مادة وترجيح إحدى الروايتين تبعًا لذلك ، وأكتفي بضرب المثالين الآتيين:

- قال الفيروزابادي في قاء: "وتقيأتْ تعرضت لبعلها وألقت نفسها عليه". وقد تشكك الشدياق في صحة هذه الكلمة وانتهى بعد مقارنة معنى كل من المادتين قاء وفاء إلى وقوع التصحيف فيها . ولندع الشدياق يعبر بكلماته: "قد طالما

أنكرت هذا الفعل المنكر ، واستوحشت منه ، إذا ليس من مناسبة بين القيء والدلال ، فهو مخالف لحكمة الواضع.. حتى راجعت لسان العرب فوجدت فيه في (فاء) ما نصه: تفيأت المرأة لزوجها تثنت عليه وتكسرت له تدللا وألقت نفسها عليه من الفيءِ وهو الرجوع. فسررت بذلك سرور من تتفيأ عليه امرأته. ولكن لم أقتنع بقول صاحب اللسان من الفيءِ، وهو الرجوع، فالأوْلى عندي أن يجعل من قولهم فيّأت المرأة شعرها إذا حركته من الخيلاء.. والريح تُفيّيء الزرع والشجر أي تحركهما. ثم طالعت الأساس فوجدت فيه ما نصه: وفيأت المرأة شعرها. حركته خيلاء. وتفيأت لزوجها تكسرت له وتميلت غنجا. والمصنف ذكر فيأت المرأة شعرها في (سفه) لا في مادتها، فكأنه رأى السفاهة بها أولى مع عدم تحرجه من القيءِ". (السابق ص٤١٠، ١١ ٤).

- ذكر الفيروزابادي في مرد: "والمرداء: الرملة لا تنبت، والمرأة لا است لها".

وقد عقب الشدياق قائلا : "وهو تصحيف، والذي في اللسان والتكملة: وامرأة مرداء لا اسب لها بالباء الموحدة ، وهي شعرتها ا.هـ ، قلت: قد وقع المصنف مرة أخرى في هذا المضيق . وهو في مادة(مرد) غير معذور فإنها تدل على الخلو من الشعر وشبهه حتى قالوا إن المرداء للشجرة التي لا ورق عليها مجاز عن المرأة التي لا اسب لها فكيف لم يفطن لذلك؟" (السابق ص٤٤٠، ٤٤١).

ويعقب الشدياق على مثل هذا النوع من التصحيف قائلا : "ظهر لي بعد التروي أن كثيرًا من الألفاظ تصحف على أهل اللغة من دون أن يشعروا بها فمرت عليهم مرارًا ولكن بدون تعارف وما ذلك إلاّ لأنهم لم يهمهم في الكلام التآلف" (السابق ص ١٨٤).

(ج) الاستيثاق من المصادر المختلفة والرجوع إلى أمهات كتب اللغة المطبوع منها والمخطوط، ومن أمثلة ذلك:

- رجوعه إلى اللسان والتكملة لإثبات التصحيف في عبارة "امرأة لا است لها" ورجوعه كذلك إلى مخطوطات أساس البلاغة للزمخشري لإثبات أن ما نسب إلى

الزمخشري غير صحيح: "فقد رأيت هذه الكلمة بالباء في ثلاث نسخ من الأساس إحداها في مكتبة المرحوم أسعد أفندي ، والثانية في مكتبة المرحوم عاشر أفندي وهما قديمتان صحيحتان ، والثالثة في مكتبة المرحوم محمد باشا الكوبريلي، فالزمخشري بريء مما نسب إليه" (السابق ص٤٤٠، ٤٤١).

- إثباته تصحيف الحُتُد إلى حُنُد بالرجوع إلى لسان العرب والصحاح والمحكم (السابق ص١٨٥).
- إثباته تصحيف اجتزع إلى اجترع بأنه "ليس في مادة جرع ما يدل على الكسر"، وبأنه " لم يَحْكِ هذا الحرف أحد غيره من أئمة اللغة" (السابق ص ١٨٧).
- رجوعه إلى الصحاح والعباب والأساس والمصباح والتهذيب واللسان وتاج العروس لإثبات التصحيف في تقيأت المرأة لزوجها ، إلى جانب الاحتكام إلى المعنى (السابق ص ٤١٠، ٤١١، وانظر كذلك سر الليال ص٤٦).

(ط) كيفية كتابة الهمزة:

يقترح الشدياق – على سبيل التسهيل – كتابة الهمزة بصورة واحدة . وقد تعرض لقضية الهمزة بشيء من التفصيل في صفحة كاملة من كتابه "الجاسوس على القاموس"، ومما جاء فيها:

١- أما رسمها في الخط وإبدالها من حروف العلة فيكاد يكون علما مستقلا يحوج إلى زمن طويل فلو أنها رسمت في الأصل بشكل مخصوص غير شكل الألف لاسترحنا من مشكلاتها ، فإني أرى المؤلفين غير متفقين على رسمها مع كثرة ما جعلوا له من القواعد والضوابط حتى إن بعضهم جعل الشاذ منه قاعدة كلفظة مسئول ومشئوم مثلا فجزم بأنه لابد من كتبها بالياء مع أن الياء لا مدخل لها هنا ، فالأولى أن تكتب بالواو مع بقاء واو مفعول وكذا رأيتها في الخطوط القديمة . ورأيت المرأة في النسخة الناصرية التي قرئت على المصنف من دون ألف ، وبعضهم يكتب التوأم بألف فوقها همزة وبعضهم يكتبها من دون ألف".

٢- بعد نقله الخلاف في كتابة لفظ "مئة" وقول بعضهم إنها كتبت "مائة" بالألف حتى لا تشتبه بكلمة "منه" عقب بقوله: "قلت: قوله للفرق بينها وبين (منه)، فهذا الفرق كان ينبغي مراعاته أيضًا في(فئة) فإنها تلتبس بـ(فيه) في نحو قولك: خرج من فيه بناء على ترك النقط . وقد أطربني جدًا ما حكاه الشيخ نصر الهوريني عن أبي حيان وهو قوله: وكثيرًا ما أكتب أنا مئة بلا ألف مثل كتابة فئة ، لأن زيادة الألف خارج عن الأقيسة".

٣- نقله عن أبي حيان قوله : "فالذي أختاره كتابتها بالألف دون الياء على وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف على وجه تسهيلها، قال وقد رأيت بخط النحاة (مأة) بألف عليها همزة دون ياء. وقد حكى كتب الهمزة المفتوحة ألفًا إذا انكسر ما قبلها عن حذاق النحويين منهم الفراء. روى أنه كان يقول: يجوز أن تكتب الهمزة ألفًا في كل موضع" (الجاسوس ص ٣٧).

(ى) التجمعات الصوتية المؤتلفة وغير المؤتلفة:

تحدث اللغويون القدماء ابتداء من الخليل بن أحمد عن التجمعات الصوتية التي تأتلف في اللغة العربية مكونة كلمات وعن الأخرى التي لا تأتلف ، ولا تدخل في تشكيل الكلمات ، فسموا الأولى مستعملة والأخرى مهملة.

وقد أشار الشدياق في كتبه إلى نفس الفكرة ، ولكنه زاد عليها فكرة جديدة وهي تقسيم التجمعات المؤتلفة إلى منتجة وعقيمة حسب كثرة فروع المادة ومشتقاتها أو قلتها.

وإذا كان اللغويون القدماء قد نسبوا عدم الائتلاف إلى قرب المخرج فإنه يبدو أن الشدياق لا يعتبر هذا السبب ولهذا عد من غائب اللغة العربية عدم وجود مواد مركبة من حروف خفيفة على اللسان: كلفظة ر س ت مثلا ، فإنها توجد أكثر اللغات ولا وجود لها في العربية ، وإنما توجد مركبة من كلمتين كقولك رست السفينة.. وقس عليه ج ر ت فلا تتألف : إلا بقولك: جَرَتْ، وجُرْت أنا. (سر الليال ص ٥).

أما إشاراته إلى المواد العقيمة فكثيرة منها:

١- غَتّه في الماء: غطّه ، ومثله غَسّه وغَمّته . وهو من الأفعال العقيمة (سر الليال ٢٨).

٢- ثم ولى رَتَّ: زَتَّ، وهذا التركيب عقيم (السابق ٣٠٢).

٣- تَخَّ العَجينُ تُخُوخة: حمض.. ثم تاخت الإصبع في الشيء.. ثم التخربوت ثم التخرور.. ثم التخريص . ثم التخوم . وهذا دليل آخر على أنه متى كان المضاعف عقيمًا كان ما بعده أيضًا كذلك" (السابق ص٢٧٩).

٤- تركيب سدأ عقيم (الجاسوس ص ٤٠٨).

٢- منهجيته المعجمية:

على الرغم من أن الشدياق لم يصرف همه إلى تأليف معجم عربي[١]، فإن العمل المعجمي كان شغله الشاغل ، وعمله الدائب . وقد جاء اهتمامه بالمعجم نتيجة معايشته اليومية له سواء أثناء احترافه التدريس، أو اشتغاله بالترجمة واطلاعه على بعض المعاجم في اللغات التي يترجم منها أو ينقل إليها (انظر خلف الله: الشدياق ص ١١٠).

ويعد كتاباه "الجاسوس على القاموس"، و "سر الليال" من الأعمال المعجمية ؛ إذ خصص الأول لنقد القاموس المحيط وبيان أخطائه التي بلغت أربعة وعشرين خطأ، وقدم له بدراسة عن التأليف المعجمي عند العرب ، وخصص الثاني لتحقيق فكرة راودته حول المادة المعجمية تقوم على رد الفروع إلى الأصول وتنسيق معاني المادة بطريقة تكشف عن مآخذها وعلاقاتها ومناسباتها ، واتخذ الفعل المضاعف أساسا لهذا الترتيب.

ومعظم آراء الشدياق عن المنهجية المعجمية تجدها في مقدمة "الجاسوس" وفي ثنايا نقداته للقاموس ، كما أنه أشار إلى بعضها في كتابه "سر الليال" ومن هذا وذاك يمكن أن نستخلص الأسس الآتية:

---

(١)سبق في ذكر مؤلفاته أنه ألف معجما ثلاثي اللغة (فارسي، تركي، عربي).

(أ)ترتيب المادة اللغوية:

ينتقد الشدياق ترتيب حروف المعجم "فإنه فصل بين الحروف الحلقية والمهموسة وغيرها ، وأنكرُ من ذلك أنه أقصى الواو عن الهمزة ، مع أنّ الواو كثيرا ما تقلب همزة لشدة ما بينهما من التآلف ، كما في التوكيد والتأكيد ، والتوقيت والتأقيت.. حتى قرر بعضهم أن كل واو كسرت أو ضمت فلك أن تقلبها همزة كما في وجوه وأجوه.. وغير ذلك مما لا يحصى، ولم نسمع قط أن الباء قلبت همزة مع أنها في الترتيب تاليتها. وأنكر من هذا وذاك أنهم جعلوا الياء آخر الحروف ونحن نرى الأطفال ينطقون بها وبالهمزة أول ما تنفتح أفواههم للنطق ، ولا يخفى أن معظم الأفعال المعتلة واردة من المهموز، وأن الهمزة كثيرا ما تقلب حرف علة (سر الليال ص ٢٢).

ولكنه لم يفطن إلى أن الترتيب الصوتي الذي اتبعه الخليل في معجم العين يحقق القدر الأكبر من مطالبه ، إذ يجمع الأصوات المتحدة المخارج معًا ، ويضع الهمزة إلى جانب الواو والياء. فكان حقه أن يتبنى في منهجيته الترتيب الصوتي ، وهو ما يبدو أنه رفضه لصعوبته (الجاسوس ص ٢٣) ؛ ولذا فإنه حين جاء إلى الاختيار اختار الترتيب الهجائي الذي نقده وأخذ يوازن بين طريقتي الصحاح وأساس البلاغة ثم اختار طريقة الأساس . يقول الشدياق في "سر الليال" بعد أن بين أن المضاعف هو الأصل وأن المعاني تدور على فاء الكلمة وعينها: "وبذلك تعلم أن هذا النسق لم يجر على ألسنة العرب عفوا، وأن تبويب الكلام في كتب اللغة على أواخر حروفه مفرّق لمعاني الألفاظ ومشتّت لمبانيها" (ص ٢٧). ويعيد نفس الفكرة في كتابه "الجاسوس" فيقول: "لا جرم أن الترتيب الذي جرى عليه الصحاح واللسان والقاموس مسهل للمطلوب وخصوصًا جمع القوافي، إلا أنّه فاصل لتناسق معانيها ومُوار لأسرار وضعها ومبانيها" (ص ٢٦).

ثم يقول: "فالأَوْلى عندي ترتيب الأساس للزمخشري والمصباح للفيومي أعني مراعاة أوائل الألفاظ دون أواخرها" (ص ٢٦، ٢٧). ويرد على من فضل طريقة الصحاح قائلا : "فإن قيل إن هذا الترتيب (الترتيب على الأوائل) لا يعين الشاعر على جمع الألفاظ التي تأتي على روي واحد فالأولى ترتيب الصحاح قلت الخطب هين . فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤلفوا كتابًا في القوافي" (ص٢٧).

وإلى جانب اختيار الشدياق لترتيب مادة المعجم على الأوائل طبقًا للترتيب الهجائي المعروف قدم طريقة أخرى طبقها بمهارة في كتابه "الساق على الساق" وهي طريقة المجالات أو الحقول المعجمية . هذه الطريقة تقوم على تقسيم مادة اللغة إلى مفاهيم أو موضوعات يضم كل واحد منها الكلمات التي تندرج تحته مع بيان معنى كل لفظ وتوضيح علاقته بالكلمات الأخرى المصاحبة له في نفس المجال . (انظر علم الدلالة للدكتور أحمد مختار ص ٧٩ وما بعدها).

وليس "الساق على الساق" معجما حتى نتوقع منه أن يستوعب كل المجالات المعجمية ، وإنما هو كتاب في السيرة الذاتية تناول حياة مؤلفه حتى قدومه الآستانة فقط (يوسف نجم: أحمد فارس الشدياق ص ١٠٥). ومع هذا نجد المؤلف في المقدمة يغفل هذا الغرض الأساسي ، ويشير إلى غرضين: أولهما نص في العمل المعجمي والآخر استطاع بثقافته اللغوية الخصبة أن يحوله إلى عمل شبه معجمي . يقول الشدياق: "جميع ما أودعته في هذا الكتاب مبني على أمرين: أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها . ويندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس والقلب والإبدال وإيراد ألفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى . والأمر الثاني ذكر محامد النساء ، ومذامّهن فمن هذه المحامد ترقي المرأة في الدراية والمعارف، وحركات النساء الشائقة، وضروب محاسنهن المتنوعة التي لم يتصور منها شيء إلا وذكرته في هذا الكتاب(الساق ص٤ تنبيه).

ولهذا لا تغفل عين القارئ للكتاب عن هذا الغرض المعجمي الذي تغلغل في ثنايا مادة الكتاب حتى طغى على هدفه الأساسي غير المعلن. وقد تنبه الدكتور محمد يوسف نجم إلى هذه الحقيقة فذكر أن من أهداف الكتاب إيراد الألفاظ المترادفة والمتجانسة التي رتبها حسب المواضيع (ص ٨٦)، وأن ما ورد منها يشكل مجموعات طريفة من موضوعات مختلفة تتعلق بالفرد والكون والمجتمع مثل ألفاظ الأصوات والعشق، والناسك، وأسماء آلات الحرب، والنجوم، والفرش، والآنية، والطعام، والشراب وسواها(ص ١٠٤).

ويقول ناشر الكتاب في مقدمته :"رأيته قد اشتمل على فوائد جزيلة من سرد ألفاظ كثيرة من المترادف والمتجانس.. وخصوصًا لاشتماله على أخص ما يلزم معرفته من

الآلات والأدوات ، واستيفائه لجميع أصناف المأكول والمشروب ، والمشموم ، والملبوس والمفروش والمركوب والحلي والجواهر مما لم يوجد في كتاب غيره على هذا النمط".

ولم يكتف الشدياق بعرض الألفاظ المترادفة في أماكنها مصنفة حسب الموضوعات، فاستدرك ما أغفله منها في بابه" في الجدول المبين للألفاظ المترادفة " (مقدمة الناشر).

وهذه نماذج لكيفية تناوله لألفاظ المجالات، وهي في معظم الأحيان تأتي عرضًا أثناء الحديث عن أحد الموضوعات ومن ذلك:

١- ما أتى عليه من أسماء الجواهر استطرادًا بعد حديثه عن تفضيل النساء على الرجال، مثل:

- القصب: ما كان مستطيلاً من الجوهر، والدر الرطب، والزبرجد الرطب المرصع بالياقوت.
- الكبريت: الياقوت الأحمر، والذهب.
- المرجان: صغار اللؤلؤ.
- الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب.
- الفريدة: المشْذر يفصل بين اللؤلؤ والذهب، والجوهرة النفيسة، والدر.
- الجُذاذ: حجارة الذهب.
- التبر: الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغا.
- السِّيراء: الذهب الخالص.
- الشَّذْر: قطع من الذهب تلقط من معدنه بلا إذابة، أو خرز يفصل بها النظم.
- النُضار: الجوهر الخالص من التبر.
- الجَزَع: الخرز اليماني الصيني.
- اليَنَع: ضرب من العقيق.
- الصَّريف: الفضة الخالصة.
- الجُمان: اللؤلؤ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة، أو خرز يُبَيّض بماء الفضة (ص٢٩٠ وما بعدها).

٢-ما ذكر من الثياب مثل:

- الجلباب: القميص، وثوب واسع للمرأة.
- القَصَب: ثياب ناعمة من كتان.
- المُعرَّجة: المخطَّطة في التواء.
- المُجَسَّدة: المصبوغة بالزعفران.
- الدثار: ما فوق الشعار من الثياب.
- السابرية: الثياب الرقيقة الجيدة.
- الصِّدار: ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر (ص٣٠٧ وما بعدها).

٣- ما تناوله من ألفاظ الحب ودرجاته ، وسأنقله بنصه:

"ولا بأس للمتزوجات بقراءة كتابي هذا وأمثاله لأنه كما أن من ألوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم فكذلك هي ألوان الكلام. والظاهر أن اللغة العربية شَرَك للهوى إذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصبِّبة ما لا يوجد في غيرها. فمن قرأتْ مثلا في شرح المشارق لابن مالك أن مراتب العشق ثمانية أدناها الاستحسان وينشأ عن النظر والسماع ثم يَقْوى بالتفكّر فيصير مودة وهي الميل للمحبوب، (أي المحبوبة) ثم يقوى فيصير محبة وهي ائتلاف الأرواح. ثم يقوى فيصير خُلَّة وهي تمكن المحبة في القلب حتى تسقط بينهما السرائر . ثم يقوى فيصير هوى بحيث لا يخالطه تلوّن ولا يداخله تغير. ثم يقوى فيصير عشقًا وهو الإفراط في المحبة حتى لا يخلو فكر العاشق عن المعشوق (أي المعشوقة) وأنه يقوى فيصير تتيُّما وفي هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى صورة معشوقه (أي معشوقته). ثم يقوى فيصير ولها وهو الخروج من الحد حتى لا يدري ما يقول ولا أين يذهب وحينئذ تعجز الأطباء عن مداواته. قلت: وإن من أنواعه أيضًا الصبابة وهي رقة الهوى والشوق والغرام وهو الحب المستأسر. والهُيام وهو الجنون من العشق. والجوى وهو الهوى الباطن. والشوق وهو نزاع النفس. والتَّوقان وهو بمعناه. والوجد وهو ما يجده المحب من هوى المحبوب (أي المحبوبة). والكَلَف وهو الولوع. والشَّغَف وهو إصابة الحُبّ الشَّغاف أي غلاف القلب أو حجابه أو حَبَّته أو سُوَيداءه. والشَّعف وهو أن يغشى

الحب شَغَفة القلب وهو رأسه عند معلَّق النياط منه. والشَّعْف وهو بمعناه. والتَّدْليه وهو ذهاب الفؤاد عشقًا – لم تتمالك أن تحس بهذه المراتب السنية كلها حالا بعد حال"(ص ٦٥).

(ب) الترتيب الداخلي للمادة :

أكثر ما ضايق الشدياق في المعاجم العربية ، غياب النسق في عرض مفردات اللغة تحت المادة الواحدة . فما دامت المعاجم العربية قد اختارت طريقة الجذور في ترتيب الكلمات، وكانت هذه الطريقة تقتضي سوق العديد من الفروع والاشتقاقات تحت المدخل الواحد ، فقد كان من المنطقي أن تتفطن هذه المعاجم إلى طريقة لترتيب هذه الفروع، وهو ما لم تفعله.

وقد ألح الشدياق على هذه النقطة في كتابيه "سر الليال" و " الجاسوس على القاموس" وبين الانعكاسات السلبية لهذه الفوضى على مستعمل المعجم. واقترح للخروج من هذه الفوضى منهجًا للترتيب الداخلي يقوم على أساسين هما اعتبار جانب اللفظ بتقديم المجرد على المزيد، والثلاثي على الرباعي، وجانب المعنى عن طريق البدء بالحسي قبل المعنوي، والحقيقي قبل المجازي واستيفاء معاني الكلمة قبل الانتقال إلى كلمة أخرى.

وهذه هي آراؤه في نصوص كلماته:

١- فيما يتعلق بالفوضى في سرد الكلمات يقول الشدياق: "إن من أعظم الخلل وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعًا ، قديمها وحديثها ، ومطولها ومختصرها ، ومتونها وشروحها ، وتعليقاتها وحواشيها خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية ، وخلط مشتقاتها . فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في آخرها.

ففي مادة (عرض) التي هي في القاموس أكثر المواد اشتقاقًا وتشعبًا ذكر الجوهري المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطرًا.

وصاحب القاموس أورد (احتمل الصنيعة) أي: تقلدها في أول المادة ، ثم (احتمل) أي اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد الى بلد في آخرها ، وبينهما أكثر من ثلاثين سطرًا ، والشارح أورد في تاج العروس (اختلج) بمعنى تحرَّك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطرًا. ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة ألا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد ، بل لا بد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها . لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطالع ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرًا بائرًا" كما ذكر أن من سلبيات هذه الفوضى أنها تحوج الباحث إلى قراءة المادة كلها فيعود نشاطه ملالا ، وجده كلالا ، "وربما تصفح المادة كلها وأخطأه الغرض بخلاف ما إذا كانت الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين فإنه ينظر أولا إلى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة ، وإلى الخماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها وإلى الرباعي ومشتقاته في وسطها، فلا يضيع له بذلك وقت ولا يكل له عزم، ولا يخيب سعي" (الجاسوس ص ١٠، ١١).

واعتبر من هذا النوع كذلك عدم بدء المادة بالفعل دائمًا: "ومن ذلك أنهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة، عوضًا عن الابتداء بالفعل أو المصدر كقول الجوهري في أول مادة جزر: الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى ثم قال بعد أربعة عشر سطرًا: وجزرت الجزور واجتزرتها: إذا نحرتها وجلدتها فالجَزور على هذا فعول بمعنى مفعول فما معنى ذكره قبل الفعل؟ (الجاسوس ص ١٤).

بل رد الشدياق معظم ما فات اللغويين من ألفاظ صحيحة فصيحة إلى هذه الفوضى الداخلية فتراه يقول عن صاحب القاموس: "إن المصنف أهمل كثيرًا من الألفاظ التي ذكرها الجوهري مبسوطة مشروحة ، وأغربه ما كان في المواد القليلة الاشتقاق نحو (سهد) فإن المصنف أهمل فيها السهاد مع أن الجوهري ابتدأ المادة به.

وأعظم أسباب هذا الإهمال أنه لم ينسق ترتيب الأفعال ومشتقاتها على نسق الصرفيين . فمن يخلط في ترتيب الكلام على هذا المثال فلا بد وأن يفوته منه شيء" (الجاسوس ص١٠٧، ١٠٨).

٢- أما بالنسبة لضرورة بدء المعاني بالحسي منها فإن الشدياق يقول:

- ابتدأ الفيروز ابادي مادة عبر بعبرت الرؤيا ، والجوهري بالعبرة من الاعتبار، والفيومي بعبرت النهر. وهو الصواب لأن احتياج العرب إلى قطع النهر والوادي أشد من احتياجهم إلى تفسير الأحلام (سر الليال ص ٦١).
- "قد أجمعوا على أن المهذب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة بناء على أن الأمور المعنوية أو العقلية مأخوذة من الأشياء الحسية ضرورة أن الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل وتقرير ذلك أن العقل مأخوذ من عقلت البعير ، والحِكْمة من حكَمة اللجام والذكاءِ لتوقد الذهن من ذكاءِ النار . وأصل معنى الإدراك من أدرك الرجل أحدًا إذا لحقه..."(سر الليال ص ١١).

٣- ويرى الشدياق كذلك ضرورة بدء المعاني الحسية بأبسطها فيقول: "واعلم أنه متى ما اجتمع معنيان في فعل من الأفعال الكثيرة الوقوع والاستعمال ينبغي تقديم الأبسط منها، كما في سبح مثلاً، فإنه يدل على العوم والحفر فنقول إن الحفر أول المعنيين لأنه أدنَى إلى الأحوال الطبيعية وألزم إلا أن كثرة الاستعمال غلبت المعنى الأول. وهذا الأمر قلما يعتبره أصحاب اللغة وخصوصًا صاحب القاموس، فإنه يبدأ بمتفرعات معنى المادة ويترك الأصل إلى آخرها" (سر الليال ص ١٣).

٤- ومما يراه الشدياق ضروريًا لتحقيق الترتيب الداخلي ذكر المعنى الحقيقي قبل المعنى المجازي ، ولهذا اعتبر من خلل المعاجم العربية "تقديم المجاز على الحقيقة ، أو العدول عن تفسير الألفاظ بحسب أصل وضعها".

ومثل لذلك بمادة "كتب" حيث بدأ "صاحب القاموس بقوله: كتبه كَتْبًا وكتابا خطه ، ومثله صاحب المصباح والزمخشري ، مع أن أصل الكَتْب في اللغة للسقاء . يقال: كتب السقاء أي خرزه بسيرين، وهو من معنى الضم والجمع ومنه الكتيبة للجيش. ثم نقل هذا المعنى إلى كتب الكتاب ، وحقيقة معناه: ضم حرف إلى آخر" (الجاسوس ص ١١).

ويطرح الشدياق اعتراضًا قد يوجه إلى هذا المبدأ ويرد عليه قائلا: "فإن قيل إن أئمة اللغة إنما يبتدئون المادة بأشرف ما فيها من المعاني، قلت كان عليهم بعد الفراغ من المجاز إذا كان أشرف المعاني أن يقولوا مثلا: وأصل هذا المعنى من قولهم كذا وكذا. لا جرم أن الابتداء بالأصل لا يخل بالترتيب فإن الجوهري ابتدأ مادة (خلق) بخلق الأديم وهو تقديره قبل قطعه.. وزاد الزمخشري على أن جعل خلق الله الخليقة مجازًا عنه" (الجاسوس ص ١١).

(ج) الربط بين المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها:

يرى الشدياق أن من واجبات المعجمي أن يقوم في كل مادة بالتماس المعنى العام أو المعاني العامة التي ترد إليها جميع المعاني الجزئية للمادة، وهو ما يذكرنا بصنيع ابن فارس في معجمه المقاييس. بل قد حاول ما هو أكثر من هذا في كتابه "سر الليال"، حين قام بعملية الربط هذه بين المواد التي تختلف في بعض حروفها وتتفق في بعضها الآخر أو تختلف في ترتيبها، وهو ما يذكرنا من جهة بالاشتقاق الأكبر عند ابن جني، وما سماه بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعنى من جهة أخرى (الخصائص ٢/١٣٣، ١٤٥).

والأمثلة كثيرة على النوع الثاني، ونكتفي منها بالمثالين الآتيين:

١- يقول الشدياق: البحت الصرف، والخالص من كل شيء ومثله: المحت والحتم والمحض (سر الليال ص ٤٧).

٢- ويقول: "لا بد من التسليم بأن العرب تعمدت معنى من المعاني ثم نسقت عليه الأفعال المتفقة حروف فائها وعينها نسقًا متفننا فيه، فتارة قصدت نسبته إلى المعقول، وتارة إلى المحسوس، مثال ذلك لفظة (كَسَّ) أي دق دقًا شديدا فقد صاغت منه لفظة (الكسيس) للخبز المكسور، ثم قالت(كسأ) بمعنى ضرب، و (كسْء) من الليل: قطعة منه، فأجرت معنى الكسر على شيء غير محسوس، ثم قالت (كسب) فإذا تأملته وجدته لم ينقطع عن معنى الكسر أو القطع ثم قالوا (كسد) الشيء أي لم ينفق فضمنوه معنى القطع عن البيع، ثم قالوا (كسر) ومعناه ظاهر، ثم (الكسط) بمعنى الغبار فبقيت مناسبة الكسر فيه، ثم (كسعه) بالسيف ورجل (مكسَّع) إذا لم يتزوج فضمنوه معنى منقطع عن الزواج،

ثـم (الكسـفة) القطعـة مـن الشـيء . (وكسفت) الشمس والقمر . احتجبا فضمن معنى الانقطاع عن النور ، ثم (الكسل) فضمن معنى الانقطاع عن النشاط. وانظر أيضًا إلى غمّ وغمت وغمد وغمر وغمس وغمص وغمض وغمط وغمق وغمل وغمن وغمى فإنها كلها تدل على الستر والتغطية مع اختلاف المعاني."(سر الليال ص ٢٧، وانظر ص ٤، ٥).

أمـا الـنوع الأول الـذي يقـوم على ربط معاني المادة الواحدة بمعنى عام يجمعها، فهو الذي يهمنا هنا ، وهو الذي يتبغي على المعاجم العربية أن تتفطن إليه ، وأمثلته في كتبه المتعددة كثيرة ، ولذا سنقتصر على النماذج الآتية منه:

١- تغليط الفيروزابادي في اشتقاقه السُّرِّية من السر للجماع ، وذهابه في اشتقاقها إلى أنها من السُّر بمعنى السرور. (السابق ص١١).

٢- اشتقاقه العمامة من عمَّ بمعنى شمل ، لأنها تعم الرأس (السابق ص ٢١).

٣- رده معنى" العبد" إلى عبد بمعنى غضب لأنه يغضب لمالكه (سر الليال ٥٨).

٤- قوله إن "حمو الرجل" و"حمو المرأة" مأخوذ من حمو الشمس وحقيقة معناه: مـن به حمو للغيرة على المرأة . ومثله لفظ الصهر للقرابة ولزوج بنت الرجل وزوج أخته فإن معناه في الأصل من الحرارة (السابق ص٥٨).

٥- ذكره أن للجبر معنيين أصليين هما ضد الكسر، والإجبار على الشيء. ثم أطلق الجبر على الملك والشجاع ويصح أن يكونا من كلا المعنيين، ثم على الغلام لأن فيه جبرا لأبيه. ثم قيل من المعنى الأول: جبر العظم ، وجبر الفقير ، والمتجبر : الأسد، والجبار: الله تعالى لتكبره، والنخلة الطويلة الفتية، والجبيرة.. إلخ (السابق ص٩٩).

٦- رده معـنى "الفيء" إلى الرجوع ، ومنه سمي الظل فيئًا لرجوعه من جانب إلى جانـب ، ومن معنى الرجوع أيضًا: الغنيمة والخراج ، وفي الحديث: الفيء على ذي الرحم ، أي العطف عليه والرجوع إليه بالبر (السابق ص ٢٦٣).

٧-رده معـنى "السبت" إلى القطع . ومنه جاء السبت بمعنى حلق الرأس ، وضرب العـنق ، ويـوم مـن أيام الأسبوع لانقطاع الأيام عنده ويوم الراحة لانقطاع الإنسان عن العمل (السابق ص ٢٦٤).

(د) وضوح التعاريف وتعدد طرق التفسير:

يشترط الشدياق لصحة التعاريف شروطًا ثلاثة هي:

أولا: وضوحها ، وعدم إيقاعها في لبس.

ثانيا: تعدد طرقها.

ثالثا: خلوها من الدور والتسلسل.

أما بالنسبة لوضوح التعاريف فقد ألح عليه في كتبه وبخاصة في "الجاسوس" (المقدمة ٣) ، وعد من عدم الوضوح إيراد ألفاظ في التعريف لا ترد في مظانها مع توقف المعنى عليها كقول الجوهري في ربح: ربح في تجارته أي استشف ، ولم يذكر استشف في بابها ، وقول ابن سيده في بلد: البلد: كل قطعة مستحيزة من الأرض . ولم يذكر استحاز في حوز ولا في حيز (الجاسوس ص١٤ ، وانظر سر الليال ص ٢٦٠). كما عد منه ذكر اللفظ دون تفسيره كقول الفيرزابادي في بعر: "والبعار: الشاة تباعر حالبها ، وككتاب الاسم"، قال الشدياق: "ولم يفسره . وعبارة المحكم: باعرت الناقة والشاة إلى حالبها: أسرعت ، والاسم البعار". (الجاسوس ص٥٧).

وكقوله في صيف: "صيفت الأرض كعني فهي مصيفة ومصيوفة" قال الشدياق: "ولم يفسره ، وعبارة الصحاح: صيفت الأرض فهي مصيفة ومصيوفة إذا أصابها مطر الصيف. وعبارة المحكم: الصيف: مطر الصيف ونباته ، وصيفت الأرض فهي مصيفة إذا أصابها الصيف" (السابق ص٥٩).

وعد منه كذلك غموض عبارة الشرح كقول الفيروزابادي: "بَخَس وتبخَّس نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين" قال الشدياق: "وهي عبارة مبهمة والواضح ما قاله الجوهري: بَخَّس المخُ تبخيسًا: أي نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين ، وهو آخر ما يبقى" (سر الليال ص ٥٥) . ولهذا قسا على الفيروزابادي في مقدمة جاسوسه لأنه في نظره – يبدل عبارة المعاجم الفصيحة إلى عبارة غامضة مبهمة حشوها عجمة قبيحة. ومن كان شأنه هكذا قلت به الثقة . لأن تعريف الكلام العربي ينبغي أن يكون فصيحًا مبينا، محكما رصينا ، وإلا مجه السمع ، ونبا عنه الطبع. (الجاسوس ص ٥٤).

وفي مكـان آخـر يعقب على عبارة للفيروزابادي بعد نقدها — يعقب بقوله: "فإن كتب اللغة ليست ألغازًا" (ص٤٩).

وأما بالنسبة لتعدد طرق التفسير، فقد ذكر منها المرادف، والمضاد، ووضع الكلمة في سـياقاتها المخـتلفة . ولـيس لـه طـريقة محددة يفضلها على غيرها فتارة يقنع بالمرادف وتـارة يفضـل المضـاد علـيه كتفضـيله تفسير الحبس بضد التخلية على تفسيره بالمنع (سر اللـيال ص ٤٢) كمـا أنـه في كـثير مـن الأحيان يحذر من التعريف بالمرادف لعدم وجود الـتطابق الـتام في اللغـة . (انظر ما سبق عن رأيه في الترادف) ، ولأنه ربما تعددت معاني اللفظ المفسِّر فلا يُعلم المراد منه بالتحديد ، ولهذا فهو ينصح بالحذر في استعماله.

والاقتباسات الآتية تكشف عن صعوبة التفسير بالمرادف في نظر الشدياق:

١- وصـف الشدياق ابنة أحد الأمراء فقال: "كانت ذات طلعة بهية وشمائل مرضية تامـة الظرف ، ناعسة الطرف". ولكنه استدرك على وصف طرفها بالنعاس فقال: "ولكن لـيس المراد من ذلك أنها كانت لا تبصر من يحبها كما يكون من به نعاس ، وإنما المعنى أنهـا ذابلـته". ولكنه عاد فاستدرك قائلا : "حتى ولا هذه العبارة مفصحة عما أريد أن أقولـه فإنهـا توهم أنها كانت ذابلة مع أنها كانت غضة بضة" وعقب بمقصوده من الكلمة قـائلا : "بـل المقصـود أن أقـول إنها كانت تنظر عن تخشيف" وعاد فاستدرك قائلا : " ولكـن مادة حشف لا تعجبني لأنها تدل على اليبوسة والخساسة والرداءة ، بل المراد أنها كانـت تكسـر جفنيها عن النظر"، واستدرك للمرة الرابعة قائلا : "ولا الكسر أيضًا لائق بهـا ، فلا أدري كيف ألحن للقاريء ما أردت . ولعل الأوفق أن يقال إنها كانت ترمي بسهام من عينيها ولم يكن صغر سنها مانعا من تتبيل من ينظرها" (السابق ص ٦٢).

٢- عد الشدياق من قصور المعاجم أنها حين تعرف لفظة بأخرى لا تهتم بذكر الفرق بيـنهما بالـنظر إلـى تعديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلا : الوجل: الخوف ، مع أن وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه . وكقوله أيضًا الجنف: الميل . وهو يوهم أنه يقال جنف عنه وعليه وإليه كما يقال مال عنه وعليه وإليه . (الجاسوس ص ١٢).

٣- أخذ الشدياق على القاموس أنه يفسر الكلمة بكلمة أخرى لها معان مختلفة فلا يعـلم المتعين مـنها ، كقولـه: الـبغس: السواد ، وهو يطلق على اللون المعروف ، وعلى

الشخص ، والمال الكثير ، وعلى القرى ، والعدد الكثير، وغير ذلك. وقوله :البند: العلم الكبير ، وهو يطلق على الجبل والراية ، وسيد القوم ، وغير ذلك (السابق ص٢٠١).

أما وضع الكلمة في سياقاتها اللغوية المختلفة فهو أفضل وسيلة عند الشدياق ، وهو بذلك يتفق مع أصحاب المدرسة السياقية الذين يرون أن معنى الكلمة هو تسييقها ، أو وضعها في سياقاتها اللغوية المتعددة . والأمثلة كثيرة على حرص الشدياق على توضيح معنى الكلمة بذكر استعمالاتها المتنوعة والنص على مصاحباتها من الألفاظ، نذكر منها:

١- عرضه الفعل باع في تعبيراته السياقية المتعددة ، فيقال: باع زيدا الدار ، وقد يقتصر على المفعول الثاني، ويجوز الاقتصار على المفعول الأول عند أمن اللبس كقولك: بعت الأمير ، وقد تدخل " من" على المفعول الأول كقولك "بعت من زيد الدار" وربما دخلت اللام مكان "من" كقولك: بعتك الشيء، وبعته لك (سر الليال ص٦٤).

٢- ذكره لكلمات الألوان التي تأتي وصفًا للفظ الموت مثل:

- الموت الأحمر: وهو أن يتغير بصر الرجل من الهول فيرى الدنيا في عينيه حمراء وسوداء.
- الموت الأغبر: وهو الموت جوعًا . لأنه يغبّر في عينيه كل شيء.
- الموت الأسود: وهو الموت في غمة الماء .
- الموت الأبيض: وهو موت العافية ، أو موت الفجاءة ، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه (السابق ص ٣٣٧).

٣- يمدح الشدياق الصحاح ويميزه على القاموس لحرصه على جملة أشياء منها "تعليم المركب من الكلام فضلا عن تعريف المفردات". ويمثل لذلك بقوله: "ما كنت عَمًّا ، ولقد عممت عمومة ، وبيني وبين فلان عمومة ، كما يقال أبوَّة وخؤولة ، وعُمِّم الرجل: سُود لأن العمائم تيجان العرب ، كما قيل في العجم تُوِّج"، وقوله: "أية غول أغْول من الغضب" ، وقوله: " دعني وعليَّ خطئي وصوبي ، أي صوابي"، وقوله: "الإسجاح: حسن العفو ، يقال ملكت فأسجح ، ويقال: إذا سألت فأسجح ، أي سهّل ألفاظك وارفق".

ويفضل أساس البلاغة على جميع المعاجم لحرصه على عرض الألفاظ في تراكيبها فيقول: " وأشهر من تحرى تعليم المركبات مع السجع الزمخشري في أساس البلاغة ، فهذا الأسلوب انتهى إليه" (الجاسوس ص ٨١).

أما بالنسبة للشرط الثالث ، وهو خلو التعاريف من الدور والتسلسل ، فقد تناوله أكثر من مرة في كتابه "الجاسوس" واعتبر عدم التزامه من خلل القاموس يقول الشدياق في مقدمة كتابه: "ومن تعريفه الدوري والتسلسلي: باحة الدار: ساحتها، ثم قال في فصل السين: ساحة الدار باحتها...، تسنيم القبر: خلاف تسطيحه ، وفي سطح: تسطيح القبر: خلاف تسنيمه..، تسور الحائط: تسلقه: وفي سلق: تسلق الحائط تسوره" (ص ٨٦).

ويقول في نقده الرابع للقاموس: "في روح: الروح ما به حياة الأنفس وقال في تعريف النفس: إنها الروح، فيكون حاصل المعنى: الروح: ما به حياة الأرواح. فلو قال: الروح ما به حياة الإنسان أو الجسد لسلم من العجمة" (ص ٢١٧). ويقول تعقيبًا على قوله: "الضرس : السن": وقال في باب النون:السن: الضرس ، وهو تعريف دوري . والضرس غير السن ، وهو المتعارف بين الناس (ص٢٢٥). كما خصص النقد الثالث عشر من نقوده لتعريفات الفيروزابادي الدورية والتسلسلية وضرب أمثلة كثيرة عليها (ص ٣٠٢ -٣٠٣).

(هـ) الوقوف عند اختصاص المعجم:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يقصر مادته على ألفاظ اللغة غير القياسية، ولذلك اعتبر من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم أن يهتم المعجمي بما يعد من المعلومات الموسوعية ، أو بما يعتبر من المشتقات القياسية ، أو بما يدخل في باب الفضول أو الاستطراد الذي لا فائدة فيه . وقد انصب كثير من نقده للقاموس على هذه النقطة التي اعتبرها من أقبح أنواع الخلل فيه.

وقد اعتبر من باب المعلومات الموسوعية التي يجب أن يتجرد منها المعجم "خواص الأشياء ومضارها ومنافعها مما حرص عليه صاحب القاموس كل الحرص؛ فكل

يعلم أن موضعها كتب الطب لا كتب اللغة" (سر الليال ص٦٠٧ وانظر الجاسوس ص ٣١٧). وكذلك المعلومات الجغرافية التي جعلت القاموس"عبارة عن كتاب في الجغرافية" (الجاسوس ص ٣٢) وذكر الأعلام "كأسماء المحدّثين والفقهاء وغير ذلك مما لم تكن العرب تعرف له عينا ولا أثرًا ، حتى إن المصنف من شدة تهافته على ذكر الأعلام أهمل ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف. ففي مادة رحم أهمل الرحمن والرحيم واجتزأ عنهما بذكر محمد بن رحمويه.. ورحيم كزبير.. ومرحوم العطار" (السابق ص ٨٠ ، ٨١ وانظر ص ٣٠٥ - ٣٠٨).

وقد اعتبر الشدياق تعرض الفيرزابادي إلى ما ليس من اختصاصه السبب في وقوعه في الأخطاء والأوهام التي لا تكاد تقع تحت حصر: "إن حق اللغة اقتصّ من مصنفه فإنه ربكه في أغلاط كثيرة في ذكر تلك الأعلام التي فضلها على كلام العرب . حيث جعل الابن أبا، والأب ابنا، والرجل امرأة، والمرأة رجلا ، والمدينة جبلا ، والجبل مدينة والغرب شرقًا، والشرق غربًا" (السابق ص٨١).

واعتبر الشدياق كذلك من باب الفضول واللغو ذكر ما يمكن الاستغناء عنه من المشتقات لقياسيته ، ولضرورة العلم به كإيراد الفعل المبني للمجهول بعد الفعل المبني للمعلوم ، وكذكر مصدر غير الثلاثي ، وكالنص على اسم المرة أو الهيئة أو الزمان أو المكان . ومن الأمثلة الكثيرة التي ذكرها نلتقط ما يأتي:

١- قال الجوهري: حابيته البيع محاباة . ولو حذف المصدر وأتى بلفظة تفسر الفعل لكان أولى لأن المصدر قياسي لا يلزم ذكره (سر الليال ص ٤٦).

٢- أهل اللغة لا يستوفون من كل فعل ثلاثي مشتقاته ومزيداته ، إذ لم أر في القاموس والصحاح: استبخله: عده بخيلا ، ولا باخله: غالبه بالبخل ، ولا تباخل: كما تقول تمارض وتباله (السابق ص٥٧).

٣- إيراد الفعل المجهول بعد الفعل المعلوم لغو لأنه حيثما وجد المعلوم المتعدي وجد المجهول . نعم إذا ثبت أن العرب لم تنطق بفعل إلا مبنيًا للمجهول فحينئذ يتعين ذكره (الجاسوس ص٢٤١).

٤- عقد الشدياق فصلا سماه "فيما ذكره من قبيل الفضول والحشو والمبالغة واللغو" ضمنه كثيرا من الصيغ القياسية التي لم يكن هناك داع لذكرها. (الجاسوس ص ٣٠٣ وما بعدها).

أما ما يدخل في **باب الفضول والاستطراد** ، ولا يعد من باب اللغة في شيء، ولذا لا يصح للمعجمي أن يذكره فقد استقى الشدياق أمثلته من القاموس الذي بلغ الغاية في ذلك حتى تجاوز كل حد ومن ذلك:

١- قول الشدياق : لم يزد القاموس شيئًا على العباب والمحكم إلا ما كان من قبيل الخرافات ، التي لا يتلفت إليها الثقات الأثبات، وذلك كخرافة الققنس واللوف والزبعري والرخ والجزائر الخالدات ، وغير ذلك من المحالات (الجاسوس ص ٥٤).

٢- وقال الشدياق: ومما تصدى له من الحكايات التي لا تعلق لها باللغة أصلا حكاية ثلاث بنات كن لهمام بن مرة وكان أبى أن يزوجهن فأنشدت كل واحدة منهن بمسمعه بيتا ينبئ عن اغتلامها . وهي حكاية سخيفة تنبو عنها كتب المجون. ذكر ذلك في قنف ومثله ما ذكره في زول (السابق ص ٣١١ وما بعدها).

٣- ومن ذلك ذكره أسماء أصحاب الكهف (ص ٣٠٥) وأسماء جماعة من المخنثين (ص ٣٠٧).

٤- وكذلك قول الفيروزابادي: شحيثا كلمة سريانية تنفتح بها الأغاليق وقد عقب الشدياق قائلا : "قال المحشي: أي مناسبة بين هذا وبين كلام العرب ولغاتهم على أنه لغو من الكلام وباطل فلا تفتح به الأغاليق ولا ينبغي ذكره من المصنف لو كان صحيحًا ولا يليق" (ص ٣٠٩).

وقد أوقع تعرض الفيرزابادي لما ليس من اللغة في معجمه – أوقعه في الوهم والتخليط مما فتح الباب أمام الشدياق ليخصص نقده الثاني والعشرين لأوهام الفيروزابادي فيما خرج عن اللغة ، وعد منه حديثه عن النسطورية والبطريق ، وشمعون الصفا ، والذبيح ، والسقالبة ، والإسكندر وغيرها ، وكشف عن خلطه فيها واتخذه مادة للسخرية (الجاسوس ص٣٩٦ - ٤٠٣).

(و) وضع اللفظ المشتبه أصله في مظانه المختلفة:

هناك كلمات كثيرة في اللغة العربية يشتبه أصلها ومعرفة جذرها على اللغوي المتخصص فضلا عن ابن اللغة العادي. وقد كان هذا النوع من الكلمات محل خلاف بين المعجميين ، ولذا اختلفت مواضعه في المعاجم.

وكان رأي الشدياق وضع أمثال هذه الكلمات حسب احتمالاتها المختلفة في مظانها المختلفة مع الربط بين هذه المظان ، واعتبر من الخطأ الاقتصار على احتمال واحد. ومن أمثلة ما رأي وضعه في أكثر من موضع الكلمات الآتية:

١- كلمة "أثفية" التي وضعها الفيروزابادي في (أثف) و (ثفي) وله وجه. لأنه يقال: أثف القدر وآثفها وأثفاها وثفاها. وجاء من الأول: أثفه: تبعه وطرده وطلبه. وجاء من الثاني: ثفاه يثفيه ويثفوه . غير أن وزن الأثفية من أثف فعلولة ، وجمعها على فعاليل ومن ثفي أفعولة وجمعها على أفاعيل (الجاسوس ص٣٢).

٢- كلمة مكان التي أوردتها المعاجم في (مكن) و (كون)، وفسر ابن منظور وضعها في المكانين بقوله: "المكان: الموضع والجمع أمكنة وأماكن توهموا الميم أصلا.." (كون) ، وقوله "وقيل الميم في المكان أصل كأنه من التمكن دون الكون" (مكن) (السابق ص ٣٢، ٣٣).

٣- كلمة "ترجمان" التي أوردها اللسان في (ترجم) و (رجم) على اعتبار أصالة التاء أو زيادتها (السابق ص٢٩).

واعتبر الشدياق من التعنت الاقتصار على احتمال واحد أو تخطئة من اختار الاحتمال الآخر . ولهذا يقول عن كلمة كبريت ونحوها: "ذكر الكبريت في باب التاء.. بناءً على أصالة التاء لقولهم: كبرت بعيره: إذا طلاه بالكبريت والجوهري أورده في (كبر) فعامله معاملة العفريت . والمصنف تابعه على ذكر العفريت في (عفر) مع أنه ذكر له فعلا وهو تعفرت.. فكان ينبغي له أن يذكره في التاء أيضًا وينبه على أن أصله (عفر). كما قال في (رعش): الرعشن في النون وإن كانت النون زائدة ، لكني ذكرتها على اللفظ

وبينت الزيادة . ولكنه لم يبين زيادة النون في الضيفن. وهما من باب واحد" (السابق ص ٢٨٨ ، ٢٨٩).

ويقول عن كلمة "توأم" التي وضعها الجوهري في فصل التاء: "ذكر (الفيروزابادي) التوأم في مادة على حدتها بقوله: التوأم من جميع الحيوان المولود مع غيره في بطن ثم أعاده في (وأم). إلى أن قال: ووهم الجوهري في ذكر التوأم في فصل التاء . فانظر كيف يخطئ الجوهري وهو متابع له" (السابق ص ٣٩٣).

ويقول عن كلمة "مرهم" التي وضعها الجوهري في (رهم): "ذكر (الفيروزابادي) في (رهم) المرهم: طلاء لين يطلى به الجرح. ثم قال في تركيب (مرهم): المرهم دواء مركب للجراحات ، وذكر الجوهري له في رهم وهم والميم أصلية لقولهم مرهمت الجرح. قلت: قوله: "لقولهم مرهمت الجرح قد يقال إن ذلك على توهم أن الميم أصلية وهو من أساليبهم كقولهم تمكحل وتمذهب". (السابق ص٣٩٤ - ٣٩٥).

ويرى الشدياق أن ضرورة وضع الكلمة في مظانها المختلفة لا يستلزم التكلف في التحليل، ولهذا فهو ينتقد من وضع كلمة "استكان" في "سكن" ويرى أنها من الأجوف وأن مكانها (كين) يقول الشدياق: "ذكر استكان بمعنى ذل وخضع في (سكن)، افتعل من المسكنة أشبعت حركة عينه مع أنه ذكر كان يكين بمعنى ذل وخضع فالأوجه أن يكون استكان: استفعل منه . والإشباع إنما يرتكب لضرورة الشعر . والبيضاوي جعل اشتقاق استكانوا من (سكن) أصله استكن ، أو من استكون من الكون لأنه يطلب من نفسه أن تكون لمن تخضع له . وفيه من التكلف ما لا يخفى . والراغب ذكرها في كان الواوي" (السابق ص٢٩١).

ويرى الشدياق أنه في حالة تعدد المظان يجب على المعجمي الربط بين المظان المختلفة والإشارة إلى كل منها في الموضع الآخر ، ولذلك عقد فصلا في كتابه "الجاسوس" بعنوان: "النقد الحادي والعشرون: فيما ذكره في موضعين غير منبه عليه ، وربما اختلفت روايته فيه"، ذكر فيه كلمات مثل: أول ، واست ، وآنق ، وذربة ، والبذيء ، ودكان، وبستان، وريّان، واللات، وهات، ولدة، وحاش (لله) وغيرها (ص ٣٧٢ وما بعدها).

ويحدد الشدياق أصولا معينة يكثر الخلط فيها، وهي المشتملة على علة يصعب ردها إلى الواو أو الياء مثل جبىَ جبا مما يؤدي كثيرا إلى الخلط بين الواوي واليائي (وانظر: أبى ، وذرى ، وروح ، ورنا ، وشكا).

وكذلك يكثر الخلط بين المعتل والمهموز مثل ذرية التي يشتبه وضعها في ذرأ أو ذري، وفئة التي يشتبه وضعها في فيأ أو فأو. ويكثر الخلط أيضا في الهمزة والنون: "وأكثر ما يزلق فيه أئمة اللغة من حيث إيراد الألفاظ هو ما كان فيه الهمزة والنون. فمزلقة الهمزة أن بعضهم يراها أصلية وبعضهم يراها منقلبة عن حرف علة"، " ومزلقة النون أطمّ وأعم فإنها تلتبس في أوائل الألفاظ وأواسطها وأواخرها ، مثال الأول: لفظة نرجس . ومثال الثاني: لفظة الخنزاب أي الديك . وقس عليه العنصر والعندل والعنصل، ومثال الثالث الربان والدكان والبرهان والبستان والعنوان وما لا يحصى من نظائرها" (انظر الجاسوس ص ٣٣، ٣٨، ٢٨٦ وما بعدها و ٣٧٢ وما بعدها).

(ز) وضع المعرب تحت لفظه:

سبق أن عرضنا رأي الشدياق ضرورة التثبت قبل ادعاء تعريب الكلمة . فإذا ثبت لدى المعجمي أن الكلمة معربة وجب عليه أن يعامل حروفها كلها على أنها أصلية ويضعها تحت لفظها دون ادعاء بوجود زوائد فيها . يقول الشدياق منتقدا الفيروزابادي لوضعه كلمة إستبرق في (برق) والأرجوان في (رجو): "ومن أمثلة الإجحاف : إيراد المصنف لفظة الإستبرق في برق فأنزل الألف والسين والتاء فيها وهي نصف الحروف منزلة استخرج . وكذلك أورد الأرجوان في رجو فأنزلها منزلة الأفعوان والأقحوان مع أنها عجمية فكان ينبغي أن تعامل معاملة العنفوان وبهذا الاعتبار أبعدها عن أصل وضعها، وحجبها عن طالبها، لأن الطالب يعتقد أن الهمزة والواو والنون فيها أصلية، وأن حكم (سألتمونيها) لا يجري على الألفاظ العجمية. وفي المطالع النصيرية أن الألف أصلية غير مبدلة من شيء في الحروف والأسماء المبنية والأسماء العجمية لأنها غير مشتقة ولا متصرفة فلا يعرف لها أصل غير هذا الظاهر فلا يعدل عنه من غير دليل"، ثم يقول: "وفي الواقع فإن اعتبار زيادة الحروف في الألفاظ العجمية أمر غريب لأن شأن المزيد أن

يستغنى عنه بالأصل الذي زيد عليه ، وهنا ليس كذلك إذ لا شيء من الهمزة والألف والنون في أرجوان زائد" (الجاسوس ص ٢٧، ٢٨).

ويقول منتقدا بعض اللغويين الذين يبحثون عن اشتقاقات عربية لكمات أعجمية: "ثم إن اعتبار هذه الزيادات أغرى الإمام ابن سيده والإمام النواوي باشتقاق الأندلس من مادة الدلس وهو الظلام، واعتبار النون لا محالة زائدة" ثم يمضي قائلا : "فما معنى كون النون لا محالة زائدة واللفظة عجمية. فهل يقال إذن إن النون والهمزة في إسرافين زائدتان حتى يرجع أصلها إلى السرف أو إن الهمزة في إسحاق زائدة حتى يرجع إلى السحق؟" (السابق ص ٢٩، ٣٠).

(ح) بيان درجة اللفظ في الاستعمال:

اعتبر الشدياق من وظيفة المعجم النص على درجة اللفظ في الاستعمال فقال: "من عادة المحققين من اللغويين أن ينبهوا على الفصيح من الكلام، وعلى غير الفصيح، وعلى الغريب، والحوشي، والمتروك، والمهمل، والمذموم، واللثغة، ونحو ذلك" ولذلك عاب على صاحب القاموس "إيراده الألفاظ إيرادا مطلقا من دون أن ينبه عليها" في حين أن غيره نبه على درجتها.

- فمما أطلقه صاحب القاموس ونبه عليه بعضهم بقوله: ليس بثبت ، أو لا أدري صحته، أو لا أحقه: الإردب: القناة التي يجري فيها الماء في باطن الأرض (الجاسوس ص١٣٠).
- ومما أطلقه ونبه غيره على أنه مختص ببعض القبائل العربية: الهَبَيَّخة الجارية الناعمة وهي بلغة حمير (السابق ص١٣١).
- ومما ذكره من لغة العوام: "أعطني شحتلة من كذا أي نتفة" مع أن الصاغاني نبه على أن هذه الكلمة ليست من كلام العرب وأنها من كلام أهل بغداد. وقد تساءل الشدياق قائلا : "فإذا ساغ أن يروي عنهم الشّحتلة ساغ أيضًا أن يروي عن أهل الشام الشحتول والمشحتل بمعنى الصعلوك.. وساغ أيضا أن يروي عن غيرهم إلى ما لا نهاية (السابق ص ١٣٢، ١٣٣).

- ومما ذكره مطلقا مع نص غيره على أنه لثغة أو لهجة غير فصيحة قوله: "النات: الناس"، وقوله "الديش: الديك"، وقوله: " الثلتان: السلطان"، وقوله: الثابّة : الشابة وقوله: " اعتثم به بمعنى اعتصم" (السابق ص ١٣٤، ١٣٥).
- ومما ذكره مطلقا وهو نادر أو ضعيف جمع حدأة على حِداء بالمد ، وإثبات رقأ في الدرجة: صعد فيها ، والمعروف رقى ، وإثبات اسم المفعول من قرأ: مقريّ.. (السابق ص ٣٢١ وما بعدها) وإثبات كلمة "الأعصج" بمعنى الأصلع مع قول ابن سيده في المحكم: " رجل أعصج: أصلع، لغة شنعاء لقوم من أطراف اليمن لا يؤمن بها" (السابق ص ١٣٢).

٣- مواصفات المعجمي الناجح:

اشترط الشدياق فيمن يتقدم للعمل المعجمي جملة شروط رآها ضرورية لتحقيق الدقة المطلوبة . وقد رد إلى فقد هذه الشروط أو بعضها ما شاب العمل المعجمي العربي من هنات ، وأهم هذه الشروط:

(أ) تفرغه التام وإخلاصه للغته:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يتعامل مع اللغة تعامل المحب مع محبوبه ، فلا يشغل باله إلا بها، ولا يصرف همه عنها إلى غيرها، وهو يصور حبه لغته فيقول: "إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقا ، وكلفت بها حقا، حتى صرت لها رقا. فأزهرت لها ذبالي ، وسهرت فيها ليالي." (سر الليال ص٢).

ويرد كثيرا من أخطاء اللغويين إلى عدم تفرغهم لها فيقول: "هذا الخلل فاش في غيره (غير القاموس) أيضا. وسببه توزيع أوقات هؤلاء المؤلفين على مصالح مختلفة. فينبغي لمن تصدى للغة ألا يشتغل بشيء آخر غيرها ، فإن اللغة العربية كالحرة تأبى الضرة" (السابق ص٢١) ويكرر نفس المعنى في كتابه الجاسوس فيقول: "من يتصدى للتأليف في اللغة العربية ينبغي له أن يقتصر عليها ولا يشرك بها شيئا فإنها كالزوج الحرة تأنف من الضرة" (ص ٧٣).

وينسب كثرة ما وقع فيه الليث من تصحيف إلى أنه "كان غنيا وعائشا بين ضرتين وهاتان الخطتان تحملان الإنسان على أن يرتكب ما هو أعظم من التصحيف والتحريف (الجاسوس ص ٤١٧).

كما ينصح من يؤلف في اللغة ألا يوزع فكره بين أكثر من عمل في وقت واحد ، لأن العمل اللغوي يحتاج إلى تروٍّ ومراجعة وحسن تدبر "أعتقد أنه لم يكن الخلل كتابه (القاموس المحيط) من سبب سوى أنه كان رحمه الله في خلال تأليفه له مشتغلا بتأليف كتب أخرى ، فقد ذكر له الشارح في تاج العروس نيفا وأربعين مؤلفا فكان لا يراجع ما يكتبه في القاموس. وأعظم شاهد لذلك أنه لم ينسق الواو والياء في المعتل وكثيرا ما يكرر اللفظة في مادتها أو يحيل ذكرها في موضع ولا يذكرها فيه ، شأن من تنازعته الأشغال وتجاذبته خوالج البال" (السابق ص٧٣).

(ب) استنفاد المراجع المكنة والتزام الأمانة العلمية:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يستنفد كل المراجع الممكنة قبل أن يثبت كلمة في معجمه ، وأن يذكر اختلاف الأقوال فيما يتعرض له من مسائل ، وألا يخفي شيئا من مصادره أو يحجب أسماء بعضها، وهو من أجل هذا يقسو على الفيروزابادي الذي كثيرا ما أخل بهذه الشروط فيقول: "فإن من تصدى للتأليف في العربية تعين عليه أن يذكر اختلاف الأقوال فيما يحرره من المسائل ولا يقول فيها بهوى نفسه ، ولا يعتمد فيها على حدسه ، ألا ترى أن شراح الحديث الشريف إذا أوردوا حديثا ذكروا الخلاف في لفظه ومعناه ، وكذلك المفسرون يذكرون اختلاف القراءات والتأويل فما ضر المصنف لو كان تروى في (تقيأت) وذكر الخلاف فيها. فإن قيل: إنه لم يكن عنده نسخة من التهذيب ولسان العرب وأساس البلاغة قلت هذا من قبيل قولهم: عذر أقبح من ذنب. أما أولا فلأنه شهد على نفسه بأنه جمع كتابه من المحكم والعباب، وصاحب العباب لم يذكر هذا الحرف فكان ينبغي له أن يفكر في سبب ذلك لأن العباب من الكتب الجامعة. والثاني أنه ألف قاموسه في زبيد بعد أن زار مصر وأخذ عن علمائها. فكيف يحتمل أنه لما كان بمصر لم يسمع بذكر اللسان ، وبالتنويه به؟ فليس من المحتمل أنه سافر من مصر من دون الحصول على نسخة من اللسان ، فمن ثم أقول: إما أنه لم يكن عنده نسخة من

اللسان وهو قصور ، وإما أنه كان عنده ولم ينقل منه حسدا فالقصور أعظم. ولكن إذا لم يكن عنده التهذيب واللسان في جملة كتبه فما معنى قوله في خطبة القاموس إنه صريح ألفي مصنف من الكتب الفاخرة. وأغرب من ذلك أنه مع شدة حرصه على ذكر أسماء الفقهاء والمحدّثين في مشارق الأرض ومغاربها لم يذكر الأزهري وابن منظور في جملتهم ولا في جملة المؤلفين. (الجاسوس ص ٤١٨). كما كان دائب الانتقاد للفيروزابادي لتجاهله هذين العالمين الجليلين فيقول عن الأول: "يتبين من كلام الشارح أن المصنف كان عنده التهذيب للأزهري فكيف قال إذن في الخطبة: (وكنت برهة من الدهر ألتمس كتابًا جامعا بسيطا. ولما أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب؟) (الجاسوس ص ٤٤١) ويقول عن الثاني: فأجدر بمن يأتي هذا الإسهاب لغير طائل أن يذكر ابن منظور الذي شرف أمة الإسلام بلسانه ، وأوضح مشكلات اللغة ببيانه وإنما هو الحسد. كم أضنى من جسد، وأذكى من كمد، وأوهى من جلد، وألقى في كبد "(السابق ص٤١٩).

(ج) تمكنه من قواعد الصرف:

لما كان أساس ترتيب الكلمات في المعجم تجريدها من الزوائد وردها إلى أصولها فإن على المعجمي أن يكون على دراية كافية بقواعد تصريف الكلمات. وتمييز مجردها من مزيدها ، وتحديد أحرف الزيادة من بين حروفها ، وعلى معرفة بالأصول الواوية واليائية، وعلى مقدرة في تمييز المعتل من المهموز. وقديما عيب على ابن دريد كثرة أخطائه الصرفية في معجمه الجمهرة حتى قال عنه ابن جني: "فيه أيضا من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر. ولما كتبته وقّعت في متونه وحواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته" (الخصائص ٢٨٨/٣).

وقد مرت أمثلة كثيرة للكلمات التي تشتبه أصولها. ونضيف الآن أمثلة للكلمات التي أخطأ المعجميون في معرفة أصولها ، كما ذكر الشدياق:

١- وضع آنقني الشيء ، أي أعجبني في "أنق" و "نيق" والصواب أن يذكر في أنق فقط. فإن أصله أأْنقني فقلبت الهمزة الثانية ألفا كما قلبت في آمن. ولو كان من نيق لقلت: أناقني ، كما تقول أصارني وعلى الأصل أنْيقني.
٢- وضع الفيروزابادي حرف (ي) مقابل مادة رنا، وهي واوية.
٣- ذكر الفيروزابادي "الحارة" في "حير" وموضعها في الواو.
٤- وضع "التميمة" في "تمم" و "تيم" والصواب ذكرها في تمم فقط لأنها تفاؤل بتمام عمره.
٥- التخليط في إيراد مضعف الرباعي فهم يوردونه تارة في مضعف الثلاثي على مذهب الكوفيين، كما فعل الفيروزابادي في "شلشل" وتارة يفردونه بمادة على حدتها كما فعل الفيروزابادي في "سلسل".
(الجاسوس ص٢٩٠-٢٩٣، ٥٠٠ وانظر سر الليال ص ٣٢).

ويدخل كذلك في التمكن من قواعد الصرف المعرفة بأجناس الكلام كاسم الفاعل والمفعول وصيغة المبالغة والمصدر واسم المصدر. وقد عاب الشدياق على الفيروزابادي خلطه بعض الأجناس ببعض كخلطه المصدر باسم المصدر (انظر الجاسوس ص ١٩٦ - ١٩٨) ، ويدخل كذلك توزيع الجموع على مفرداتها فلا يقع فيما وقع فيه الفيروزابادي حين قال: " الرزيئة: المصيبة كالرزء...ج أرزاء ورزايا" فالأول جمع الرزء ، والثاني جمع الرزيئة" (السابق ص ٢٠٥).

(د) معرفته بعدد من اللغات الأجنبية وبخاصة السامية:

يجب على اللغوي أن يعرف عددًا من اللغات الأجنبية لأنه يحتاج إليها في:
١- الحكم بتعريب كلمة أو عربيتها.
٢- الاستعانة بالأصل السامي في تفسير الكلمة أو ردها إلى أصلها.
٣- الوصول إلى جذر الكلمة بناء على الحكم بعربيتها أو عجميتها.
٤- نسبة الكلمات المعرّبة إلى لغاتها الأصلية.

والاقتباسات الآتية من نص كلام الشدياق تدل على ما ذكرنا:

- ذكر صاحب المصباح.. النرجس في رجس ، وقال إن النرجس معرب ونونه زائدة باتفاق . قال الشدياق: "والغرابة هنا.. أنه أقر أولا بأنه معرب ، ثم قال إن نونه زائدة ، وهو عندي تناقض محض ، لأن نونه في أصله أصلية لأنه معرب نركس كما في العباب ، فهل يقال إنه بعد التعريب صارت نونه زائدة؟ " (الجاسوس ص ٢٨).
- أورد الفيروزابادي الكروبيين مخففة الراء في "كرب" وفسرها بسادة الملائكة. قال الشدياق: "وهي لفظة عبرانية أصلها كروبيم ومفردها كروب فإن الياء والميم في هذه اللغة علامة الجمع . وقد ذكرت في التوراة غير مرة وترجمت إلى سائر اللغات بهذا اللفظ ، واشتقاقها من فعل يدل على القرب" (السابق ص ٢١١).
- أخطأ الفيروزابادي في كثير من محاولاته رد المعرّب إلى أصله وقال الشدياق: "كقوله في الترياق إنه من اليوناني.. مع أن القاف لا توجد في لغة اليونان ولا في غيرها" (السابق والصفحة).
- قال الشدياق: "النعت بالصفا (شمعون الصفا) لقب أحد الحواريين المشهور باسم بطرس . وكان يقال له أولا شمعون فشبهه عيسى عليه السلام بالصخرة وهي في اللغة اللاتينية واليونانية بتروس فعرّبها نصارى الشام بطرس ، واستعملوا مرادفها في العربية وهو صفا ، وهو في أصل اللغة جمع صفاة وهي الصخرة الملساء ، فليس هو مصدرًا لصفا يصفو كما توهمه المصنف" (السابق ص٣٩٨، ٣٩٩).
- قال الفيروزابادي إن اشتقاق الاسم "موسى" من الماء والشجر، فمو: الماء، وسا: الشجر. وقال صاحب الكليات: إنها من السريانية. وقال صاحب اللسان: هي بالعبرانية موشى، ومعناه الجذب، لأنه جذب من الماء. وعقب الشدياق على هذه الآراء قائلا :

١- لا دخل للسريانية هنا.

٢- الأحرى أنه من لسان القبط القديم فإن ابنة فرعون لم تكن يهودية حتى يكون اللفظ عبريًا.
٣- عبارة التوراة: ولما كبر الصبي جاءت به أُمه إلى ابنة فرعون فاتخذته ابنًا لها وسمته موسى ، قالت لأني انتشلته من الماء.
٤- اسم موسى في التوراة: موشى بغير إشباع ومعناه منشول.
٥- لفظ موسى لايدل على الماء وإنما تدل عليه قرينة الحال (السابق ص٣٩٩).

(هـ) تنبهه لاحتمالات التصحيف:

من أهم مواصفات المعجمي العربي يقظته الشديدة ، وحساسيته المرهفة وتنبهه لاحتمالات التصحيف أو التحريف حين يبدو أحد المعاني نافرًا عن القواعد الصوتية أو الاشتقاقية ، أو عن المعنى العام للمادة.

وقد سبق التمثيل لذلك أثناء الحديث عن منهجيته المعجمية ، ونضيف هنا تشبيهًا طريفا استعمله الشدياق وهو تشبيه من يروي الكلمات محرفة أو مصحفة "بتاجر يبيع الخرز على أنه ياقوت" (الجاسوس ص١٣١).

(و) غوصه على المعاني ودقته في ربط ما يبدو منها متنافرًا:

من أهم مواصفات المعجمي العربي كذلك قدرته على التجريد ، والربط بين المعاني الجزئية أو المتنافرة وقد سبق التمثيل للمعاني الجزئية أثناء الحديث عن منهجيته المعجمية.

أما ربط المعاني المتنافرة فيتمثل بوضوح في الكلمات ذات المعاني المتضادة. وقد أجاد الشدياق التمثيل لهذا النوع من الكلمات والتماس الأسباب التي أدت إلى وجوده، ومن ذلك تفسيره التضاد على أنه من باب حمل النقيض على النقيض، وقوله"والغالب في هذا الأسلوب أن يكون المعنى المنفور منه هو الأصل ، ثم تستعمله العرب بنقيض معناه جبرًا له عما فاته ، وهو على حد قولنا للأعمى بصير. والسبب

الثاني: اختلاف الرأي والنظر في موصوف ١٠. والسبب الثالث كون صيغة الفعل من أصله تحتمله كما في باع الشيء بمعنى باعه وبمعنى اشتراه فإن أصله من مد اليد. " (سر الليال ص ٣٣).

وتفسيره إطلاق الأبَد على الولد الذي أتت عليه سنة بأنه من قبيل التفاؤل بأنه يعيش أبدًا (السابق ص٣٤).

وتفسيره التضعيف بمعنى الزيادة على الشيء والنقص منه بأن"بناء الزيادة من الضِّعف بمعنى المثل ، وبناء النقص من الضَّعف الذي هو ضد القوة".(الجاسوس ص٢٩٨).

مراجع البحث

١-أحمد فارس الشدياق – د. محمد يوسف نجم – رسالة دكتوراة من الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٤٨.

٢-أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية – د. محمد أحمد خلف الله معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥.

٣-الجاسوس على القاموس – أحمد فارس الشدياق – القسطنطينية – طبع الجوائب ١٢٩٩ هـ.

٤-الخصائص – ابن جني - دار الهدى – بيروت – ط. ثانية.

٥-الساق على الساق فيما هو الفارياق – أحمد فارس الشدياق باريس ١٨٥٥ .

٦-سر الليال في القلب والإبدال – أحمد فارس الشدياق الآستانة ١٢٨٤ .

٧-علم الدلالة – د. أحمد مختار عمر - دار العروبة بالكويت – ١٩٨٢ .

٨-القاموس المحيط للفيروزابادي.

٩-كنز الرغائب في منتخبات الجوائب – مجموعة مقالات كتبها أحمد فارس الشدياق وجمعها ابنه سليم الآستانة سنة ١٢٨٨هـ وما بعدها.

ابن منظور اللغوي
العالم الحائر بين مصر وليبيا وتونس*

مـن أعلام اللغة والأدب الذين تفخر بهم الأمة العربية جمعاء ، وتعتز بانتسابهم إلـيها: عبد الله محمد بن المكرَّم أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم الملقب بجمال الدين والمشهور بابن منظور.

ولا تـرجع شُـهْرة ابـن مـنظور إلـى معجمـه الموسـوعي الضـخم "لسـان العرب" فحسـب، وإنمـا كذلـك إلى مئات الكتب والمجلدات التي تركها بخطه ، وبعضها تأليف، وبعضـها اختصـار. يقول الصفدي في "نكت الهميان": "لا أعرف في الأدب وغيره كتابًا مطـولا إلا وقـد اختصـره". ويقـول السـيوطي: "واختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة كالأغـاني والعقـد والذخيرة ومفردات ابن البيطار. ونقل أن مختصراته خمسمائة مجلد". ومن آثار ابن منظور المطبوعة – إلى جانب لسان العرب – مختار الأغاني ، وأخبار أبي نواس، وثمار الأزهار في الليل والنهار. أما المخطوطة فمنها: مختصر تاريخ دمشق، وتواريخ الشعراء، وتهذيب الخواص من درة الغواص، ومختصر مفردات ابن البيطار[١].

وقد ولد ابن منظور في شهر المحرم من عام ٦٣٠ هجرية[٢] (يوافق شهر نوفمبر من عام ١٢٣١ ميلادية)[٣]. وتوفى عام ٧١١هجرية (يوافق ١٣١١م) ، فيكون قد عاش نحوا من واحـد وثمـانين عامـا هجـريا. وقـد كان امتداد عمره ، إلى جانب نشأته في أسرة علمية عـريقة ، مـن أهم الأسباب التي مكنت ابن منظور من إنجاز هذه الأعمال الضخمة التي خلفهـا مـن ورائـه. يقـول الأسـتاذ أبـو القاسم كرو متحدثًا عن أسرة ابن منظور: "ابن منظور من أسرة علمية عريقة، اشتغل معظم أبنائها بالقضاء، وكان لهم في العلوم الدينية

---

* نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.

(١) انظر : ملتقى ابن منظور ص ٤٢-٤٦ .

(٢) الدرر الكامنة ٣١/٥ ونكت الهميان ص ٢٧٥ .

(٣) راجع The Muslim Christian Calendars

والأدبية مكانة محترمة". وقد ذكر من أفراد أسرته خمسة رجال تولى منهم أربعة منصب القضاء ، وتلقبوا جميعهم بألقاب أهل العلم والقضاء في تلك العهود ، فقد لقب والده بجلال الدين وأخوه بشرف الدين وجده بنجيب الدين ، وابنه بقطب الدين. ويحدثنا ابن منظور عن أحد مجالس والده فيقول: "كنت في أيام الوالد - رحمه الله - أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه . ورأينا الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي في جملتهم وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه"[١].

* * *

وقد ظل ابن منظور في جميع المراجع القديمة وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري يحمل نسبتين اثنتين فقط هما " المصري" و "الإفريقي". وقد وردت نسبة "الطرابلسي" أول ما وردت في كتاب يحمل اسم "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" لأحمد بك النائب الأنصاري ، ظهر جزؤه الأول عام ١٣١٧هـ= ١٨٩٩م ، فقد ترجم هذا المؤلف (وقد توفي عام ١٨٩٧م) لابن منظور ضمن علماء طرابلس وقال عنه "الطرابلسي نزيل مصر"[٢].

وتلقف بعض المعاصرين الليبيين هذه النسبة فأخذوا يلحون عليها ، ويحاولون إثباتها بشتى الطرق . وأشهر هؤلاء:

١- الأستاذ علي مصطفى المصراتي ، الذي قال في كتابه "أعلام من طرابلس[٣]": "ابن منظور صاحب لسان العرب طرابلسي نشأة وأصلا ، وفرعا ومتنا".

٢- الشيخ الطاهر الزاوي الذي قال في كتابه "أعلام ليبيا"[٤] ما خلاصته:

---

(١) ملتقى ابن منظور ص٢٩، ٣٠ .

(٢) ١٦٩/١ .

(٣) ص ٦٩ .

(٤) ص ٣٠١، ٣٠٢ .

أ- لم يذكر أحد ممن ترجموا له أنه طرابلسي إلا أحمد النائب المؤرخ الطرابلسي.

ب- لا نسيء الظن بغير النائب ، ولكنهم جهلوا ما علمه. فالنائب طرابلسي عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية ، وقد أدرك بعض أفراد أسرة ابن مكرَّم مما جعله يجزم بأن ابن مكرم طرابلسي.

جـ- ذكر أكثر من ترجموا له أنه تولى قضاء طرابلس ، ويبعد أن يكون ولد بمصر ثم جاء إلى طرابلس وتولى بها القضاء عدة سنين ثم رجع إلى مصر ومات بها.

د- أسرة ابن مكرم تنتمي إلى رويفع الأنصاري، ورويفع كان أمير طرابلس، ولاه معاوية إياها سنة ٤٦هـ .

هـ- أقرب الآراء إلى القبول أنه بعد أن تولى قضاء طرابلس واتسعت مداركه العلمية رأى أن إشباع رغبته العلمية لا يتسع له المحيط الطرابلسي فانتقل إلى مصر وتولى فيها رياسة ديوان الإنشاء ، وبقي بها حتى توفي.

و- يجب الرجوع إلى ما قاله النائب لأنه أمين فيما نقل وعالم فيما كتب ، وابن منظور لا يضيره أن يكون طرابلسيا، كما هي الحقيقة.

٣- الأستاذ علي الفقيه حسن الذي لم يترك فرصة إلا تحدث فيها عن ابن منظور بوصفه ليبيا ، وكتب عدة مقالات لمحاولة إثبات ذلك. وهو في حججه لا يخرج عما ذكره الأستاذ الزاوي ولكنه أضاف أن أسرة ابن مكرَّم كانت معروفة بطرابلس وانقرضت منذ قرن تقريبًا[1].

ورغم أنني لست ممن يحبون نسبة العلماء – وبخاصة في العصور الإسلامية الأولى – إلى إقليم بعينه ، لأنهم بعلمهم يتجاوزون الحواجز ، ويتخطون الحدود المصطنعة ، ورغم أنني أومن بأن من الصعب أن ينسب العالم العربي – فيما قبل العصور الحديثة- إلى بلد معين نظرًا لكثرة الأسفار فيما مضى وعدم الإقامة في مكان واحد وحب التنقل من بلد إلى بلد – أقول رغم هذا وذاك فإنني أرى ضروريًا الوقوف أمام دعوى

(١) انظر مثلا مجلة المجمع العربي بدمشق مجلد ٣٢-٣/٤٦٦ وما بعدها .

أحمد النائب ومن تبعه لمناقشتها ، لا تعصبا ، وإنما قصدا للتمحيص التاريخي، ومحاولة للوصول إلى الحقيقة ، خصوصًا وأن صلة ابن منظور بطرابلس الغرب – حتى على سبيل الإقامة الجزئية– مشكوك فيها ، بل يكاد ينفيها التمحيص التاريخي نفيًا باتًا.

١- وأول شيء لا مجال للشك فيه ما سبق أن ذكرناه من أن أحمد النائب هو أول من أطلق هذه النسبة: الطرابلسي ، وهو قد أطلقها دون أن يقدم أي إثبات أو دليل.

٢- قد يقال كما قال الزاوي "إن النائب طرابلسي ، عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية". ولكن قد يكون مفاجأة للقارئ إذا قلنا إن ترجمة النائب ليس فيها كلمة واحدة جديدة، وأنه لم يضف فيها حرفًا واحدًا على ما ذكره غير الطرابلسيين. وهو ينقل نقلا حرفيًا عن كتب التراجم السابقة مثل بغية الوعاة للسيوطي، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، ونكت الهميان في نكت العميان لخليل بن أيبك الصفدي.

وقد أحس الأستاذ علي مصطفى المصراتي نفسه بعدم قيمة هذه الترجمة ، فقال في مقدمة تحقيقه لكتاب "نفحات النسرين" لأحمد النائب ما نصه: "اكتفي بمجرد الترجمة العادية ، تلك الترجمة المتداولة والتي لاكها السيوطي وغيره"[١]. واعترف بأن أحمد النائب لم يقدم دليلا على دعواه ، واتخذ من عدم إشارة ابن غلبون[٢] إلى ابن منظور دليلا على تثبت ابن غلبون أكثر من النائب[٣]. فأين إذن ثمرة علم النائب بالأسر الطرابلسية؟

---

(١) نفحات النسرين ص ٤٧ .

(٢) في كتابه المسمى: التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار. وقد كان ابن غلبون أقدم من أحمد النائب إذ عاش الأول في القرن ١٢هـ . في حين عاش الثاني في القرنين ١٣، ١٤ هـ .

(٣) نفحات النسرين ص ٤٦، ٤٧ .

٣- أما كون ابن منظور ينتمي إلى رويفع بن ثابت الأنصاري.. ورويفع كان أمير طرابلس من قبل معاوية.. فليس فيها ما يدل على طرابلسية ابن منظور. فرويفع كان من قبل يسكن مصر ، واختط بها دارا[١]. وبين رويفع وابن منظور ما يزيد على ستمائة وخمسين سنة ، وهي فترة يكفي عشر معشارها إلى انتقال أسرة من بلد إلى بلد.

٤- وأما ما يقال عن دفن جده الأعلى رويفع في برقة ، فليس يعني — لو صح تاريخيًا — أي شيء على الإطلاق . فما بالك إذا كان الخبر مشكوكًا فيه . وقد شك فيه ابن منظور نفسه حين قال بمادة "جرب" من لسان العرب ما نصه : " فيقال مات بالشام، ويقال مات ببرقة ، وقبره بها".

ويزيدنا شكا قول العياشي[٢]عن برقة: "بها قبر مشهور يزار. ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبي. والغالب أنه قبر صحابي. ولعله رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري النّجاري من الصحابة ، أو زهير بن قيس البلوي ، وكلاهما صحابي..". فصاحب المقام ليس معروفًا على وجه التأكيد.

٥- من الثابت تاريخيًا أن ابن منظور قد ولد بمصر[٣]وأنه نشأ وترعرع بها ، وقد حدثنا هو نفسه عن مجالس أبيه بمصر التي كان يحضرها العلماء والأدباء. ومن الثابت كذلك أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر مدة طويلة عبر عنها المؤرخون بقولهم " طول عمره"[٤]، وأنه حدث بمصر ودمشق ، وأنه توفي — أخيرًا — بالقاهرة[٥].

---

(١) لسان العرب — مادة جرب.

(٢) الرحلة العياشية طبع فاس ١٣١٦ . مقتبسة في "ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات" ص ٢١٩.

(٣) تاج العروس للزبيدي — مادة كرم .

(٤) الدرر الكامنة ٣٢/٥ .

(٥) شذرات الذهب ٢٦/٦، ٢٧ والسلوك للمقريزي جـ ٢ قسم ١ ص١١٤ .

٦-كذلك فإن والده – على ما ذكر الأستاذ أبو القاسم محمد كرو – من مواليد القاهرة أما جده الأدنى فمن مواليد إفريقية ، ومن ناحية باجة[١]بالذات[٢]. ومن المؤكد أن المجالس التي حدثنا ابن منظور عنها وكان يحضرها التيفاشي -- كانت تعقد بالقاهرة. فمن المعروف أن التيفاشي مع أنه قد ولد بقفصة قام بزيارة مصر عدة مرات وأنه استقر بها نهائيًا منذ عام ٦٣٠هجرية[٣]، وهو العام الذي ولد فيه ابن منظور وقد توفي التيفاشي بالقاهرة عام ٦٥١هـ.

٧- أما ما يقال من وجود أسرة بطرابلس تحمل اسم ابن مكرم وانقراضها منذ قرن تقريبًا ، فليس هناك من دليل على أن هذه الأسرة من نسل ابن منظور. فهناك كثيرون حملوا لقب "المكرَّم"، فهو لقب اشتهر في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا. كما أنه لم يشتهر من نسل ابن منظور سوى ابنه الملقب بقطب الدين الذي ولد بمصر عام ٦٧٠، وكان كأبيه أحد كتاب ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم جاور في مكة مدة طويلة وانتقل إلى بيت المقدس حيث توفي ودفن بها.[٤]

٨- وبقي بعد هذا ما تردده بعض المراجع التاريخية من أنه" ولي قضاء طرابلس[٥]" أو أنه "ولي نظر طرابلس"[٦]. فكم من عمره قضاه – لو صح – بطرابلس؟ ومتى حدث ذلك؟ وأي طرابلس؟ لم تتفق المراجع أولا على ذهابه إلى طرابلس . وعلى فرض ثبوته لم تحدد زمنه ولا مقداره ، وإن كان من المعقول أن يكون لفترة وجيزة تتناسب

---

(١) في معجم البلدان: باجة في خمسة مواضع منها بلد بإفريقية بينها وبين تونس يومان. وهي المقصودة هنا. وكلمة "إفريقية" في هذا النص تعني البلاد التونسية، كما كانت تعرف في القديم.

(٢)انظر ملتقى ابن منظور – مقدمة الأستاذ كرو ص ٥، ٦ .

(٣) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية لحسن حسني عبد الوهاب –القسم الثاني ص ٤٥٠.

(٤) السلوك جـ ٢ قسم ٣ من ص ٨٥٦ ونكت الهميان ص ٢٧٦ وملتقى ابن منظور ص ٣٥.

(٥) الدرر الكامنة ٥/٣٢ .

(٦) نكت الهميان ص ٢٧٥ .

مـع قولهم إنه تولى ديوان الإنشاء بمصر طول عمره . فلنسلم إذن أنه تولى قضاء طرابلس فـترة مـا مـن الـزمن ، ولكـن يظل سؤالنا قائمًا : أي طرابلس؟ طرابلس الشام أم طرابلس الغـرب؟ إن الخلـط بين البلدين وعلمائهما معروف لمن اشتغل بالتراجم والتاريخ . ويكفي أن أشـير إلـى الشـاعر الطرابلسـي المشهور باسم ابن خراسان (اسمه أحمد بن الحسين بن حيدرة) صاحب الأبيات الجميلة التي منها :

أحبـابـنـا غيـر زهد في محبتـكـم كـوني بمـصر وأنـتـم في طرابلـس
إن زرتـكم فالمنايـا في زيـارتـكـم وإن هجرتـكم فالـهجـر مفترسـي
ولـست أرجو نجاحا في زيارتكـم إلا إذا خـاض بحرا من دم فرسـي

فمعظـم المـراجع تنسـبه إلى طرابلس الشام ونسبه ياقوت في "معجم البلدان" إلى طرابلس الغرب.

وإذن فالمسـألة في حاجـة إلى ترو وتمحيص . وقد هدانا البحث والتنقيب إلى أن "طـرابلس" هـذه لا يمكـن أن تكـون طـرابلس الغـرب ، ولابـد أن تكـون طرابلس الشام للأسباب الآتية:

أ- أن ابـن مـنظور كـان شـافعي المذهـب كمـا نـص علـى ذلك المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك[1]، وقد وصفه بقوله "وكان من أعيان الفقهاء الشافعية" فكيف يتولى القضاء في بلد يدين بالمذهب المالكي أو الحنفي، ولا يعرف المذهب الشافعي، بل لا يـنظر إليه نظرة تقدير. يقول المقدسي: "بسائر المغرب – ما عدا الأندلس – إلى مصر لا يعـرفون مذهـب الشـافعي رحمـه اللـه ، إنمـا هـو أبو حنيفة ومالك . وكنت يوما أذاكر بعضـهم في مسـألة فذكـرت قـول الشافعي ، فقال : اسكت !! من هو الشافعي؟ إنما كانا بحـرين: أبـو حـنيفة لأهـل المشـرق ، ومالك لأهل المغرب ، أفتتركهما وتشتغل بالساقية؟ ورأيـت أصـحاب مـالك يبغضون الشافعي ، قالوا أخذ العلم عن مالك ثم خالفه . وما

(١) ج ٢ قسم ١ ص ١١٤ . وقد لفتني إلى هذا المرجع أبو القاسم كرو ص ٥٥ .

رأيت فريقين أحسن اتفاقًا وأقل تعصبًا منهم . وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا: إنه كان الحاكم سنة حنفيا وسنة مالكيا..."[١].

أما المذهب الشافعي ، فمن المعروف أن مصر والشام كانا من أهم مراكزه . وفي هذا يقول السبكي "هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية منذ ظهر المذهب الشافعي. اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم"[٢].

ب- لم يكن إقليم طرابلس (الغرب) من الناحية الإدارية تابعًا لمصر ، على خلاف إقليم برقة. وفي فترة حياة ابن منظور كانت طرابلس الغرب تحت حكم الحفصيين (من عام ٦٢٥- ٧٢٤هـ) الذين كانوا يتولون الحكم من قبل أمير تونس[٣].

أما صلة طرابلس الشام بمصر فمعروفة ثابتة . وقد ثبت أن ابن منظور رحل إلى دمشق رفقة السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ و ٦٨٣هـ وعاد معه إلى مصر[٤]. كما ثبت أن ابن منظور قد حدث بدمشق[٥]. فمن المعقول إذن أن يكون توليه القضاء بطرابلس الشام. ومن المعروف تاريخيًا أن السلطان قلاوون استرد مدينة طرابلس الشام من الصليبيين عام ٦٨٨هـ ، فيكون احتمال تولي ابن منظور قضاءها قد وقع في هذه السنة أو بعدها[٦].

جـ- لو كان ابن منظور قد ولي قضاء طرابلس الغرب ، لما غفل عن ذكر ذلك الرحالة الذين زاروا طرابلس في خلال تلك الفترة ، ومن بينهم ابن رشيد السبتي (قام بها

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٣٧ .

(٢) الشافعي لمحمد أبو زهرة ص ٣٧١ .

(٣) ولاة طرابلس للطاهر الزاوي ص ١١٣ وما بعدها .

(٤) ملتقى ابن منظور ص ٥٥ نقلا عن تاريخ ابن الفرات .

(٥) شذرات الذهب ٢٦/٦ .

(٦) ملتقى ابن منظور ص ٥٥ .

سنة ٦٨٥هـ) والتجاني (قام بها بين عامي ٧٠٦، ٧٠٨)[١].

* * *

فإذا كانت نسبة ابن منظور إلى طرابلس (الغرب) محفوفة بالشك إلى هذا القدر بل يكـاد يُقطـع بانتفائها ألبتة فهل يبقى لمنصف من مسوغ للتمسك بانتمائه إلى ليبيا؟ وهل غـنى مصـر بالشخصـيات العلمـية والأدبـية وفقـر ليبـيا — علـى حد تعبير أحد الأدباء الليبيين— يكفي مبررا لسلخ ابن منظور من وطنه الأم وحمله على بلد لم يعش فيه ولم يتربّ بـين ربوعـه؟. وكأنمـا أحـس الأستاذ علي المصراتي بهذه المعاني فعبر عنها بشكه في كلام أحمـد النائـب — الـذي تولـى كـبْر هذه القضية من أولها إلى آخرها — فقال "المؤلف يذكر أن ابن منظور من طرابلس الغرب، وكان بودنا لو ساق دليلا يؤكد به أن هذا العالم اللغوي طرابلسي"[٢]، وبتصويره صنيع أحمد النائب في صورة "من يشد بقوة بتلابيب ابن منظور"[٣].

وبعد:

فمـن الغريـب حقًـا أن تخلّـد ليبيا اسم "ابن منظور" — وهو ليس لها إلا بمجرد الشبهة — فتطلق اسمه على معهد المعلمين بها الموجود بطرابلس ، وتحيي أثره لبنان فتسمي إحـدى دور النشـر بها نفسها باسم أشهر مؤلفات ابن منظور "لسان العرب"، وأن تحتفل تونـس كذلك بابن منظور ، وتعقد اللقاءات والندوات لتخليد ذكراه[٤] — وهو لا ينتسب لهـا إلا عـن طريق جده — ثم تفرّط مصر — أوْلى البلاد العربية به — فلا تعبأ لذكراه ،

---

(١) انظر ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص ١١٧ ورحلة التيجاني وملتقى ابن منظور .

(٢) مقدمة نفحات النسرين ص ٤٦.

(٣) مقدمة نفحات النسرين ص ٤٦.

(٤)من ذلك الملتقى الأول – ملتقى ابن منظور الإفريقي من ٩ إلى ١٩٧١/٤/١١ وكذلك تشكيل جمعـــية شباب ابن منظور القفصي ، ظنًا أن ابن منظور من أبناء قفصة . وقد طبع ما ألقي في ملتقى ابن منظور الأول بتونس عام ١٩٧٢ – دار المغرب العربي .

ولا تقيم المهرجانات للاحتفاء به والتنويه باسمه . ومن أحق منه بالتخليد؟ وأولى بالتكريم؟ ومن المفارقات أن يحمل والد ابن منظور لقب "المكرّم" ثم يغفل بلده عن تكريمه في شخص ابنه رائد التأليف الموسوعي في المعاجم العربية.

وتظل – بعد هذا – نسبتا ابن منظور المصري والإفريقي باقيتين، أما أولاهما فتدل على مكان مولده ونشأته وعمله ووفاته ، وأما الثانية فتشير إلى ارتباط بعض أجداده بتونس أو إفريقية ، كما كانت تسمى في ذلك الوقت.

الانتصار لسيبويه منَ المبَرد

لابن ولاد*

ت٣٣٢هـ - ٩٤٣ م

١-ابن ولّاد[1]

هـو أبـو العـباس أحمد بن محمد بن ولاد ، الذي ولد بمصر ، وعاش شطرًا كبيرًا مـن حـياته في القـرن الـرابع الهجـري، وهـو قـرن النهضـة العلمية في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد نشأ ابن ولاد في بيت علم ، فأبوه وجده كلاهما من علماء اللغة الأعلام، وكلاهما درس في غير مصر ، وقرأ أمهات كتب اللغة والنحو على المتخصصين ، وله أخ اشـتغل كذلـك بالـنحو ولـه ترجمة في كتب الطبقات[2]. وقد تتلمذ ابن ولاد الحفيد على عدد من الأساتذة المتخصصين من مصريين وأجانب ، وعلى رأسـهم والده [3]، وأبو جعفر

---

* نشر في مجلة كلية المعلمين- الجامعة الليبية١٩٧٠.

(١) انظر ترجمته في الزبيدي ٢٣٨ وما بعدها ، والقفطي ٩٩/١ وما بعدها و٢٢٤/٣ وما بعدها، والبغية ١٦٩ ، وشذرات الذهب ٣٣٢/٢ .

(٢) اسـمه أبـو القاسم عبد الله بن محمد بن الوليد، وقد اشتهر بعد وفاة أخيه، وكان في حوزته نسخة موثقة من كتاب سيبويه جلس لتدريسها . ومن تلاميذه الزبيدي المؤلف الأندلسي المشهور .

(٣) هـو أبـو الحسين محمد بن الوليد، ولد عام ٢٩٨هـ. درس في بغداد وترك كتابا في النحو سماه "المنمَّق" .

أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة[١]، وأبو إسحاق الزجاج ، وأبو جعفر أحمد بن رستم الطبري[٢]. وحين لمع اسمه وجلس للتدريس قصده التلاميذ من كل مكان ، وكان من أشهرهم أبو الحسين علي بن أحمد المهلبي[٣]، والقاضي منذر بن سعيد الأندلسي[٤]، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي[٥]، وأبو عبد الله محمد بن الحسين اليمني[٦].

ولم يكن ابن ولاد مكثرًا في تأليفه ، كما لم يكن متنوع الثقافة . وكل ما عرف له من مؤلفات أربعة كتب -- بالإضافة إلى كتابنا هذا - "المقصور والممدود"[٧]، "وكتاب النقائض"، وكتاب رابع مات بعد أن شرع في تأليفه وهو "معاني القرآن".

٢-نقد المبرد لسيبويه

أشار المؤرخون وكتاب التراجم إلى عديد من الكتب التي اتخذت كتاب سيبويه محورًا لها وتناولته أو تناولت بعض مسائله بالشرح والتحليل. ولكن هناك كتابًا فريدًا من بينها له طابع خاص ، وهو واحد من خمسة كتب ألفها المبرد حول كتاب سيبويه . هذا

---

(١) ولد في بغداد ودرس كتب والده ووفد إلى مصر عام ٣٢١هـ حيث جلس لتدريس كتب والده بالإضافة إلى كتاب سيبويه .

(٢) من كبار القراء والنحويين في بغداد. له من المؤلفات "غريب القرآن" و "المقصور والممدود" و "كتاب النحو" .

(٣) توفى عام ٣٨٥هـ، وله تعليقات على كتاب "المقصور والممدود" لابن ولاد. ولد عام ٢٦٥ هـ وتوفي عام ٣٥٥هـ. وقد كانت له أسفار في طلب العلم .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٣/١٩ والقفطي ١٠٣/١ والزبيدي ٢٤٠ ونفح الطيب ٣٣٧/١ .

(٥) توفي عام ٣٥٨ هـ وإليه يرجع الفضل في انتقال أمهات الكتب المصرية إلى الأندلس .

(٦) توفى عام ٤٠٠هـ وكان ضمن أساتذة "دار العلم" التي أسسها الفاطميون في مصر، وكتب عدة مؤلفات .

(٧) وصلنا هذا الكتاب وقد طبع مرتين حتى الآن .

الكتاب وصلنا اسمه واقتباسات كثيرة منه في كتب متأخرة ولم يصلنا نصه ، وقد خصصه المبرد لنقد سيبويه والاعتراض عليه. وقد ذكر ابن جني أن المبرد سماه "مسائل الغلط"[١]، وذكر ياقوت أنه سماه "كتاب الرد على سيبويه"[٢].

وقد كان لصدور كتاب المبرد هذا رد فعل قوي لدى النحاة ، إذ استكثروا جميعًا هذا الهجوم وانبرى بعضهم للدفاع عن سيبويه والانتصار له . ولا نجد أثرًا لأي كتاب ألف للانتصار للمبرد وأخذ جانبه . وقد كان من بين من دافعوا عن سيبويه وانتصفوا له من المبرد تلامذة مخلصون للأخير مثل أبي إسحاق الزجاج الذي دافع عن سيبويه في كتابه "شرح أبيات سيبويه" كما يتضح من الاقتباسات العديدة التي نقلها البغدادي في "خزانة الأدب" عن هذا الكتاب[٣]. وممن دافعوا عن سيبويه أيضًا أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) في كتابه " شرح كتاب سيبويه" كما يتضح من الاقتباسات التي أخذها البغدادي كذلك من هذا الكتاب[٤].

وقد كان مثار دهشة وعجب أن يأتي أقسى هجوم على سيبويه من المبرد رأس المدرسة البصرية في عهده، وأن يتعرض المبرد لسيبويه بالهجوم ويتعقب زلاته ويؤلف كتابًا في مخالفته والرد عليه ، في حين أن شهرته جاءت من دراسته لسيبويه وتدريسه لكتابه، بالإضافة إلى ما كان يتقاضاه من مبالغ طائلة في مقابل شرح كتابه وتصحيح النسخ عليه. ومن أجل هذا حاول بعضهم أن يبرئ المبرد من تهمة التعرض لسيبويه وادعوا بطلان نسبة هذا الكتاب إليه ومنهم من ادعى أن ما اعترض به المبرد على سيبويه حدث أيام الشباب وأنه عاد فرجع عنه[٥] وكلتا الدعويين في رأينا باطلة . أما الأولى فلأن الإشارة إلى عمل المبرد ورد عن طريق تلامذته الذين كانوا يلازمونه ويعرفون كل صغيرة وكبيرة عنه،

---

(١) الخصائص (ط الهلال) ٢/٢١٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٩/١٠٦ .

(٣) انظر ١/٤٥١ و ٢/١٣٠، ٤٣٥ و ٣/٦٢٩ و ٤/٤٣٦ (بولاق ط أولى) .

(٤) انظر ٢/١٩٣، ١٩٤، ٤٣٠-٤٣٢، ٤٣٥و ٤/٤٣٥، ٤٣٦ .

(٥) انظر الخصائص (ط الهلال) ١/٢١٣، والمزهر (ط أولى تحقيق جاد المولى ٢/٣٧٢) .

والذين كانت لديهم الفرصة للتحقق إذا وجد أدنى شك في صحة نسبة هذا الكتاب إليه. وأما الدعوى الأخرى فلم تصح إلا في مسائل قليلة معدودة ، ربما لا تتجاوز مسألة أو مسألتين رجع المبرد عن رأيه فيها وأخذ برأي سيبويه[١].

٣-كتاب الانتصار

نسخه:

توجد من هذا الكتاب نسخة وحيدة مخطوطة تحفظها دار الكتب المصرية برقم ٦٠٥ نحو تيمور . وهناك ملخص لهذا الكتاب مدون على هامش نسخة الزيتونة من كتاب سيبويه . وهذا الملخص مكتوب بخط عالم من علماء العربية هو ابن الحاج الأزدي الإشبيلي ناسخ الكتاب . ويبدو أن ابن الحاج لم يكتف بتلخيص مسائل الخلاف وإنما أسقط بعضها، لأن عدد المسائل في مخطوطة القاهرة ١٣٤ مسألة وفي مخطوطة الزيتونة ١١٥ مسألة فقط.

الهدف من تأليفه:

يتضح من عنوان الكتاب سواء كان "الانتصار لسيبويه من المبرد" كما سماه بعضهم ، أو "نقض ابن ولاد على المبرد في رده على سيبويه" كما سماه بعض آخر — ومن مقدمته أن الهدف من تأليفه الدفاع عن سيبويه في المسائل التي ثار الخلاف فيها بينه وبين المبرد، وليس الهدف التوسط بينهما وأخذ جانب الحياد منهما . وفي ذلك يقول ابن ولاد في مقدمة كتابه "هذا كتاب ألفناه لنذكر فيه المسائل التي زعم أبو العباس المبرد أن سيبويه غلط فيها ونبينها ونرد الشبه التي لحقت فيها". ويؤدي تصنيف مسائل الكتاب إلى نفس النتيجة، إذ أننا نجد ابن ولاد يأخذ جانب سيبويه في ١٣١ مسألة من جملة المسائل البالغ عددها ١٣٤ . أما الثلاثة الباقية فقد اتخذ في واحدة منها جانب المبرد، وفي واحدة جانب الحياد، وأما الثالثة فكان النقد فيها موجهًا — في الحقيقة — إلى الأخفش لا إلى سيبويه.

---

(١) انظر الانتصار لابن ولاد ص ٩٩ ، ١٨٢ .

وصفه:

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة – لم تتجاوز الصفحة الواحدة – تحدثت عن موضوعه، وهو مناقشة مسائل الخلاف بين المبرد وسيبويه ، وأشارت إلى اتخاذ جانب الحياد في الخصومة واختيار رأي المبرد إن بدا أنه الصواب[1]، كما دافعت عن مسلك المؤلف نحو المبرد وبررت هجومه عليه إذ قالت : " ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ردنا على أبي العباس المبرد . وليس ردنا عليه بأشنع من رده على سيبويه ، فإنه رد عليه برأي نفسه ورأي من دون سيبويه". وبعد ذلك انتقل المؤلف إلى مسائل الخلاف فذكرها مسألة مسألة بادئًا باقتباس رأي سيبويه على النحو الذي رواه المبرد ومثنيًا بنقد المبرد ثم منتهيًا برأيه هو.

هل تناول ابن ولاد جميع مسائل الخلاف؟

يبدو من النظرة الأولى أن الإجابة ستكون "نعم" ما دام ابن ولاد لم يناصر سيبويه في كل المسائل . ولكن يعكر على هذه الإجابة ما ثبت لديّ من أن هناك مسائل كثيرة لم يتعرض لها ابن ولاد ، ومن تلك المسائل ما رواه البغدادي في "خزانة الأدب" من مسائل الخلاف بين المبرد وسيبويه دون أن يكون له وجود في كتاب ابن ولاد هذا . ومن تلك المسائل:

الخلاف بينهما حول كلمة "بِشْر" في قول الشاعر:

أنا ابن التارك البكريّ بشر

هل هي منصوبة أو مجرورة .

٢، ٣- الخلاف بينهما حول محل الضمير بعد "لولا" و "عسى" في الأبيات:

---

(١) يبدو أن ابن ولاد لم يكن صادقا في هذه الدعوى ، وأنه رمى من ورائها إلى عدم مجابهة القارئ منذ اللحظة الأولى بهجومه على المبرد .

وكم موطنٍ لولاي طحتَ كما هوى
بأجرامـــه من قُلة النيق منهـــوي
ولي نفـــس أقـــول لها إذا ما
تنـازعـــني لعـــلي أو عســاني

ومما هـو جديـر بالملاحظة أن هذه المسائل الثلاث قد أجاد أبو جعفر النحاس شرحها من وجهة نظر سيبويه ، وأن المسألتين الأخيرتين قد دافع الزجاج عن رأي سيبويه فيهما[1]، والزجاج – كما سبق أن ذكرنا – من أساتذة ابن ولاد .

وتـثير هذه الحقيقة سؤالاً هو : لماذا إذن أسقط ابن ولاد هذه المسائل وغيرها من كـتابه مـع أن وجهـة نظر سـيبويه فيها قوية؟ يبدو أن السبب يتمثل في أن المبرد كتب "الـرد على سيبويه" في حياته المبكرة ، ثم اكتشف مسائل أخرى فيما بعد فضمنها كتبًا أخـرى له ، ومن ذلك ما حواه كتاب الكامل من تخطئات لسيبويه رغم قلة مسائل النحو فـيه . وحينما فكر ابن ولاّد في تأليف كتابه رأى أن يقصر نفسه على المسائل التي وردت في كـتاب "الـرد على سيبويه"، فتناولها بالمناقشة مسألة مسألة . وعلى هذا فإن المسائل الأخرى التي نجدها في "خزانة الأدب" ليست واردة في كتاب المبرد، "الرد على سيبويه"، وإنما في كتب أخرى له ، وهي مسائل لم يهتم ابن ولاد بتتبعها وحصرها والرد عليها.

كيف انتصر ابن ولاد لسيبويه؟

بـذل ابـن ولاد أقصـى ما في وسعه لنصرة سيبويه والدفاع عنه . وقد وفق في ذلك إلـى حـد كبير ونجح في إقناع القارئ بأن يتعاطف معه . وقد استعان ابن ولاّد من ناحية باسـتقراء الأسـاليب العربـية وتتبع المـادة اللغويـة المسجلة – وما أغزر معلوماته في هذا الخصـوص – ومن ناحية أخرى استخدم طاقته في التعليل والربط والفلسفة مستعملاً المنهج العقلـي المـنطقي الذي كان المبرد يجيد استخدامه . ومن مجموع هذين المنهجين بنى دفاعه

---

(١) انظر خزانة الأدب ١٩٣/٢، ١٩٤، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٥ .

عن سيبويه . وبشيء من التفصيل يمكننا أن نقسم وسائل ابن ولاد في الدفاع عن سيبويه إلى ما يأتي:

١- الرجوع إلى المادة اللغوية المسجلة عن الثقات بدون اعتبار للقياس النظري. وعلى هذا الأساس انضم ابن ولاد إلى سيبويه في منعه أن يقال "السقي لك" و "الرعي لك" بدلاً من "سقيا لك" و "رعيا لك" مخالفًا المبرد في إجازته ذلك اعتمادًا على أنه لا فرق في القياس بينهما وبين "الحمد لله" و "العجب لزيد". وقد بنى ابن ولاد رأيه على أساس أن العرب لم تتكلم بهاتين العبارتين مع الألف واللام وأن سيبويه لم يمنع من طريق القياس وإنما من قبيل السماع ، وأنه لا يصح النظر إلى القياس وترك ما تتكلم به العرب، لأن العرب يمتنعون عن التكلم بالشيء ، وإن كان القياس يوجبه ويتكلمون بالشيء وإن كان القياس يمنعه.

وفي مسألة أخرى انضم ابن ولاد إلى سيبويه في إجازته أن يقال "قال فلانة"، لأن هذا التعبير قد نقل عن العرب الفصحاء.

٢- من المعروف أن المبرد بنى كثيرًا من اعتراضاته على أسس نظرية بحتة . ومن أجل هذا كان لا بد لابن ولاد أن يستعمل نفس السلاح في معرض الرد ، وأن يقرع الحجة بحجة مماثلة . ولتوضيح هذه الاتجاه نقتبس ما قاله ابن ولاد انتصارًا لسيبويه في إجازته أن يقول "زيدٌ ضربْتُ". قال ابن ولاد – بعد احتجاجه بروايات لبعض أهل البصرة والكوفة – "وأما طريق المقايسة فإنه أجاز العرب أن تنصب المفعول إذا تقدم وقد شُغل الفعل عنه بالهاء ، كقولهم زيدًا ضربته . فعديل هذا في الحاشية الأخرى أن تجيز زيدٌ ضربت فترفعه ولم يشغل الفعل عنه بالهاء في اللفظ كما نصبته وقد شغلت الفعل بالهاء لأنهما حاشيتان متحاذيتان في الجواز وإن كانت أخراهما أكثر في كلام العرب من الأولى".

واستعمل ابن ولاد سلاح المنطق مرة أخرى في رده على المبرد الذي رفض قول سيبويه "لا تستغني هذه الحروف التي للمعاني عن الاسم والفعل ، ويستغنيان عنها". قال ابن ولاد منتصرًا لسيبويه: "إن سيبويه أتى بحكمين فلم يقابل المبرد واحدًا منهما بنقض وذلك أنه قال: الحروف التي للمعاني لا تستغني عن الاسم والفعل ولا بد لها من أحدهما، وسبيل التناقض لهذا القول أن يطرح حرف النفي ويجعله موجبًا فيقول إنه قد

يستغني عن الاسم والفعل في حال. ولن يجد ذلك لأن الحرف لا يوجد في كلام العرب إلا متشبثًا باسم أو فعل . والحكم الآخر أن الاسم والفعل قد يستغنيان ، فكان نقض هذا بالنفي هو أن يقول: لا يستغنيان في حال ، وقد استغنيا في مثل قولنا قام زيد"(١) .

٣- وفي بعض الحالات لم يكن المبرد دقيقًا في اقتباس سيبويه ، وبالتالي لم يكن على صواب في الحكم الذي بناه على هذا الاقتباس المحرف . وقد كان ابن ولاد على وعي بهذه الحالات ، وكان رده يتلخص في تصحيح النص وتحرير عبارة سيبويه . ومن أمثلة ذلك المسألة رقم ١٢٤ وخلاصتها أن المبرد نقل عن سيبويه أنه قال: "يكون على مُفْعَل في الأسماء نحو مصحف ومخدع وموسى ولم يكثر في كلامهم ولا نعلمه صفة". ثم اعترض المبرد على سيبويه قائلاً "هذا المثال من أكثر ما جاءت عليه الصفات... وأحسب هذا في الكتاب غلطًا عليه بل لا أشك في ذلك". ثم جاء رد ابن ولاد مقررًا ما يأتي:

أ- هذا غلط من المبرد على الكتاب وليس على سيبويه ، لأنه اعترف بأنه ليس من كلام سيبويه وإنما غلط عليه في كتابه.

ب- نظرنا في عدة نسخ من الكتاب فوجدنا الكلام صحيحًا مستقيمًا على غير ما حكى المبرد. وليس المبرد عندنا ممن يكذب ، ولكن موضع ظننا أنه تجاوزه نظره لأن هذا الكلام الذي ذكره يتلوه بسطر في مثال مخالف لذلك المثال .

جـ- نص سيبويه "ويكون على مُفْعَل نحو مصحف ومخدع وموسى ولم يكثر هذا في كلامهم اسمًا وهو في الوصف كثير . والصفة قولهم مكرم ومدخل ومعطى. ويكون على مُفْعُل نحو منخل ومسعط ومدق ومنصل ولا نعلمه صفة"(٢). فوزن مُفْعُل هو الذي عند سيبويه أنه لا يعمله صفة.

٤- وأحيانًا كانت تخطئة المبرد لسيبويه ترجع إلى سوء فهمه لعبارة سيبويه ، فكان عمل ابن ولاد يتلخص حينئذ في شرح عبارة سيبويه وبيان المراد منها. ومن أمثلة ذلك المسألة الثانية عشرة ، ونحن ننقلها باختصار هنا:

---

(١) الانتصار ص ٣١٠ .

(٢) المرجع ص ٣١٦-٣١٨ .

سيبويه: الرفع بعد "إذا" و "حيث" جائز في مثل "حيث زيد لقيته فأكرمه" و"إذا زيد تلقاه فأكرمه".

المبرد: أما "إذا" هذه فابتداء الاسم بعدها محال لأنك لا تقول: "اجلس إذا عبد الله جالس". وقد نقض هذا قوله : إذا كانت ظروف الزمان في معنى"إذا" فلا تضفها إلا إلى الفعل . وقد أجاز في غير هذا الباب الرفع في البيت: لا تجزعي إنْ منفس أهلكته... ولا يجوز الرفع على ما ذكر لأنه يرفعه بالابتداء والقول فيه متى رفع أن يكون على إضمار "هلك".

ابن ولاد: هذا لا يجوز بهذا اللفظ ولا هو الذي أجازه سيبويه ، وإنما يجيز مثل قولك: اجلس إذا عبد الله جلس ، فتكون الجملة بعد "إذا" مبنية من اسم وفعل إلا أن تقديم الاسم على الفعل يقبح من جهة الترتيب . وبهذا يكون سيبويه لم يضف "إذا" إلا إلى الفعل فلا تناقض . ومعنى إضافة إذا نلفعل إضافتها للجملة الفعلية . فهو إذا قدم الاسم أو أخره إنما يضيف إلى تلك الجملة بعينها ، لأنه لا فرق بين قولنا"زيد قام" و"قام زيد" في المعنى[1].

٥- وأخيرًا فقد رفض ابن ولاد في كتابه أن يضع أي نحوي في مركز أقوى من مركز سيبويه ، وبالتالي رفض أن يحتج على سيبويه برأي قاله نحوي آخر . ومثال ذلك ما ذكره المبرد من أن سيبويه منع تصغير كلمة "اللائي"، ثم رده ذلك بإجازة الأخفش لهذا التصغير قياسًا . وقد كان رد ابن ولاد يتلخص في أن ما حكاه الأخفش إنما أجازه قياسًا لا سماعًا . وقياس مثل هذه الأمور سهل على سيبويه وعلى من هو دونه[2]. وفي مسألة أخرى رفض ابن ولاد أن يعتبر ما سماه المبرد (إجماعًا) بدون وجود سيبويه ، ذاكرًا أن

---

(١) الانتصار ص ٣٤-٣٧ .

(٢) المرجع ص ٢٧٧-٢٧٩.

الإجماع لا يتحقق إلا بوجود سيبويه[١].

قيمته:

لهذا الكتاب قيمة خاصة تتلخص فيما يأتي:

١- أنه أول كتاب يخصص للدفاع عن سيبويه ضد هجمات المبرد، وربما كان الكتاب الوحيد الذي يخصص لهذا الغرض ، إذا استثنينا ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن هناك نحويًا اسمه عبيد الله بن محمد ابن أبي بردة القصري قد ألف كتابًا بعنوان "الانتصار لسيبويه على أبي العباس المبرد في كتاب الغلط"[٢]. ولكن ياقوتًا لم يلق أي ضوء على هذا المؤلف المجهول ولا على كتابه.

٢- أصالة المؤلف في هذا الكتاب وظهور شخصيته . وعلى الرغم من أن أستاذه الزجاج قد سبقه في مهمة الدفاع عن سيبويه إلا أنه يبدو أن ابن ولاد لم يستفد كثيراً من هذا الدفاع . ودليلنا على هذا أمران: أولهما ما ذكره القفطي من أن الزجاج كان يضع ثقته في تلميذه ابن ولاد وأنه كثيراً ما كان يسأله رأيه في بعض مشكلات "الكتاب" وأن الزجاج كثيرًا ما كان يختار تفسير ابن ولاد وينضم لرأيه[٣]. وثانيهما أننا لو قارنا دفاع ابن ولاد بأي دفاع للزجاج لظهر الفرق بين الدفاعين واضحاً. فأما دفاع الزجاج فمختصر جدًا وغير كاف وأما دفاع ابن ولاد فدفاع شامل مستفيض وفي نفس الوقت مقنع وسديد. ويكفي أن نحيل القارئ إلى الخلاف بين المبرد وسيبويه في "إنْ" في قول الشاعر:

---

(١) المرجع ص ٢٧٥.

(٢) معجم الأدباء ٥٩/١٢، ومعجم البلدان ١١٢/٤ .

(٣) القفطي في إنباه الرواة ٩٩/١ .

سقته الرواعد مِنْ صيّف وإن مِنْ خريف فلن يعدما

أهي "إمَّا" حذفت منها "ما" أم هي "إنْ" الجزائية . أما دفاع الزجاج فلم يشغل أكثر من بضعة أسطر من كتاب الخزانة، وأما دفاع ابن ولاد فقد شغل ثلاث صفحات كاملة من مخطوطة الانتصار(١).

٣- أن ابن ولاد في هذا الكتاب أثار عدة مشكلات تتعلق بكيفية تقعيد القواعد، ومهمة النحوي في ذلك ورسم الطريق لمن يتصدى للدرس النحوي ، وأسهم في وضع أسس ذلك العلم الذي عرف فيما بعد باسم "أصول النحو". ومن أهم الأسس التي نادى بها ابن ولاّد وطبقها في كتابه ما يأتي:

أ- أنه لا يصح الطعن على العربي ، أو رميه باللحن أو الخطأ ، أو تقديم القياس النظري على المادة اللغوية المسموعة. وفي هذا يقول ردًا على المبرد "إن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً وكلام العرب فرعًا فاستجاز أن يخطئها إن تكلمت بفرع يخالف أصله" ويقول: الذي للنحوي أن يفعله أن يمثل ويعتل لما جاء عن العرب فأما أن يرده فليس ذلك له"(٢).

ب- أنه يجب الوقوف عند المادة المسموعة ، ولا يجوز تصحيح ما لم يرد عن العرب بمقتضى القياس النظري. فهناك من الأساليب والكلمات ما يصح في القياس ولكنه لم يسمع فيجب أن نقف عند ما قالته العرب ولا نغيره . وفي هذا يقول: "سبيل النحويين اتباع كلام العرب إذا كانوا يقصدون إلى التكلم بلغتهم . فأما أن يعملوا قياسًا وإن حسن يؤدي إلى غير لغتها فليس ذلك لهم ، وهو غير ما بنوا عليه صناعتهم" ، ويقول "لا بد من متابعتهم إذا كان يريد التكلم بلغتهم دون ما يطرد لنا ويحسن من مقاييسنا"(٣).

جـ- أن تعدد الروايات في البيت الواحد لا يسقط حجيتها ، وأن كل رواية — ما دامت قد نقلت عن ثقة — يصح الاستشهاد بها . وهو يقول في ذلك: "الرواة عن الفرزدق

---

(١) راجع خزانة الأدب ٤٣٥/٤، والانتصار ٧٤-٧٧ .

(٢) الانتصار ص ١٢٠، ١٢١ .

(٣) المرجع ص ٢٣٧، ٢٣٨ .

وغيره من الشعراء قد تغير البيت على لغتها وترويه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعر ويخالفها ولذلك كثرت الروايات في البيت الواحد... ولغة الرواة من العرب شاهد كما أن قول الشاعر شاهد" ويقول "مجيء الروايات في البيت الواحد يجعل كل رواية حجة إذا رواها فصيح لأنه يغير البيت إلى ما في لغته فيجعل ذلك أهل العربية حجة"[١].

د- أنه لا يصح تأويل كلام العرب وصرفه عن ظاهره وادعاء الحذف والإضمار بدون داع . وهو لهذا يخالف المبرد في إعرابه قوله تعالى" ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين". فقد كان المبرد يقول إن فاعل "بدا" مصدر مقدر ، وتأويل الآية: ثم بدا لهم بُدُوٌّ ولكن حذف بدوّ من الكلام لأن "بدا" تدل عليه . أما ابن ولاد فيقول: ليس الأمر كذلك لأن "ليسجننه" جملة في موضع الفاعل... وأما قوله إنه يضمر فيه البدو فإنا إنما نضمر إذا كان الكلام محتاجًا إلى الإضمار ناقصًا عن التمام . فأما إذا كان الكلام تامًا مفيدًا..فلا حاجة بنا إلى الإضمار[٢]..

٤- ولعل خير ما يدل على تقدير القدماء لهذا الكتاب وإعجابهم به تلك الاقتباسات العديدة الطويلة التي نجدها في كتب المتأخرين منهم. ويكفينا أن نشير إلى "خزانة الأدب" للبغدادي[٣]وإلى نسخة الزيتونة من كتاب سيبويه، التي سبق الحديث عنها.

---

(١) المرجع ص ١٩، ١٩٣ .

(٢) المرجع ص ٢١٢، ٢١٣ .

(٣) انظر على سبيل الخصوص ١٧٤/١ و ١٣١/٢ و ٤٣٦/٤ . وانظر كذلك ٢٨٧/١، ٣٩٤، ٣٩٥ و ٦٢/٢، ٢٧٥ و ٢٠٢/٣، ٣٨٨ و ١٣٧/٤ .



الفصل الثانى

كلمات عن اللغة



الاتّصال اللُغوي
عن طريق الجلد*

إن أهم وظيفة للاتصال اللغوي هي تلقي أفكار الآخرين ومشاعرهم، أو نقلها إليهم. ولا تقف وسائل الاتصال اللغوي عند حدود الألفاظ والكلمات؛ فهناك وسائل كثيرة غير لفظية يستخدمها الإنسان، أو تصدر عنه، بهدف نقل المعلومات أو الأفكار أو المشاعر، أو بهدف المساعدة على نقلها، أو الدقة في التعبير عنها.

وتتعدد الوسائل غير اللفظية لتشمل الحركات الجسمية لكامل الجسم، أو لعضو معين من أعضائه(مثل الرأس أو الوجه أو العين أو الكتف أو اليد..) مما يمكن إدراكه بحاسة البصر، كما تشمل الإمكانيات الصوتية (مثل علو الصوت، ودرجته، ومعدل سرعته، وكميته، وكيفيته..) مما يمكن إدراكه بحاسة السمع. وتشمل أخيرا بعض الأنظمة غير المرئية أو المسموعة مثل اللمس والشم.

وكل وسيلة من هذه الوسائل نظام تواصلي متكامل، يمكن أن يؤدي وظيفته مستقلا عن غيره، ومستقلا عن الوسيلة اللفظية، كما يمكن أن يؤديها في صحبة وسيلة أخرى لتحقيق مستوى أعلى من الدقة أو الوضوح أو التأثير.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن نسبة ما تحمله الألفاظ في الحوار المباشر من معان لا تزيد على ٣٥٪ من مجموع الرسالة، ولذا فقد أعطى الوسائل غير اللفظية ثقلا أعظم في أي حوار بين شخصين interpersonal بل هناك من بالغ في تحديد هذا الثقل للوسائل غير اللفظية فرفع نسبته إلى ٩٣٪ من التأثير الكلي للرسالة.

---

* نشر في مجلة العربي- أغسطس١٩٨٨.

وتتفوق الوسائل غير اللفظية على نظيرتها اللفظية في أنها غالبا ما لا تقع تحت سيطرة المتصل أو تحكّمه أو وعيه، ولذا فهي عادة ما تكون صادقة خالية من الخداع أو التشويه أو التضليل. وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن الأفراد يعتمدون — حين تتعارض الإشارات- على الإشارات غير اللفظية؛ كما لو عقّب شخص على كلامك بقوله: " رأيك واضح جدًا عندي"، ولكنه في نفس الوقت أخذ يصدر إشارات تدل على غير ذلك، كأن أخذ يحكّ رأسه بقوة، أو أبدت ملامح وجهه أمارات الحيرة. فأنت عادة ما تعتمد على تعبيرات الوجه والإشارات غير اللفظية باعتبارها المؤشر الحقيقي للمعنى الذي يدور في ذهن سامعك.

كما تتفوق كذلك في المواقف العاطفية التي تعتمد على التأثير والإيحاء. ولما كانت طبيعة بعض المواقف الاتصالية عاطفية كان التعبير عنها بصورة غير مباشرة (عن طريق ابتسامة، أو إيماءة، أو تربيتة على الكتف، أو نحو ذلك) أفضل من التعبير عنها بصورة مباشرة. ومن أجل هذا يعتمد المعلنون على الإشارات غير اللفظية في التأثير على الناس، والإيحاء إليهم بما يريدون.

أهمية اللمس في الاتصال اللغوي:

يعد الجلد من أهم أعضاء الإحساس في التواصل بين الأشخاص. ومن العلماء من اعتبر الجلد أهم هذه الأعضاء، ولا غرابة في هذا فكثير من علماء الفسيولوجيا يعتبرون اللمس هو الحاسة الوحيدة التي يمكن أن تردّ باقي الحواس إليها. فالسمع يبدأ بلمس موجات الصوت للأذن الداخلية. والتذوق يبدأ بلمس مادةٍ ما لأعضاء الذوق. والرؤية تتم عن طريق ضوء يصل إلى العين.. وهكذا.

ويمكن تصور القيمة التواصلية الهائلة للّمس بتصور حالة Helen Keller التي تغلبت على صممها وفقد بصرها باستخدام حاسة اللمس. وقد استطاعت أن تتعلم أسماء الأشياء عن طريق ضغط الألفبائية اليدوية على راحة يدها. كما استطاعت أن تتعلم الكلام عن طريق وضع أصابعها على حنجرة أستاذتها Anne Sullivan لتحس

ذبذبات صوتها (لكنها رغم تعلمها الكلام فقد كانت في حديثها العام تحتاج إلى مترجم لأن صوتها لم يكن واضحا بدرجة كافية). وأخيرا تعلمت القراءة والكتابة بطريقة Braille وهي نظام كتابي يعتمد على توزيع عدد من النقاط البارزة (من ١-٦) على شكل سداسي، وتقرأ هذه الرموز عن طريق إمرار الأصابع على النص.

وقد عبر بعضهم عن حالة Helen Keller قائلا: "كان من المشكوك فيه لو أنها فقدت حاسة اللمس -حتى لو كانت قد استعادت حاستي السمع والبصر- أن تحقق موهبتها وعزيمتها شأنا كهذا".

وحتى عهد قريب لم يكن العلم يعرف شيئا ذا بال عما يمكن أن يقوم به الجلد من تواصل حتى توصل العلماء المهتمون بدراسة الجلد إلى حقيقة أن مقدار ونوع التلامس الذي يتلقاه الحيوان والإنسان حتى فترة بلوغه يملكان تأثيرا قويا على سلوكه؛ لأن الدراسة أثبتت أن حاسة اللمس هي أم الحواسّ؛ وأن أثرها يبدأ منذ يتشكل الشخص جنينا في بطن أمه. ويكتسب الطفل كثيرا من معلوماته عن نفسه وعن العالم من حوله من خلال اللمس، وبخاصة لمس المحيطين به، والذين يقومون على رعايته وإرضاعه وهدهدته.. ونظرا لإمكانات الجلد الإحساسية فإن الخبرات التي يكتسبها الشخص عن طريق جلده تفوق ما يمكن أن يتصوره الكثيرون منا. وقد أظهرت التجارب أن نضج الشخص العادي يتطلب قدرا مركزا من التلامس سواء كان في شكل مداعبة أو تربيت أو تقبيل أو حتى لمس مجرد. وهكذا انكشفت مغاليق الإمكانيات الاتصالية للجلد، وظهر أمام أعين الباحثين أن الجلد ليس فقط أكثر الأعضاء حساسية، ولكنه كذلك وسيلتنا الأولى للاتصال.

الجلد كناقل للرسالة:

كلنا يعلم أهمية المعلومات التي يمكن الوصول إليها عن طريق ملاحظة لون الجلد. فهناك تقسيم للجنس البشري إلى شعوب على أساس ألوان جلودها. ومن ذلك التقسيم العربي القديم للأجناس إلى أسود (العرب)، وأحمر (العجم)، وأصفر (الروم). وفي الحديث الشريف: "بعثت إلى الأحمر والأسود". كما أن هناك تغييرات تطرأ على لون الجلد في المواقف المختلفة كالاكتئاب، أو الغيظ، أو الخجل، أو

السرور، أو الضعف.. وقد ورد لذلك في التراثين الديني والشعبي نماذج كثيرة كقوله تعالى: "وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظَلّ وجهُه مُسْوَدًّا وهو كظيم"، وقوله تعالى: "وأما الذين ابيضّتْ وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون". وفي الحديث النبوي: "وكان ذلك الرجل مصفرّ اللحم" (من الإعياء والمرض). وفي ألف ليلة وليلة: " فلما سمعْتُ هذا الكلام اصفرّ لوني" (من الخجل)، وفيها : " أخذه الوجد والهيام واصفرّ لونه" (من الذبول والضعف)، وفيها: "رُدّ لونه واحمرّ وجهه" (من الصحة والقوة الجسمية)، وفيها: "احمرّت وجنتاه" (من الخجل)

كذلك يستعين الأطباء بلون الوجه أو الجسم أو العضو المعين في تشخيص بعض الأمراض، ونجد أمثلة لذلك في كتاب" القانون" في الطب لابن سينا، كما نجد أمثلة له في الطب الحديث حين يصل الأطباء من لون اللسان الأبيض إلى معاناة المريض من عسر في الهضم أو إصابته بالدفتريا، ومن لونه الأحمر إلى معاناته من حالة بولينا متأخرة. وحين يستنتجون من صفرة الوجه وجود أمراض بالكبد، ومن حمرته إصابة المريض بارتفاع في ضغط الدم.

ولكنّ الشيء الطريف توصل العلماء بعد الدراسة المعملية التجريبية إلى لغة يبث بها الجلد حديثه العاطفي. وقد توصلت إلى ذلك Barbara Brown بعد أن طرحت السؤال: هل يمكن أن يبث الجلد رسالة أو ينقل معنى؟ وبعد أن ردت بالإيجاب ذكرت أن كل ما نحتاجه لنستمع إلى حديث الجلد عدد من الأقطاب الكهربائية تثبت في الجلد، وآلة تسجيل خاصة. وسوف يقوم الجلد بالإخبار عن وجود الانفعال -حين يوجد- وعن درجة قوته، وإلى أي مدى كان الشخص انفعاليا. بل سيخبرنا كذلك متى لجأ الشخص إلى الكذب. ويمكن أن ينوع الجلد من أشكال رسائله تبعًا لتنوع قوة التيار الكهربائي الصادرة عنه. ويمكن عن طريق جهاز بسيط تحويل هذا التيار الكهربائي المتنوع الصادر عن الجلد إلى تسجيلات كتابية مرئية.

وقد أمكن استخدام هذه القدرة التواصلية للجلد في تطبيقات كثيرة منها:

١- توظيفها في العلاج النفسي عن طريق استخدام الرسائل التي يبثها الجلد لتحديد المشاكل العاطفية عند المريض.

٢-الاسترشاد بها في تحديد مدى صدق المتكلم أو كذبه، وما إذا كان الانفعال الذي يرسله الجلد- والذي يعبّر عن حالة صادقة واقعية- يتطابق مع الانفعال الذي يحاول الشخص أن يعبر عنه بوسائل أخرى مثل تعبيرات الوجه. وقد قام بتركيب أول جهاز لكشف الكذب John Larson عام ١٩٢١، واستخدمته الشرطة بنجاح منذ عام ١٩٢٤ أثناء استجواب المتّهمين. وهو جهاز تقوم فكرته على تسجيل التغيرات في المقاومة الكهربائية للجلد الناتجة عن فعالية الغدد العَرَقية التي تستثيرها المثيرات المسببة للانفعال، وعلى مراقبة التغيرات في معدلات ضغط الدم والنبض والتنفس التي تتأثر بحالات الشخص الانفعالية. ويتم ذلك بشدّ أنبوب حول صدر الشخص لتسجيل حركات الصدر عند التنفس، ووضع حزام حول ذراعه لتحديد ضغط الدم والنبض، وتقوم أكثر من ريشة بتسجيل موجات الحركات على ورقة رسم بياني تتحرك بواسطة مولّد كهربائي صغير.

الجلد كمستقبل للرسالة:

لا أحد يجادل في أهلية الجلد للقيام بهذه الوظيفة نظرا لقدراته الاتصالية العجيبة. وقد أشار العلماء إلى أن ما يكتسبه الإنسان من خبرات عن طريق جلده أهم بكثير مما يتصور معظمنا. ذلك أن الجلد الإنساني يملك الملايين من نقاط الاستقبال والألياف العصبية المهيأة لمعرفة مادة الشيء والإحساس بالضغط والحرارة والألم والوخز وغيرها.

ولكن الكثيرين لا يتصورون الجلد كوسيلة استقبال متقدمة قادرة على فك مغاليق الأفكار والعواطف المتشابكة التي تصله من مصدر خارجي .

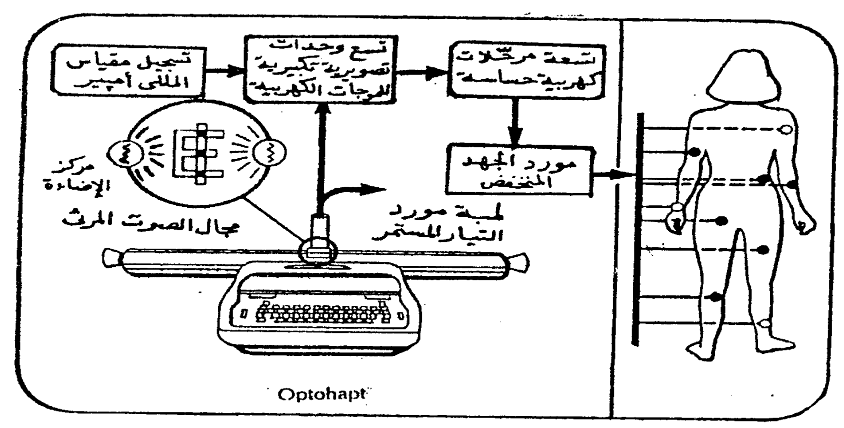
ويرجع الفضل في اكتشاف قدرات الجلد الاتصالية إلى البحوث التي قام بها Frank Geldhard وزملاؤه من "معمل الاتصالات الجلدية" في برنستون. وقد تبين لـ Geldhard وزملائه أنه لكي نصل إلى استخدام فعال لإمكانيات الاتصال عن طريق الجلد- لابد من وضع وسيلة لإرسال موجات كهربية عبر الأعصاب إلى أجزاء مختلفة من

الجسم. هذه الموجات الكهربية ترمز إلى الأفكار والانفعالات التي يمكن للجلد أن يفك شفرتها.

ولوضع نظام شفري قابلة أجزاؤه للتمييز، أو "لغة" يفهمها الجلد فقد قام Geldhard وزملاؤه بتحديد الأبعاد المختلفة القادرة على استثارة الجلد عن طريق موجات كهربية يستقبلها الجلد كذبذبات. وقد توصلوا إلى وجود أبعاد أربعة هي الموقع، والكثافة (وتحددها قوة الذبذبات)، والاستمرار (ويشير إلى الوقت الذي تستغرقه الذبذبة)، والتردد.

أما بالنسبة للموقع فقد حددوا سبعة متذبذبات توضع في تجويف الأضلاع البطنية بواسطتها يمكن للشخص بنسبة ١٠٠٪ التعرف على هذه المواقع عن طريق الذبذبات الواصلة إلى الجلد. وأما بالنسبة للكثافة فقد أظهرت الدراسة المعملية قدرة الشخص المستقبل على تمييز خمس عشرة درجة منها. وأما بالنسبة للاستمرار فقد حددوا مجاله من ١٠/١ثانية إلى ثانيتين، وبينهما امتداد يمكن للملاحظ العادي أن يميز عليه خمسًا وعشرين درجة من الاستمرار. وأما التردد فيمكن تنويعه أثناء إرسال الرسالة إلى الجلد، ويحتاج ذلك إلى تحكم عالي الدقة، حتى لا يحدث خلط بين الكثافة والتردد، وحتى لا يؤدي تغيير التردد إلى تغيير" درجة الذبذبة" مما قد يسبب صعوبة للمستقبل. فكل من الأذن (الذبذبات الصوتية الصادرة عن الجهاز النطقي) والجلد (ذبذبات الجلد الناتجة عن طريق النبضات الكهربية) تعتمد على درجة الصوت، أو تردد الذبذبات لتحديد معاني الرسائل.

وللتغلب على هذه الصعوبات التي ترتبط ببث الرسائل إلى الجلد عن طريق الذبذبات فقد تم تركيب جهاز للبثّ ووضعت له ألفبائية شفرية لنقل كلمات وجمل إلى الجلد. واسم هذا الجهاز Opthapt (انظر الشكل) ويتكون من آلة كاتبة ذات لوحة أزرار لكتابة الألفبائية الشفرية التي يتم تحويلها إلى تتابعات وتجمعات من النبضات التذبذبية التي توزع على مواقع مختلفة من الجسم.



ومـن الممكـن اسـتخدام مـثل هذا الجهاز في مجالات تطبيقية متعددة، وبخاصة من الأشخاص الذين قد يتعرضون لتعطل حاستي السمع والبصر، مثل قائد الطائرة الذي قد تصـاب أجهـزته بخلـل يوقـف أجهزته وتتعطل معها كل وسائل الاتصال بالعالم الخارجي مما يعرّض الطائرة لكارثة محققة. فحين يكون جسم الطيار مزودًا بعدد من المتذبذبات فإنه سـيمكنه الـتقاط التعلـيمات والتوجـيهات التي سيبثها مركز التحكم في المطار من خلال النبضات الكهربية المرسلة إليه عن طريق جهاز التحكم عن بعد.

الجلد كنظام اتصال مستقل:

إذا كان معمل الاتصالات الجلدية في برنستون قد تعامل مع الجلد باعتبار قابليته لاسـتقبال الرسـائل واسـتخدم وسائل ميكانيكية لبثّ هذه الرسائل إليه، فإنّ هناك فريقا مـن العـلماء قادتـه Alma Smith سـار بالبحـث خطـوة هامـة إلى الأمام حينما قام بدراسـة كـل مـن القـدرات الإرسـالية والاسـتقبالية للجلد الإنساني، واعتبر الجلد نظاما اتصاليا بشريا مستقلا.

وقـد بـدأت Alna Smith دراسـتها بفرضـية عامـة تقول إن الاتصالات ذات المعـاني العاطفية يمكن أن يقوم بها اللمس في غياب أي إشارات حسية أخرى، بمعنى أنها رأت أن الـلمس يمكـن أن يوظـف بفاعلـية كـنظام اتصالي مستقل. ولاختبار صحة هذه

الفرضية كان عليها أن تقوم بمهمة ذات شقين: أولهما أن تتوصل إلى بعض الرسائل التي يمكن بثها عن طريق اللمس، والآخر أن تبتكر منهجًا عمليًا لبث رسائل كهذه عن طريق اللمس. وقد أوصلتها دراستها الاستطلاعية إلى النتيجة الآتية: حينما يضع شخص يديه على يدي شخص آخر (حتى مع وجود عازل بينهما يمنع وصول أي مؤثرات أخرى) فإنه يكون قادرًا على توصيل عدد من الانفعالات أو المشاعر المختلفة. ثم قامت بعد هذا باختيار خمسة منها رأت أنها أكثر قابلية للنقل عن طريق اللمس وهي: الشعور بالعزلة- الحنان- الخوف - الغضب - المزاح. وقد طلبت من أحد خبرائها المدربين أن يقوم بنقل هذه المشاعر إلى عدد من الأشخاص -الواحد بعد الآخر- عن طريق اللمس باليد، مع تغيير حركاتها. وقد قام الخبير بتوصيل يديه بيدي كل شخص، وعن طريق الحركات المختلفة ليديه حاول أن يوصل هذه المشاعر (مع وضع عازل بينه وبين مستقبل الرسالة).

ولتحديد درجة الدقة في الإدراك فقد أضافت Alma Smith إلى تجربتها خطوة هامة بتطويرها ما يمكن أن يسمى "قائمة الاتصال اللمسي" (انظرها بعد). وقد مرّ ذلك بمراحل ثلاث:

في المرحلة الأولى طلبت من عدد من الأشخاص المجرَّب عليهم أن يقترحوا الصفات الملائمة للمشاعر والانفعالات المنقولة إليهم، كالإرهاق والحنان والشعور بالعزلة. ثم قامت باستخلاص الصفات الخمس الأكثر ترددًا لكل انفعال وأعطت لكل صفة وزنها حسب مرات اختيارها لكل انفعال. وعلى هذا فإذا كان الوصف "مهتم" قد ورد ضعف عدد مرات الوصف "متعاطف" بالنسبة لانفعال "الحنان" فإن الأول منهما (مهتم) يعطي نقطتين ، في حين يعطي الآخر (متعاطف) نقطة واحدة.

وفي المرحلة الثانية طلبت من الأشخاص المجرَّب عليهم أن ينظروا إلى"قائمة الاتصال اللمسي" أثناء محاولة الخبير نقل مشاعره إليهم عن طريق إمساك اليد، وأن يختاروا الكلمات الخمس التي يشعرون أنها تمثل بصورة أفضل الانفعال المنقول إليهم.

وفي المرحلة الثالثة استخدمت نظام النقاط (انظر نظام النقاط لقائمة الاتصال اللمسي). فلو افترضنا أن الخبير أراد أن ينقل انفعال "الحنان" وطلب من الشخص المجرَّب عليه أن يختار خمس كلمات (من قائمة الاتصال اللمسي) يرى أنها أفضل ما

يصف الانفعال. إذا اختار المجرَّب عليه الاهتمام والارتياح والوقاية والحذر والتفهم فإنه سيحصل على عشر نقاط، وهي الحد الأقصى الذي يمكن الحصول عليه لهذا الانفعال، وهذا يعني أن الخبير نقل الانفعال بدقة. وإذا لم يختر المجرَّب عليه أي كلمة من تلك الموجودة أمام "الحنان" فإنه سيحصل على صفر. وهذا يعني أن المجرَّب عليه لم يستقبل أي جزء من الرسالة.

وبذا استطاعت Alma Smith أن تقدم وسيلة مفيدة وموضوعية لقياس مستوى الاتصال اللمسي عند الأفراد.

قائمة الاتصال اللمسي:

مرتبة هجائيا حسب حروفها

آمن	غير آمن	متعاطف	مرتاح	مهتاج
حار	غير ودي	متفهم	مرتعش	مهتم
حذر	فرح	متوافق	مستمتع	نشط
خائف	قاس	مجنون	مغضب	هادئ
دفاعي	لا مبال	محايد	ممتعض	هازئ
دمث	مؤمّل	محب	مفعم بالحياة	هامّ
عديم الشعور	مبتهج	محتاج إليه	منتم	واقٍ
غاضب	متألق	محزون	منعزل	ودود

نظام النقاط

لقائمة الاتصال اللمسي

الحنان		النشاط		الخوف		الانعزال		الغضب	
مهتم	٢	مبتهج	٢	خائف	٣	لا مبال	٢	غاضب	٢
مرتاح	٢	مستمتع	١	دفاعي	٢	منعزل	٢	قاس	١
دمث	١	مهتاج	١	محزون	١	متوافق	٢	دفاعي	١

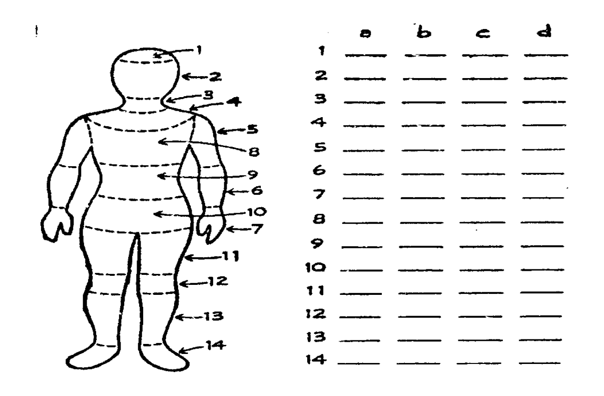
الحنان		النشاط		الخوف		الانعزال		الغضب	
محب	١	ودود	١	دمث	١	محايد	٢	مغضَب	٣
واق	٢	هازئ	٢	غير آمن	٣	عديم الشعور	٢	مجنون	٢
متعاطف	١	فرح	٢	نشط	١	غير ودي	١	ممتعض	٢
حذر	٢	مفعم بالحياة	٢	غير ودي	١			غير ودي	١
متفهم	٢	نشط	٢						
حارّ	١	متألق	١						

مَنْ يلمس من؟ وأين؟

تختلف عادات الشعوب في نظرتها إلى التلامس، فبعضها يفرض حظرا عليه، وبعضها يسمح به. ويختلف البعض الثاني في درجة اعتماده على اللمس سواء مع النفس أو مع الغير. فقد لاحظ Sidney Jourard حركات التلامس بين المتصاحبين في بعض المقاهي بعدد من المدن، وجاءت نتائجه تشير إلى وقوع الأعداد الآتية في الساعة الواحدة:

بورتو ريكو	١٨٠ مرة
باريس	١١٠ مرات
فلوريدا	مرتان
لندن	صفر

كذلك أراد Jourard أن يعرف أي أجزاء الجسم تلمس غالبًا فأجرى استبيانا على عدد من الطلاب يحوي خريطة لجسم الإنسان تقسمه إلى أربعة وعشرين قسما. واقتصر في استبيان آخر على تقسيم الجسم إلى أربعة عشر قسما، كما في الشكل الآتي:



وقد طلب الاستبيان من المجرَّب عليهم أن يحددوا جزء البدن الذي رأوا لمسه، أو الذي لُمس منهم، أو الذي قاموا هم بمسه خلال الاثني عشر شهرا الأخيرة، وذلك بالنسبة لأربعة أنواع من الناس:

١- الأمّ (رقم a في صفحة الاستبيان).

٢- الأب (رقم b) .

٣- الصديق من نفس الجنس (رقم c) .

٤- الصديق من الجنس الآخر (رقم d).

وقد خرج من هذا الاستبيان بجملة من النتائج منها:

١- تعرض الإناث للّمس من كل الأشخاص أكثر من الذكور.

٢- قام الأصدقاء مختلفو الجنس، والأمهات بمعظم حالات اللمس.

٣- لم يقم كثير من الآباء بلمس أكثر من أيدي الطرف الآخر.

٤-تعرض الآباء والأمهات للمس قليل من النوع الحميم أو الودود.

٥-قامت الأمهات بكثير من اللمس من النوع الحميم أو الودود مع الآخرين.

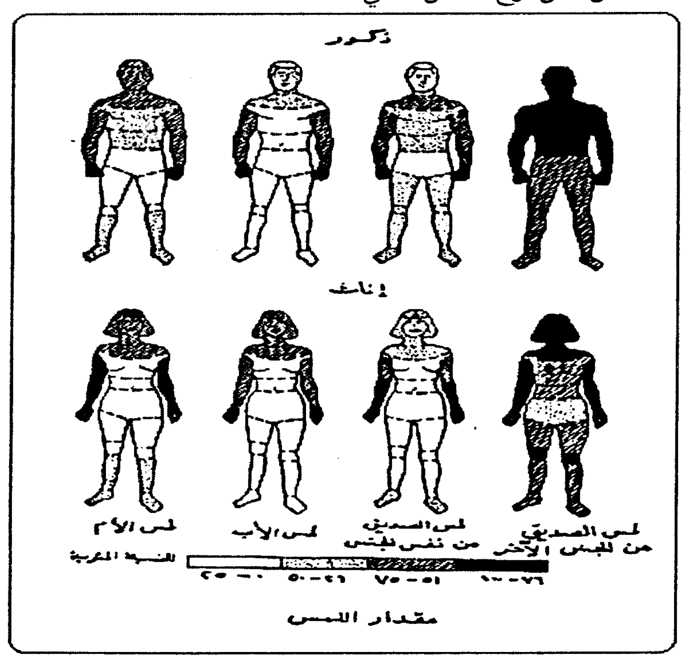
٦-تحدث الرجال والنساء عن درجة أعلى من التلامس مع الوالدين والأصدقاء عن طريق الأيدي، وعن درجة أقل من التلامس معهم عن طريق أجزاء أخرى من البدن.

٧-قام الأصدقاء الذكور بلمسات كثيرة فوق منطقة الوسط.

٨-تمت أقل درجات الاتصال اللمسي بين الأب والابنة.

٩-هناك مناطق من الجسم اقتصر لمسها على العشاق أو الأزواج .

ويلخص مقدار اللمس لكل نوع الشكل الآتي:



وقد خرجت بعض الدراسات للسلوك اللمسي في الولايات المتحدة بنتائج أخرى منها:

١-أن الأطفال يتلقون لمسات بين سن ١٤ شهرًا وعامين تزيد على ما يتلقونه في سنّ الرضاع.

٢-أن الأطفال الإناث يتلقين لمسات عاطفية أكثر مما يتلقى الذكور.

وفي دراسات نشرت أوائل الثمانينيات في الولايات المتحدة عن الاختلافات بين الجنسين في وسائل الاتصال غير اللفظية توصل الباحثون إلى النتائج الآتية:

١-خلال الأشهر القليلة الأولى لحياة الطفل يتلقى الذكور أنواعًا من السلوك الجسدي (تلامس – حمل – أرجحة..) أكثر مما يتلقى الإناث ولكن يتغير النموذج بعد الشهر السادس وينقلب إلى الضد.

٢-أكثر نماذج التلامس بالأيدي شيوعًا بين البالغين عند تلاقيهم خارج المنزل هو نموذج أ = ذكر- أنثى (بنسبة ٤٢٪) يليه نموذج ب= أنثى – ذكر (٢٥٪) يليه نموذج جـ= نفس الجنس ،ذكرًا كان أو أنثى.

وقد أيدت كثير من التجارب والدراسات غلبة النموذج رقم أ ، ومن ذلك ما ثبت من مراقبة السلوك غير اللغوي للمسافرين والمودعين في المطارات من أن الذكور (والأكبر سنا) يميلون إلى أن يبدأوا هم باللمس. وقد فسر ذلك بكون الرجال أكثر حرية في تصرفاتهم من النساء نتيجة فاعليتهم وإيجابيتهم ومركزهم الاجتماعي، وبأنه انعكاس للمقوْلبات الثقافية عن الرجال والنساء ودور كل في المجتمع، وأخيرا بأنه نتيجة النظرة إلى اللمس على أنه عدوان جسدي، وهو ما يتوقع أن يحدث من الرجل أكثر من المرأة.

٣-في دراسة تمت على أطفال ما قبل المدرسة تبين أن البنات يلمسن الأولاد أكثر. وهذا يؤكد أن ما قيل عن تقدم الرجل على المرأة في مجال اللمس لم يظهر في جميع الأبحاث بصورة مطردة، وهو ما أكدته Judith Hall في دراستها التي نشرتها عام ١٩٨٤، وعللته بأن ذوي المكانة العليا من الأفراد ربما لا يحتاجون دائمًا إلى إثبات منزلتهم، أو قدرتهم على السيطرة على الآخرين، وأن الأفراد من ذوي المكانة الدنيا هم الأحوج إلى ذلك. ولذا فإن المرأة قد تبحث عن فرصة للملامسة لإثبات مكانتها، وتعويض عدم

تكافؤهـا في المركـز مع الرجل. كما أنها ذكرت أن المادة العملية التي تحت أيدينا ليست كافية- حتى الآن- لتلقي ضوءاً على نوعية الاختلافات في اللمس بين الرجال والنساء.

أنوع اللمس ومعانيه:

يـنظر الكثيرون إلى التلامس بين الأفراد على أنه مرادف للتعلق والتقارب وعمق الصـلة، كمـا أنـه قـد يكـون دلـيلا علـى الحب أو الرغبة الجنسية. ومع هذا فإن مدلول الرسـالة التي يستقبلها الجلد يختلف باختلاف عدد من المتغيرات مثل مدة اللمس، ودرجة قوته، والجزء الملموس، والقصد من اللمس، وطبيعة العلاقة بين المتلامسين، والموقف الذي يـتم فـيه الـتلامس، والمكـان الـذي يقـع فـيه (حفلـة – مكان عمل..)، وفوق هذا جنس المتلامسين.

وقـد أجريـت أكـثر مـن تجـربة علـى عـدد من طلاب الجامعة (ذكور وإناث – مـتزوجين وغـير مـتزوجين) سـئل كـل مـنهم أن يحدد ما تعنيه ملامسة صديق من الجنس الآخـر لأحـد عشـر جزءاً من أجزاء جسمه، وكان أكثر المعاني اختياراً هو الحب وعمق العلاقة، وتلاه الممازحة، والزمالة، واقتحام عزلة الشخص.

وإلـى جانـب هذا المعنى الأولى للمس توجد معان أخرى متعددة تختلف باختلاف طبيعة العلاقة بين المتلامسين:

١-فالـتلامس بـين غريـبين يعد من النوع العشوائي أو التصادفي، وهو الذي يتبعه عادة اعتذار صريح.

٢-أمـا الـتلامس الوظـيفي أو التخصصـي فـيقع حين أداء وظيفة أو مهنة معينة كملامسة الطبيب لمريضه حين الكشف عليه، أو الحلاق لزبونه عند قص شعره.

٣-وهـناك الـنوع الاجـتماعي الـتأدبي، وذلك مثل المصافحة عند التلاقي، ومثل تقبيل اليد في بعض المجتمعات.

٤-أمـا الـنوع الصداقي أو الحميمي فمثل تلامس العشاق أو تعانقهم أو تقبيلهم الخـد عـند التحـية أو الـتوديع. ويدخـل في ذلـك مـا يفعله الطبيب ليكتسب ثقة مريضه وصداقته من وضعه يده في يده ، أو يده على كتفه.

٥-وهناك نوع من اللمس يتّحد فيه اللامس والملموس وذلك حين يقوم الشخص بلمس جزء من جسمه. وهذا النوع من اللمس لا يحمل دلالة للآخرين إلا إذا رأوا الجزء الذي يُلمس من الجسم. ومن أمثلة ذلك إمرار الإصبع على الرقبة الذي يعني قطع رقبة الشخص. ومن أمثلته كذلك التحية أو الشكر بوضع الشخص يده اليمنى ممتدة عبر صدره، أو وضعه يده فوق فمه كما لو كان يمنع نفسه من الكلام أو الضحك، أو مسحه حول عينيه، وهي إشارة ترتبط عادة بحالة البكاء الحار بالدموع. وربما غطى الشخص عينيه ليبدو أنه لا يريد أن يرى ما لا يرضاه.

ويدخل في هذا النوع ما يعرف باللمس اللا إرادي الذي لا يقصد به تحقيق الاتصال، وعادة ما يحدث مع قليل من التنبه، أو بدون تنبه مطلقا. وتقتصر دلالة هذا النوع عادة على الكشف عن الحالة الداخلية للمرسل. ومن أمثلة ذلك العبث بالشعر (مع حركات مصاحبة مثل إمساك أي شيء على المنضدة والعبث به، ومثل إظهار التململ بحركات الوجه) مما يستنتج منه المشاهد وجود حالة من التوتر. ومن أمثلته كذلك حكّ موضع من الجسد، أو فرك العين، أو تسوية الشعر، أو تكرار إمرار اليد على الجبهة.

٦-وإلى جانب هذه المعاني الرئيسية لأنواع اللمس السابقة، فقد يحمل اللمس جملة من المعاني الثانوية أو الهامشية؛ مثل مركز الشخص، أو قوته، أو درجة نفوذه. فالطبيب أكثر حرية في لمس الممرضة، وليس العكس. وكذلك الحال بالنسبة للمدير مع السكرتيرة، والزبون مع النادلة، والأكبر سنا مع الأصغر. وفي كل هذه الحالات ثبت أن البادئ باللمس هو الأعلى مركزًا، أو الأكبر سنا.

وأخيراً: لعل أهم أنواع التلامس هو ذلك الذي يهدف إلى خلق التواصل، وكسر الحاجز النفسي، وتعميق الصلة بين الأفراد. إن هذا النوع يلعب دورا في إعطاء التشجيع، والتعبير عن الحب، وإظهار التأييد العاطفي. ولذا يفضله الكثيرون على التواصل باللفظ أو بالنظر.

كيف نشأت اللغة الإنسانية؟

لا أحد يعرف متى وأين وعلى أيِّ صورةٍ بدأ الكلامُ الإنسانيُّ على وجه الأرض، على الرغم من وجود نظرياتٍ كثيرة حولَ هذا الموضوع . ومن المؤكَّد أنه لا توجد على سطح الأرض أيُّ جماعة إنسانية- مهما قل حظُّها من الحضارة والمدنية- ليس لها لغةٌ تتفاهمُ وتتبادلُ الأفكارَ بها. وإن الكلام الإنساني لَيُمْكِنُ أن يستمرَّ بينما يباشرُ الإنسانُ عملا آخرَ يدويا، ويمكن أن يستمرَّ في الظلام. ولعل هذا هو السببُ في أن أجدادَنا القدماءَ فضَّلوا الحديث على غيره من طرق التفاهم مثلِ الإيماءات التي ولا شك كانت أسبقَ وجودا من الكلام، ومثلِ التعبير بالصور الذي ربما كان متأخرا في الوجود وأسلَمَ إلى اختراع الكتابة.

واللغة –أي لغةٍ بما فيها لغةُ الإنسان الأول- تتكون من أصواتٍ تصدرها أعضاءُ النطق البشرية. هذه الأصوات- لتصبحَ ذاتَ معنى- يجب أن تُوضَعَ بطريقةٍ معينة، وأن تكون محل اتفاقٍ بين أعضاء الجماعة اللغوية، باعتبارها قيمةً رمزية تستحضر في ذهنهم أفكارا معينة. وإن سرَّ العملية الكلامية كلِّها يكْمُنُ في تلك الصلةِ القائمة بين اللفظ ومعناه في عقول اثنين أو أكثر، وما عدا ذلك من العملية الكلامية فهو عنصرٌ عضوي طبيعي ميكانيكي. أما كيف تم في البداية عقدُ الارتباط بين اللفظ ومدلوله –حتى في أبسط صُوَره في عقل إنسانٍ فرد- فإنه ما يزال لغزا من الألغاز على الرغم مما قُدِّم من افتراضات في هذا الموضوع. وسرٌّ آخرُ هو كيفيةُ امتدادِ هذا الارتباطِ من عضوٍ في الجماعة اللغوية إلى آخر، وكيفيةُ صيرورته ملكا عاما بين كل الناس.

وقد تمت كثيرٌ من التخمينات والمحاولات لاكتشاف الطريقةِ الأولى لإحداث الأصوات بقصد التفاهم مع الآخرين، والتي أخذت شكلا بُدائيا حتى تطورت هذا التطورَ الكبير وأخذت شكل لغات.

ومـن هـذه الفروض التي قدمت النظريةُ التي تَفترض أن اللغة نشأت نتيجة إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء.

وأهـمُّ مـا يعـتمد عليه أصحاب هذا الرأي النصوصُ الدينية الواردة في القرآن الكريم وفي سفر التكوين. وهي نصوص في نظرنا ليست قاطعة وتقبل أكثر من تفسير. ومن ذلك قوله تعالى: " وعلّم آدم الأسماء كلّها" ففي رأينا أنه لا يعني أكثرُ من إقرار آدم عليه السلام وذريته على وضع الألفاظ.

وهـناك فـرضٌ ثـان يقـول إن اللغـة قـد ابتُدعت واستحدثت بالمصادفة وارتجال ألفاظهـا ارتجالا . ولا يوجد لهذا الفَرْض أيُّ سند عقليٌّ أو نقليٌّ أو تاريخيّ وهو يخالف النواميسَ العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية وهي القائمةُ على التدريج لا الارتجالِ والطفر.

وهـناك فرض ثالث يزعم أن اللغة نشأت عن صَرَخاتِ دهشة أو صَيْحات انفعال أو غيرهـا مما يعبِّر عن التأثر المفاجئ من ألم أو خوف أو فرحة، أو بدأت كسلسلة من التقبُّضات العَضَلية أو الأزيز الداخلي نتيجةً لإجهاد عضلي أو نتيجةً لتعبيرات سارة غيرِ لغوية.

أمـا الفـ[illegible]ـس الرابع فهو الذي يقرّر أن اللغة الإنسانيةَ نشأت أول ما نشأت تقليدا لأصـوات موجـو[illegible] في الطبـيعة مـثل أصـواتِ الحـيوان وأصواتِ مظاهر الطبيعة مثل دويّ الـريح وقصـف الـرعد وخريـر المـاء وحفيف الأشجار وما يحدث من صوت عن الضرب والقطـع والكسـر... وسـارت في سـبيل الـرقيّ شـيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدُّم الحضارة، واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعددِ حاجات الإنسان... وكان الإنسان يسـتخدم عوامـلَ أخـرى مساعدةً في أول أمره لتعوِّضَ قُصور لغته مثلَ الإشارات اليدوية والحركاتِ الجسمية.

وربما كان هذا الفَرْضُ أقربَ الفروضِ الأربعة إلى المنطق وأدناها إلى القَبول لأنه يتفق مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعةِ لها الكائناتُ والنظمُ الاجتماعية.

وإلى جانب ذلك سلك العلماء عدةَ طرقٍ علمية بقصدِ التوصل إلى خصائص لغة الإنسان الأول والاهتداءِ إلى الصورة التي ظهرت فيها وإن لم يحالفْهُمُ التوفيقُ كثيرا في ذلك.

ومن الطرقِ التي سلكها العلماء دراسةُ اللغاتِ القديمة مثل المصرية واليونانية والسنسكريتية والصينية ومقارنتها بعضِها ببعض بُغْيَةَ الانتهاء من ذلك إلى الاهتداءِ إلى الرَّطانة البُدائية التي كان يستعملها الإنسانُ الأول . ولم تنجحْ هذه المحاولةُ لأن اللغة كطاقةٍ بشرية يمتدُّ عُمْرُها إلى آمادٍ سحيقة لا يمكن حدُّها وتسبِقُ كثيرا أقدمَ اللغات المعروفة (التي يبلغ عمرها حوالي ٤٠٠٠سنة). ومن ناحية أخرى لأن استخدامَ الكتابة- التي هي الوسيلةُ الوحيدة لمعرفة اللغات البائدة- تُعتبر بالنسبة للكلام الشفوي وسيلةً حديثة جدا وأثرا من آثار الحضارة المتطورة المستقرة. وبهذا يمكننا أن نقولَ إنه بالقياس إلى أصل اللغة فإن كل لغةٍ معروفةٍ لنا تعتبر حَديثة ومهما أوغلنا في التاريخ فلن نصل إلا إلى لغاتٍ قد تطورت وتركت خلفها تاريخا ضخما لا نعرف عنه شيئا.

كذلك حاول العلماء الوصولَ إلى نتائجَ إيجابيةٍ عن طريق دراسة لغة الأطفال ومعرفةِ كيفية اكتساب الطفل للكلام وتعلمه. وتلك محاولةٌ لا تقل مجانبةً للصواب عن سابقتها؛ لأن الطفل يكتسب لغته الأمَّ في محيطٍ تعتبر فيه اللغة ثابتةً راسخة بالفعل، ومحددةَ الاستعمالات وواضحةَ التعابير لتلبية حاجات البيئة ورَغَباتِها الخاصة. وحتى إذا تُرك الأطفالُ وشأنَهُمْ لم يُلَقَّنوا كيفية التكلم – كما يحدث بالنسبة لكثير منهم- فإن حالتهم تختلف تماما عن حالة الإنسان الأول الذي يُفترض وجودُه في فترة نشأة اللغة وتكوّنها.

ومن الأشياء الطريفة التي حفظها لنا التاريخ تلك المحاولات التي تمت لعزل الأطفال منذ مولدهم، حتى يمكن الحكم ما إذا كان الطفل يستطيع أن يتحدث بلغة ليست في أصلها مبنية على محاكاته للكبار، ويمكن تحديد أقدم اللغات وجودًا؛ فروى هيرودوت أن الفرعون المصري "بسماتيك" قد أجرى هذه التجربة على طفلين ليبرهن على أن اللغة المصرية القديمة هي لغة الإنسان الأول، ومنها تفرعت اللغات الأخرى، ولكن

خاب ظنه من هذه التجربة. وقام فردريك الثاني- في مطلع القرن الثالث عشر – بتجربة مماثلة، ويقال إن الطفلين ماتا قبل أن يصل الباحثون إلى نهاية تجربتهم. وفي حوالي عام ١٥٠٠م قام جيمس الرابع ملك سكوتلاندا بتجربة مماثلة ادعى بعدها أن الأطفال الذين أقام عليهم تجربته قد استطاعوا أن يتحدثوا باللغة العبرية بطريقة مفهومة، وهو ادعاء واضح الزيف، وكل الدلائل تؤدي إلى رفضه.

وتمت محاولة ثالثة لجأت إلى دراسة طريقة التركيب والتأليف في اللغات التي توصف بالبُدائية والتوحش. وأهم نقد يوجه إلى هذه الطريقة أنها تقوم على أساس الطبقية المزعومة للغات البُدائية، وهذا تصور خاطئ لتلك اللغات. لغويا ليس هناك لغاتٌ بُدائية. نعم هناك لغاتٌ لمجتمعاتٍ ربما أَطْلَقَ علماء الانثروبولوجيا على ثقافتها وصفَ البُدائية، ويَعْنُون بذلك أنها في مجال التسابق على استغلال المصادر الطبيعية وما شابهها قد حققت مستوى هابطا. ولكنّ كلمة "بُدائي" على أي حال ليست وصفا مناسبا يمكن أن توصف به اللغة. وإن الدراساتِ اللغويةَ للغاتِ العالَم لا تقف في جانب الزعم بأن تركيب اللغاتِ يخضع لحجم الثقافة ويتفاوت بحسب حظِّ المجتمعات منها. وإن مفرداتِ اللغةِ في أي وقت إنما تصوِّر بدقةِ الثقافةَ الماديةَ والمعنوية للمتكلمين، ولكنَّ اللغاتِ قد تتجاوب من ناحية المفردات مع التعديلات اللانهائية التي تصاحب التطور الثقافي، ثم تحتفظ في نفس الوقت بخصائصها الصوتية والنحوية القديمة بدون تغيير. وإنها لحقيقة ملموسة تثبتها الملاحظة في ميدان الدراسات اللغويةِ لتلك اللغات التي تُنْسَبُ إلى مجتمعات بُدائية – أن تلك اللغاتِ من الناحية الصوتية أو النحوية لا تقلُّ تنظيما وتناسقا عن تلك الموجودة في غربي أوربا أو في مجتمعاتٍ ذاتِ حظ وافر من الحضارة. كذلك ثبت أن عواملَ التغيير في تلك اللغات ليست أقلَّ نشاطا أو أبطأ فاعلية في حركتها بالنسبة للغات المجتمعات البُدائية عنها في غيرها. وربما كان العكس صحيحا، فإنه يمكن أن يقال إن استخدامَ وسيلةٍ للكتابة ووضع معاييرَ للصواب أو الخطأ كلُّ هذا يعوق التغيير اللغوي في مجالاتٍ خاصة ويجعل لغة الشعب المتحضر أقلَّ تطورا من لغةِ الشعب البُدائي.

إن كلَّ ما يمكن أن يُفعلَ وتُتَوَقَّعَ منه نتائجُ مفيدة، هو مقارنةُ اللغةِ الإنسانية ومكانتها في المجتمعات البشرية بما نجده في المجتمعات الحيوانية من وسائل اتصال ذاتِ شبهٍ كبير باللغة الإنسانية وإن أنظمةً كثيرة كهذه –أكثرُ أهميةً وتركُّبًا من كونها مجردَ صيحات- قد دُرست لكشف علاقاتها بالكلام الإنساني العادي. ونخص بالذكر منها رَقَصَاتِ النحل، والنداءاتِ المعيَّنة لبعض القرودِ في مواقف مختلفة... إلخ . ومن وجهة نظر علم وظائف الأعضاء فإن نداءاتِ القرود قريبةُ الشبه بالكلام البشري لكونها نِتاجَ أعضاءٍ تقابل أعضاءَ النطقِ في الإنسان، ولكونها تُستقبل ويُستجاب لها عن طريق أذنِ السامع. ولكن يجب ألا يغيبَ عن البال أن نُظُمَ السلوك لمثل هذه الأنواع من الاتصال تختلف كثيرا عن نظام اللغة، وبوجهٍ خاص من ناحية التنوع الواسع للكلام الإنساني، وطواعيتِهِ العظيمة، وإمكانياته اللانهائية لتغطية المدى الواسع للتجارب الإنسانية. كذلك تختلف في أن انتقال اللغةِ عَبْرَ القرون أعطى فرصةً لظاهرة التطور اللغوي أن تعمل. وليس هناك ما يجعلنا نفترض أنه خلال استمرار صَرَخاتٍ حيوانية معينة، أو رَقَصَاتٍ نحلية قد حدث أيُّ نوع من التغير، أو أن هناك أيَّ اختلاف بين وسائلِ مجموعةٍ حيوانية معينة في مكان ما عن وسائل مجموعةٍ حيوانية مماثلة تعيش في مكان آخر.

ومع هذا أمكن تعليم كثير من الحيوانات الأليفة كيف تستجيب لنداءات اللغة البشرية، وعُلِّمت طيور مثل الببغاء بعض كلمات اللغة.

ولكن ما هو أعجب من هذا أن الشامبانزي قد أمكن تعليمها عشرات من الكلمات بطريقة الرموز اللغوية، وعن طريق نماذج بلاستيكية أصبحت قادرة على أن تكوّن هذه الكلمات، وتجمع الأحرف في مجموعات تشبه الجمل التي يقدمها الطفل في حياته المبكرة.

وقد افترض بعض اللغويين مراحل ثلاثا متتابعة مرّت بها اللغة في نشأتها، وهي مرحلة الصراخ، ثم مرحلة المدّ أو استخدام الحركات، ثم مرحلة المقاطع التي ظهرت فيها الأصوات الساكنة. وكانت اللغة في أول أمرها تدل مفرداتها على معانٍ جزئية، ثم

انتقلت إلى التعبير عن المعاني الكلية، وظهرت فيها أولا أسماء الذوات، ثم الصفات، ثم أسماء المعاني، ثم الأفعال.

ورغم كل ما بذل من محاولات يظل موضوع لغة الإنسان الأول ونشأة اللغة الإنسانية من الأسئلة المغلقة التي عجز العلم عن الإجابة عنها، ووقف حائرا أمام اكتشاف سرها، ومعرفة كنهها.

كيف يتم النطق عند الإنسان ؟
وهل هناك حيوان ناطق غيره؟

أبدأ بإجابة السائل عن الشقِّ الثاني من السؤال وهو: هل هناك حيوانٌ ناطق غيرُ الإنسان فأقول: إذا أخذنا النطقَ بمعنى مجردِ التَّفَوُّهِ ببعضِ كلماتٍ فإن هناك من الحيوانات العليا والطيورِ ما يمكن أن يقلِّدَ الإنسانَ ويحاكيَهُ في التلفظ ببعضِ الكلماتِ، ولعلَّ أشهر الطيور القادرة على ذلك البَبْغاء. أما إذا أردنا بالنطق الكلامَ المرتبطَ بالتفكير فلا يوجد سوى الإنسانِ من بين الحيوانات من يَقْدِرُ على النطق، وهذه من الصفات التي فضَّل الله بها الآدميين على غيرهم وهو مصداق قوله تعالى: **"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"**. (الإسراء: ١٧) وحين أطلق المناطقةُ على الإنسان وصفَ حيوانٍ ناطق لم يَعْنُوا مجردَ النطق ببعض كلمات، وإنما عَنَوْا التفكيرَ في المقام الأول. وكثير من الفلاسفةِ وعلماءِ اللغة لا يَفْصِل بين اللغة والفكر بل يعتبرهما وجهين لورقة عملة واحدة. فالإنسان حين يفكر إنما يفكر بواسطة اللغة، وحين يتكلم لابد أن يسبق كلامه عمليةٌ عقليةٌ؛ ولذا سمى بعضهم التفكير باللغة الصامتة، وأثبت بعضهم أن الإنسان حين يفكرُ يدبُّ النشاطُ في جهازه النطقي في نفس الوقت ويُحْدِثُ حركاتٍ غيْر مسموعة، ولكن يمكن تسجيلها وملاحظتُها بالأجهزة الدقيقة.

أما كيف يتم النطقُ عند الإنسان؟ فذلك نِتاج تعاونٍ تامٍ بين جملة من الأعضاء والأجهزة البشرية، يتم التنسيقُ بينها ويُشْرِفُ على تحريكها مركزُ القيادة أو التسيير في الدماغ. وحين تصل الأوامرُ إلى أعضاء النطق عن طريق الأعصاب المحرِّكةِ الموجودةِ في القشرة الدماغية- تتقلصُ العضلاتُ المشاركةُ في عملية الكلام، ومنها عضلاتُ الجهازِ التنفسيِّ المولدِ للطاقة الصوتية ومنها عضلاتُ الحنجرةِ وبخاصةٍ الأوتارُ الصوتية ومنها عضلاتُ البلعومِ وسقفِ الحنك واللسانِ والفكين. ويرى بعضُ الباحثين أن هناك مراكزَ

معينةً في الدماغ لوظيفة اللغة وأن هناك مناطقَ في الدماغ مسئولةً عن تنسيق العمليات الحسية الحركية اللازمة للتكلم. وهذه المناطقُ والمراكز هي: المركز الحسيُّ لأصوات اللغة - مركز التنسيق بين حركات التلفظ- المركز الحسيّ للعضلات المُحْدثة للتصويت- المركز الحسّيُّ البصري للقراءة- مركزُ السمع- مركزُ البصر -مركزُ تحريكِ عضلاتِ الوجه والحنجرة واللسان — مركزُ تنسيق حركات اليد.. وغيرُ ذلك.

وحينما يستعد الإنسان للكلام العادي يستنشق الهواءَ فيمتلئ صدرهُ به قليلا. وإذا أخذ في التكلم فإن عضلاتِ البطنِ تتقلصُ قبل النطق بأول مقطع صوتي ثم تتقلصُ عضلاتُ القفصِ الصدريِّ بحركاتٍ سريعة تدفع الهواء إلى أعلى عبر الأعضاء المنتجة للأصوات. وتواصل عضلاتُ البطن تقلصاتِها في حركةٍ بطيئة مضبوطة إلى أن ينتهي الإنسانُ من الجملة الأولى. فإذا فَرَغَ منها فإن عمليةَ الشهيق تملأ الصدر ثانية وبسرعةٍ استعدادًا للنطق بالجملة التالية وهكذا.

ومعنى هذا أن العمليةَ الكلامية تتم في شكلها الأساسي عن طريق التحكّم في هواء الزفيرِ الصاعدِ من الرئتين. ولا نعلم لغةً تعتمد على هواء الشهيق في إنتاج الصوت، وإن أمكن أن تُنْتجَ أصواتٌ خلال عملية الشهيق أيضا، ولكن هذا إن حدثَ يكون استثناءً فقط. ومثلُ هذه الأصوات تُسمع بين الأطفال وتَقَعُ عند الكبار في حالة النشيج أو الانتحاب.

وتختلف العمليةُ الكلامية عن التنفس العادي في أن الثانيَ يتم بصورةٍ صامتةٍ في العادة لتحرُّكِ تيار الهواء دون عوائق، أما العمليةُ النطقية فلا يمرُّ الهواء معها حرا طليقا -كما يحدث في حالة التنفس — وإنما يصادف الهواءُ في اندفاعه إلى الخارج أنواعًا من الضغط والكبح والتعويق. والهواءُ حين يُكبح يولِّد صوتا، وأوضح أمثلة على ذلك تشغيلُ الآلات الموسيقية الهوائية وحركةُ الريح بين الأشجار.

وكل نقطة على طول مجرى الهواء من الحنجرة حتى فتحة الفم أو الأنفِ يمكن التحكمُ في الهواء عندها فتكونُ مخرجا للصوت أو نقطةَ إنتاجٍ له. ورغم أن هذه النقاطَ غير محدودة وبالتالي فإن عددَ الأصوات الممكنِ نُطْقُهُ غيرُ محدودٍ كذلك فقد لوحظ أن

كل لغة تختار لنفسها عددا معينا من هذه النقاط يمتد على طول مناطق متباعدةٍ حتى يَسْهُلَ على الأذن العادية التعرفُ عليها.

وأهمُّ النقاط التي يتم التحكم عندها هي:

*المنطقةُ المحصورة بين الشفتين؛ وتُنتج أصواتًا مثلُ الباء والميم.

*المنطقةُ المحصورة بين الشفة السفلى والأسنانِ العليا؛ وتُنتج صوتا مثلُ الفاء.

*المنطقةُ المحصورة بين طرفِ اللسان والأسنان العليا؛ وتُنْتج أصواتا مثلُ الظاء والذال والثاء.

*المنطقة المحصورة بين طَرَفِ اللسان واللِّثة؛ وتُنتج أصواتا مثلَ النون واللام والراء.

*المنطقةُ المحصورة بين جزء من اللسان وجزء من سقف الحلق؛ وتنتج أصواتا مثلَ الجيم والكاف والخاء والغين .

*المنطقة المحصورة بين الحائطين الخلفي والأمامي للحلق أو بعبارة أخرى بين جذر اللسان ومؤخَّر الفم؛ وتُنتج العين والحاء.

*المنطقة المحصورة بين الوترين الصوتيين في الحنجرة؛ وتنتج الهاء والهمزة.

وتتعدد طرقُ التحكمِ في الهواء الصاعد بين الغلقِ التامِ ثم الفتح فَيَحْدُثُ انفجارُ (ب) أو التضييق فَيَحْدُثُ احتكاك (س) أو القفلِ في مكان والفتح في مكان آخر (ل-ن) أو القفلِ المتكرِّر (ر)

كما أن هناك تجاويفَ متعددة في جهاز النطق تقوم بدور حجر الرنين لتضخيم الصوت أو ترقيقه وأشهرُ هذه التجاويف: تجويف الحلق، وتجويف الفم، وتجويف الأنف، وتجويف رابع يمكن تكوينه عن طريق إبراز وإدارة الشفتين. ويتميز تجويف الفم بأنه قابل للتشكل والتحكم توسيعا وتضييقا بحركة الفك الأسفل وحركة اللسان بخلاف تجويف الأنف الذي له شكل وحجم ثابتان ولذا فتأثيرُه كحجرة رنين تأثير ثابت.

وتسمية الأعضاء السابقِ ذكرُها بأعضاء النطقِ أو الكلام تسمية مجازية لأن هذه الأعضاءَ في الحقيقة تقوم بوظيفةٍ أساسية لحفظ حياة الإنسان؛ فالرئتان تنقلان الأوكسوجين إلى الدم. والأوتارُ الصوتية تساعد على منع الأجسام الغريبة التي ترفضها الرئتان من الدخول إلى مجرى الهواء الواصل للرئتين. واللسانُ يدفع الطعام دائريا داخلَ الفم حتى يمكنَ طحنه طحنًا جيدا ثم يحوِّلُه إلى شكل معين من أجل البلع. والشفتان صمامٌ لحفظِ الطعام من الانتشار أثناء المضغ وتستعملان كذلك في المص والبصق. والأسنانُ والأضراس تستعملان لتقطيع الطعام ومضغه. والتجويفُ الأنفي حجرةٌ لتكييف الهواء قبل هبوطه إلى الرئتين.. ولكن الضرورة الاجتماعية بالإضافةِ إلى الذكاء الإنساني خَلَقَا وظيفةً ثانوية لهذا الجهاز الحيوي وهي وظيفة النطق اللغوي.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

لغة الحيوان

ليس الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي وهبه الله القدرة على التفاهم ومنحه وسيلة الاتصال ببني جنسه، وإنما يشركه في ذلك سائر الكائنات الحية من حيوانات وحشرات وطيور. وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى هذه الحقيقة فقال: **"قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم"**، وقال عن سيدنا سليمان: **"يأيها الناس علمنا منطق الطير"**، وقال عن الهدهد في خطابه لسيدنا سليمان **"أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين"**.

وتتخذ الكائنات الحية غير البشرية وسائل متنوعة للتفاهم أهمها الوسائل الثلاث الآتية:

الوسيلة الأولى: التفاهم عن طريق الأصوات. وتتفاوت الحيوانات في ذلك تفاوتا كبيرا. فالثدييات منها تملك جهازا متطورا للصوت يتمثل في الحنجرة التي تماثل حنجرة الإنسان في تركيبها ووظيفتها. ولكنها لا تنطق مثل الإنسان لأن جهازها العصبي خال من مراكز الكلام والمعلومات والذاكرة، مع النقص الكبير في نمو فصوص المخ الأمامية والجانبية، وما يتبع ذلك من عدم القدرة على التخيل والتفكير والابتكار. وكل ما تستطيع أن تفعله إخراج النداءات الصوتية بطريقة معينة متكررة تحمل نفس النغمة والتردد والدرجة الصوتية مثل نباح الكلب، وعواء القط، ونهيق الحمار، وخوار الثور، وصهيل الفرس، وزئير الأسد.

وتملك الطيور أجهزة صوتية أكثر نموا وتقدما، كما أنها تتفوق في قدرتها على التحكم في أصواتها وتحويرها وتغييرها، وبخاصة الطيور الناطقة التي تستطيع أن تقلد أصوات الإنسان والحيوان مثل الببغاء. ويتكون جهاز الصوت عند الطيور من حنجرة عظميّة صغيرة اسمها "المصفار" تقع في أسفل القصبة الهوائية قبل تفرعها إلى شعبتين هوائيتين. ويوجد داخل حجرة "المصفار" غشاء رقيق يمتد في وسطها وغشاءان أقل

حجما على جانبيها. وهذه الأغشية الثلاثة تهتز مع دخول الهواء إلى الجهاز التنفسي وبفعل العضلات، فيصدر منها أصوات مختلفة. ومعنى هذا أن أصوات الطيور تنشأ عند دخول الهواء إلى الرئتين، أي أثناء الشهيق، وهي بهذا تختلف عن سائر الحيوانات التي تملك حنجرة للصوت، فهي تخرج أصواتها مع هواء الزفير.

وتصدر عن عديد من الأسماك أصوات تعتبر بمثابة لغة تتفاهم بها. فالأسماك ليست خرساء كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكننا لا نسمع أصواتها إلا إذا غصنا تحت الماء. وقد تمكن العلماء من التقاط هذه الأصوات عن طريق مكبرات للصوت.

وقد عوض الله الخفاش عن ضعف بصره وميله إلى الطيران ليلا بأن منحه "رادارا صوتيا" يمكنه من الطيران بسرعة كبيرة واصطياد الحشرات في الظلام الدامس بكل دقة. إنه يصدر بفمه صوتا رفيعا متقطعا عالي التردد يجاوز المدى الذي تستطيع أذن الإنسان سماعه. وهو يصدرهذا الصوت في جميع الاتجاهات على شكل موجات صوتية تسير في خط مستقيم حتى إذا اصطدمت بأي جسم مهما كان صغيرا فإنها ترتد ثانية منعكسة على نفسها فتستقبلها أذن الخفاش الرادارية فتعرف موقع الجسم ومكانه وحتى حجمه وشكله.

ولا تصدر كل الأصوات الحيوانية عن الفم فمنها ما يصدر عن طريق الاهتزاز المنتظم المستمر للأجنحة أثناء الطيران، كما في الذباب والبعوض والنحل، أو عن طريق احتكاك جزء من الحشرة بجزء آخر مثل احتكاك الأجنحة الأمامية بالخلفية، أو الأرجل بالأجنحة، أو الأجنحة بالجسم، كما في الجراد والقنفذ وبعض الخنافس، أو عن طريق قرع الرأس على أي جسم صلب خارجي بطريقة مستمرة متتالية، كما هو الشأن في النمل الأبيض وبعض الخنافس.

أما **وسيلة التفاهم الثانية** التي تلي الأصوات في الأهمية فهي إصدار الحركات والإشارات المعينة. ومن ذلك تحريك الذيل في كل اتجاه عند ثعبان الكوبرا. وحركات الطيور؛ المعينة، وأهمها حركات النحل ورقصاته التي يؤديها بصور مختلفة. فقد تكون الرقصات دائرية متلاحقة، وقد تكون دائرية بطيئة، وقد تكون مستقيمة، وقد تكون

اهـتزازية.. وهي في كل حالة تعبر عن معنى مختلف كالإشارة إلى وجود الطعام، أو بيان اتجاهـه، أو تحديـد المسـافة اللازمـة للوصول إليه. وقد تعني الرقصة أشياء أخرى مثل: "تعـال هنا"، أو "اهرب من هنا"، أو "النجدة إننا في خطر". بل قد تعني ما هو أدق مـن هذا مثل: "طر في خط مستقيم بانحراف عشرين درجة على يسار الشمس، وعلى بعد مئتي متر فستجد مساحة من أزهار البرتقال".

ووسيلة التفاهم الثالثة لدى الحيوان تعتمد على حاستي الشم والبصر؛ إما عن طـريق اسـتقبال روائح معينة، أو تفسير إشارات ضوئية خاصة. وتختص بالطريقة الأخيرة الحـيوانات الـتي تنشـط لـيلا حيث تصدر وتستقبل الإشارات الضوئية ذات التردد المعين كما هو الحال في بعض الحشرات المضيئة. هذه الإشارات ذات دلالات مختلفة يفهمها أفراد النوع نفسه، وتختلف في ومضاتها ودلالاتها من نوع إلى آخر.

وقـد يتسـاءل الآن متسـائل: إذا كـان للحـيوان لغـة يـتفاهم بها كما للإنسان، فلماذا اخـتص الإنسـان بوصـف الـنطق مـن بـين جمـيع الحـيوانات فقيل في تعريفه إنه "حيوان ناطق"؟

والإجابـة تتمـثل في الفـروق الكـثيرة التي تميز لغة الحيوان عن لغة الإنسان. فلغة الحيوان لغة طبيعية يولد بها ولا تعد مكتسبة كلغة الإنسان، وهي لغة تقوم على الحركات والإشـارات الموجهـة إلـى العـين أكـثر ممـا تقـوم على الأصوات الموجهة للأذن. وحين تسـتخدم فيها الأصوات فلا تخرج عن كونها مجرد تعبير عن انفعال. كما أن لغة الحيوان دائمـا هـي هـي لا تـتطور مـن عصر إلى عصر ولا تختلف من بلد إلى بلد. وإذا كانت بعـض الحيوانات- كالببغاوات – تملك القدرة على النطق ببعض الكلمات، فليس هناك ما يـدل علـى فهمهـا لمـا تقـول، أو أنهـا تفكر مثلنا قبل أن تنطق، أو أنها تستعمل هذه الكلمات عندما يتحدث بعضها إلى بعض.

وهناك على الجانب الآخر مميزات تختص بها لغة الإنسان منها أنها اللغة الوحيدة القادرة على نقل مختلف المشاعر وتصويرها، والقادرة على تدوين العلوم والفنون والآداب بما تحويه من خيال وإبداع، فيصنع الإنسان بذلك تراثا يميزه عن الحيوان، وهو ما نطلق عليه لفظ "الثقافة". فكما أن الإنسان حيوان ذو تاريخ، كما يحلو لبعضهم أن يعرفه، فهو أيضا حيوان ذو ثقافة.

ومن هذه المميزات كذلك أنها لغة كلامية تعتمد على الكلمات التي لا تقف عند كونها مجرد أصوات يصدرها فم الإنسان، ولكنها تتجاوز ذلك لتصبح نظاما صوتيا مركبا يشترك في إنتاجه جهاز النطق البشري بالنسبة للمتكلم، وجهاز السمع بالنسبة للسامع، وتسبقه وتصاحبه وتعقبه عمليات عقلية كثيرة لا تتوفر في أي لغة من لغات الحيوانات.

وميزة أخيرة للغة الإنسانية نشير إليها وهي أنها في استعمالها العادي لغة تجددية، بمعنى أن جزءًا كبيرًا مما نقوله حين نستعمل اللغة هو جديد تمامًا وليس تكرارًا لما سمعناه من قبل. ولهذا قيل إن الاستعمال اللغوي إبداعي أو خلاّق لأنه يعني القدرة على فهم جمل ونطق جمل لم تسمع من قبل.

فمن أجل هذا التميز الواضح للغة الإنسان وتفوقها على سائر لغات الحيوانات، ولمرونة هذه اللغة وقابليتها للتركب والتطور، ولقدرتها على التعبير عن جميع الأفكار اعتبرت المميز الحقيقي الذي يفرق بين الإنسان والحيوان.

وصدق الله العظيم إذ يقول: **" ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " .**

من أول من وضع النقاط على الحروف؟ وكيف؟

النَّقْطُ نقطان: نقطُ الإعجام ونقط الشكل. أما نقط الإعجام فقد استُخدم بقصد التمييز بين الأحرف المتشابهة في الكتابة مثل الباء والتاء والثاء ومثل السين والشين ومثل العين والغين وغير ذلك. وسمى نقطَ الإعجام لأن العُجْمَةَ تعني في لغة العرب الغموضَ والإبهام. والإعجامُ هو إزالة هذا الغموض. فلما كان هذا النوع من النَّقْط يُزيل الاشتباه والالتباس بين الأحرف سُمي إعجاما.

وأما نَقْطُ الشكل فهو النقط الذي استُخدم في فترةٍ ما من تاريخ اللغة العربية لتمثيل الضمة والكسرة والفتحة أو ما يُعرف الآن باسم الحركات أو العلل القصيرة.

ولكل نوع من هذين النوعين تاريخٌ مستقلٌ عن الآخر ولذا سنتناول كلا على حدة.

ونبدأ بنقط الإعجام فنقول إن كلَّ النقوش الجاهلية التي عُثر عليها كانت خاليةً من نقط الإعجام خُلُوًّا كاملا. وجاءت رسائلُ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحُكَّامِ بدون نَقْط كذلك. وقد عُثِر على ما يُظنُ أنه الأصول الحقيقيةُ لرسائله إلى المقوقِس عظيم القبط في مصر، وإلى المنذر بن ساوى صاحبِ البحرين وغيرهما، وجاءت جميعُها بدون نقط. وحينما كُتب مصحفُ عثمان كُتب خاليا من النَّقْطِ مما أوقع بعضَ العوامّ من القارئين في الخطأ. فقد سُمع أحد العوام يقرأ: ذلك الكتاب لا زَيْتَ فيه بدلا من: لا ريب فيه. وسُمع بعضهم يقرأ: جعل السفينةَ في رجْل أخيه بدلا من جعل السِّقاية في رَحْل أخيه. وقرأ بعضهم: وما عَلَّمْتمْ من الخوارج مُكَلِّبين بدلا: من الجوارح مكلبين.

لم ينج من التصحيف في القرآن كبارُ اللغويين. فهذا حمادُ الراوية يشي به بشارُ ابنُ بردٍ إلى أمير البصرة قائلا: إنه يَرْوي جُلَّ أشعار العرب ولا يُحسنُ من القرآن غيرَ أمِّ الكتاب. فيسأله الأميرُ أن يقرأ في المصحف فيصَحّفُ في عدةِ آيات منها: وأوحى ربكَ إلى النَّخْل أن اتخذي من الجبال بيوتا بدلا من: وأوحى ربكَ إلى النحل..

ومن تصحيفات المحدِّثين ما رواه بعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يَسْتحبُ العسل في يوم الجمعة، وإنما كان يستحب الغُسْل فيه.

لكن عثر على بَرْدِيَّةٍ يرجع تاريخها إلى عام ٢٢ على عهد عمر بن الخطاب وهي مكتوبة باللغتين العربية واليونانية وقد نقطت فيها حروفُ الخاء والذال والزاي والشين والنون. كما عُثر على نقش بقرب الطائف يرجع تاريخه إلى عام ثمانية وخمسين في عهد معاوية نقطت فيه أكثرُ حروفه التي تحتاج إلى نقط. كما أن هناك إشاراتٍ في المراجع العربية تدل على وجود النقط في الجاهلية. ومن ذلك:

أولا: ما روي عن ابن مسعود وهو قوله: جَرِّدوا القرآن. قال الزمخشري: أي من النَّقْط والفَواتح والعُشور.

ثانيا: ما يرجحه القلقشندي في صبح الأعشى من أن الإعجام وضع مع وضع الحروف. وهذا الرأي الأخير هو الأكثر قبولا في نظري إذ يَبْعُدُ أن تكون الحروفُ المتشابهةُ قد وُضعت أول أمرها على هذا اللَّبْس. ومع هذا فقد كان العربُ الخُلَّصُ، يعتبرون نَقْطَ الكِتاب سُوءَ ظنٍّ بالمكتوب إليه. ولذا كانوا يُجَرِّدون كُتُبَهُمْ من النقط. وفي ذَمِّ النَّقْطِ يقول أبو نُواسٍ في كاتبٍ نَقَطَ كتابًا أرسله إليه وشَكَله:

لم تَرْضَ بالإعجام حين كَتَبْتَه ... حتى شَكَلْتَ عليه بالإعراب
أحسستَ سوءَ الفهم حين فعلتَه ... أم لم تثقْ بي في قِراةِ كتاب
لو كنتَ قَطَعْتَ الحروفَ فهمتُها ... من غير وصلِكَهُنَّ بالأنساب

ولكن حينَ اختلطَ العربُ بالأعاجم وكَثُرَ التصحيفُ في القرآنِ والحديثِ النبوي والشعرِ العربي وُجدت الحاجةُ المُلِحَّةُ إلى التزامَ النَّقْط في الكتابة. وتَحَمَّسَ لذلك الحجاجُ ابنُ يوسفَ الثقفي وكَلَّفَ كُلاً من نصرِ بنِ عاصمٍ ويَحيى بنِ يَعْمُر بوضع ضوابطَ دقيقةٍ للإعجام، وكان ذلك في خلافة عبد الملك بنِ مروان في الثلث الأخيرِ من القرنِ الأول الهجري، فالتُزم النَّقْطُ، بعد ذلك وأعيد ترتيبُ الأحرف بوضع الثُّلاثيَّاتِ أَوَّلاً (ب ت ث) و (ج ح خ) ثم الثنائيات (د ذ – ر ز – س ش – ص ض ..) ثم المفردات (ك ل م

ن هـ و ..) وروعي في النَّقْط أن يكونَ أفرادا وأزواجا وأثلاثا. كما روعيتِ المخالفةُ بين أماكِن النَّقْط بتوقيع بعضها فوقَ الحروف وبعضِها تحتَ الحروف. وقد عَصَم هذا النقطُ القارئ من الخطأ في تمييز الحرف. فلو كتبت كلمةُ مثلُ "بنت" بدون نقط لاحتملت أن تكون: بنت — بيت — نبت — ثبْت — ثيِّب — تبَت- نيب.. إلخ

أما نقطُ الشَّكْل فهو بكل تأكيد حادثٌ بعد الإسلام، ولم يرد في أي وثيقة أو بَرْديةٍ قبل أبي الأسود الدؤلي الذي يُنسب إليه الرمزُ إلى الضمة بنقطة (من مداد يخالف مدادَ الكتابة) وتوضَعُ بينَ يدي الحرف، وإلى الفتحة بنقطة فوق الحرف، وإلى الكسرة بنقطة تحت الحرف. ومن المعروف أن هذه النقَاطَ لم يبتدعْها أبو الأسود ابتداعا، وإنما أخذها عن السريانِ وبالتحديد عن النساطرة .

وبمرور الوقتِ وصعوبةِ حصول الكاتب على مدادين مختلفين أثناء الكتابة يَكْتُبُ بأحدهما الكلماتِ، ونقاطَ الإعجام، وبالآخر نقاطَ الشكل، ولاضطراره أحيانا إلى كتابة الاثنين بمداد واحد، مما كان يُوقع في لبس، فَكَّر الخليلُ بن أحمد المتوفى عام ١٧٥هجرية في الاستعاضة عن نَقْط الشكل برموزٍ أخرى هي تلك الرموز التي نستعملها الآن، فرمَزَ للفتحة بجرَّةٍ عُلْوية وللكسرة بجرَّةٍ سفليةٍ وللضمة برأس واو وللسكون بدائرة أو برأس جيم بلا نقط، وللشَّدة برأس شين بغير نقط وللهمزة برأس عين، ولألف الوصل برأس صاد.

وبهذا صار من الممكن أن يجمع الكاتب بين شكل الكتاب ونَقْطِهِ بلونٍ واحد ومداد واحد دون لبس.

من واضع علم النحو والصرف؟ وكيف تم ذلك؟

لم يُؤْثر عن العرب أيُّ نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم التي عُرفت لها دراساتُ لغويةٌ مبكرة مثلُ الهنودِ واليونانيين والمصريين القدماء والصينيين والسريانيين.

ولم يكن البحثُ اللغويُّ عند العرب من الدراسات المبكّرة التي خَفُّوا لها سراعا لأنهم وجهوا اهتمامَهم أولا إلى العلومِ الشرعية والإسلامية. وحين فرغوا منها أو كادوا، اتجهوا إلى العلوم الأخرى. وما وُجد من تأملات أو ملاحظاتٍ نحويةٍ أو لغويةٍ في القرن الأول الهجري لم يُقصد لذاته وإنما لأنه خادم للنص القرآني. ومن ذلك محاولةُ أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف بالشكل (توفي أبو الأسود عام تسعة وستين للهجرة) وذلك حين استحضر كاتبا وأمره أن يتناول المصحف وأن يأخذ صبْغًا يخالف لون المداد فيضعَ نقطة فوق الحرف إذا رآه يفتح شفتيه وهذا هو رمز (الفتحة) ويضع نقطة تحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه وهذا رمز (الكسرة) ويضع نقطة بين يدي الحرف إذا رآه يضمُّ شفتيه وهذا رمز (الضمة) أما إذا أتبع الحرف الأخيرَ غُنَّةً فيضعُ نقطتين فوقَ بعضهما، وأما الحرف الساكن فقد تركه.

ومن المعقول أن يكون جمعُ اللغة قد سبق الدرسَ النحويَّ، لأنه لا يمكن القيامُ بالأخير بدون مادةٍ توضع تحت تصرف النحوي وبعبارة أخرى لأن تأليفُ النحو أو تقعيدَ القواعد ما هو إلا فحصٌ لمادة لغوية تَمَّ جمعُها بالفعل ومحاولةٌ لتصنيفها واستنباطِ الأسسِ والنظرياتِ التي تحكمها. وأفضلُ ما يعبِّرُ عن ذلك ما جاء في المزهر للسيوطي، وهو قوله "اعلم أن اللغويَّ شأنُه أن ينقل ما نطقتْ به العربُ ولا يتعداه، وأما النحويُّ فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه. ومثالهما المحدِّثُ والفقيه فشأن المحدِّثِ نقلُ الحديث برُمَّته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرفُ فيه ويبسطُ فيه علله ويقيسُ عليه الأشباهَ والأمثال".

أما كيف نشأ النحوُ العربي؟ ومن أول من ألف فيه؟ وما الصورة الأولى التي ظهر فيها هذا النحو قبل أن يَنْضَجَ على يدِ الخليل وسيبويه فهي أسئلة ما نظنُّ أن في أيدي أحدٍ الإجابةَ عنها أو الردَّ عليها بحسم. وأغلبُ الظَّنِّ أنها ستظلُّ معلقةً حتى نعثرَ على مادةٍ جديدة تكشفُ عن بداية النحو العربي، وتُلقي الضوءَ على أوَّلياته وتضعُ حدا للإرهاصات والتنبؤات التي تحيط بنشأته. ومن المادةِ المبكرةِ المفقودة في النحو العربي:

أولا: الصحيفةُ المنسوبة إلى عليٍّ بنِ أبي طالب أو لأبي الأسود الدؤلي.

ثانيا: الزياداتُ التي زادها ميمونُ الأقرن، على أستاذه أبي الأسود.

ثالثا: كتابُ نصر بن عاصم(توفي عامَ تسعة وثمانين أو تسعين هجرية) وهو الكتاب الذي ألفه في النحو.

رابعا: كتابا "الإكمال" و "الجامع" لعيسى بنِ عمرَ الثقفي المتوفى عام مائة وتسعة وأربعين.

ومع هذا فنحن نقدم للسائل أهم الأقوال التي تحدثت عن نشأة النحو العربي.

فمن ذلك رأيُ ابنِ فارس أن النحوَ العربيَّ قديمٌ بقدم هذه العربية ومُنَزَّلٌ كتنزيلها، وأنه كان معروفا ومدروسا من قديم ثم تُنوسيت قواعدُه وأتت عليها الأيام حتى جاء النحاة فأحيَوْا ما اندثر منه.

ومن ذلك ما يقوله ابن النديم في الفهرست من أنه رأى بنفسه أربعَة أوراق قديمةٍ كُتب عليها: هذه فيها كلامٌ في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي.

ومن ذلك ما يقوله ابنُ النديم كذلك من أن عليَّ بنَ أبي طالب هو أول من وضع النحو. وبعضهم يوفق بين الرأيين مثل ابن الأنباري فيقول: إن عليَّ بنَ أبي طالبٍ رفع إلى أبي الأسود الدؤلي نصًّا جاء فيه: "الكلام كلُّه اسمٌ وفعل وحرف. فالاسم ما

أنبأ عن المسمى. والفعل ما أنبئ به. والحرف ما أفاد معنى. واعلم أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر". ثم يمضي ابنُ الأنباريِّ قائلا: "ثم وَضَعَ أبو الأسود بَابَي العطفِ والنعتِ ثم بابي التعجبِ والاستفهام إلى أن وصل إلى بابِ إنّ وأخواتِها ما خلا "لكن" فلما عرضها على عليٍّ أمره بضمِّ "لكن" إليها. وكلما وضع بابا من أبواب النحو عرضه عليه".

ويختلف من قالوا إن أبا الأسودِ هو واضعُ النحو في الباعث له على ذلك. فيقول بعضُهم إن عليَّ بن أبي طالب هو الذي أوعز إليه بوضع النحو، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ومن قائلٍ إنه زيادُ بنُ أبيه ومن قائل إن أبا الأسود اتجه بنفسه إلى وضع النحو حينما سمع قارئًا يقرأ: لا يأكله إلا الخاطئين (بدلا من: لا يأكله إلا الخاطئون) أو قارئًا يقرأ: "إن الله بريء من المشركين ورسولِهِ" (بدلا من : ورسولُه) وقيل: إن السبب أن ابنته قالت له: ما أحسنُ السماءِ تريد التعجب ولكن فهم الاستفهام فقال لها: نجومُها. فقالت له : يا أبت إنما أخبرُك ولم أسألْك فقال لها: إذن فقولي: ما أحسنَ السماءَ.

ويتبين من هذا أن السببَ الأساسيَّ في وضع النحو – مهما كان واضعه - هو ما فشا من لحنٍ عقبَ الفتوحات الإسلامية وامتدادِ آفاقِ اللغة العربية إلى مجالات لم تُتَحْ لها من قبل وفسادِ الألسنة حتى بالنسبة للعرب أنفسهم نتيجةَ اختلاطهم بالأجانب. ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما رُوي عن الحجاج بن يوسفَ الثقفي أنه سأل يَحْيى بنَ يعمر: أتراني أَلْحَنُ على المِنبر فقال يحيى خوفا من سطوة الحجاج: الأميرُ أفصح إلا أنه لم يكن يروي الشعر. فكرر الحجاج سؤاله فقال يحيى: نعم في آي القرآن. فقال الحجاج: فذاك أشنع. وما هو؟ قال يحيى: تَقُولُ: "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم... أحبُّ إليكم من الله ورسوله.." وصحتها أحبَّ. فقال له الحجاج: والله لن تسمعني أَلْحَنُ بعد ذلك ونفاه إلى خراسان. ومن هذا ما روي عن عمرَ بن عبد العزيز أنه لَحَن لَحْنَةً فَنُبِّه إليها فحبس نفسه في منزله ومعه من يعلِّمُهُ العربية ولم يخرجْ

على الملأ إلا وهو أفصح الناس. ويُروى كذلك أن عبدَ الملكِ بن مروان حين سُئل: لماذا عَجِل الشَّيْبُ إلى رأسك يا أميرَ المؤمنين، قال: شيبتْني مواقفُ الخطابة وتوقعُ اللحن.

وتمضي الأيام والسنوات بَعد علي وأبي الأسود حتى يأتيَ الخليلُ بنُ أحمد (من عام ١٠٠ إلى عام مائة وخمسة وسبعين هجرية) وتلميذُه سيبويه، الذي يُعدُّ إمام النحاة بلا منازع. وقد جمع في مؤلفه المسمى "الكتاب" مباحثَ النحو والصرف بصورة كاملةٍ أو شبهِ كاملة حتى أطلقوا عليه " قرآنَ النحو" وحتى قال أبو عثمانَ المازنيُّ (المتوفى عام تسعةٍ وأربعين أو ستةٍ وثلاثين ومائتين): من أراد أن يعملَ كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي.

أما أولُ من ألف في الصرف تأليفا مستقلا فيقال هو مُعاذُ بنُ مسلم ألهراءُ الكوفي المتوفى عامَ سبعة وثمانين ومائة ويقال هو أبو عثمانَ المازني في منتصف القرن الثالث الهجري ويقال هو أبو الحسن الأخفش أستاذ المازني والله أعلم.

ما اسم أول معجم ظهر في اللغة العربية؟ ومن مؤلفه؟ وكيف رتبه؟

أولُ معجمٍ شاملٍ ظهر في اللغة العربية هو معجم "العين" للخليل بن أحمد المتوفَّى عام خمسة وسبعين ومائة هجرية. وسماه الخليلُ "العينَ" لأنه بدأه بحرف العين. ذلك أن الخليل بنَ أحمد لم يرض أن يَتَّبِعَ الترتيبَ الهجائيَّ العاديَّ- رغم سهولته- واتّبع ما يُعرف بالترتيب الصوتي الذي يبدأُ بأعمقِ الأصوات مخرجًا ثم يتدرجُ حتى يصلَ إلى أصوات الشفتين. وقد وجد الخليلُ بحسِّه الدقيق أن الهمزةَ رغم أنها أعمقُ الأصوات إلا أنها لا تستقرُّ على حالٍ في لغة العرب فمنهم من يسهِّلُها ومنهم من يَحْذِفُها ومنهم من يَقْلِبُها حرفا آخر ولهذا كره أن يبدأ بها المعجم. ووجد أن الهاء أختُ الهمزة في العمق ولكنه وجدها صوتا خفيا لا يظهر إلا بمشقة ويكاد يختفي عند الوقفِ ولذا تركه هو أيضا وبدأ بصوت العين الذي يلي الهاءَ والهمزةَ في المخرج لأن العينَ أوضحُ وأنصعُ في السمع.

وقد واجهتِ الخليلَ حين فكر في صنع معجمه مشكلتان هما مشكلةُ جمع المادة ومشكلةُ ترتيبها. وقد هَدَتْه عبقريتُه إلى نظام فريد يجمع به مادته وهو نظامُ الإحصاء الرياضي. وخلاصة ما فعله أنه وجد الكلماتِ في اللغة العربية إما على حرفين أو ثلاثةٍ أو أربعةٍ أو خمسة ووجد عددَ أحرف الهجاء ثمانيةً وعشرين فقام بعملية "توافيق" أو بناءِ كلماتٍ نظريةٍ عن طريق أخذ كل نوع من الأنواع السابقة وهي الثنائيُّ والثلاثيّ والرباعي والخماسي وتجربة جميع حروفِ الهجاء معه. فالثنائيُّ مثلا يمكن حصرُ كلماته عن طريق تثبيتِ الحرف الأول على الهمزة وتكوين كلمات من الهمزة وحرف ثان مستوعب جميعَ الأحرف الهجائية . وينتقل إلى الباء فيثبِّتُها كأول ويجرِّب معها باقي الأحرفِ الهجائية كثانٍ. ويفعلُ هذا مع التاء والثاء وهكذا حتى يستوعب جميعَ أحرف الهجاء. ويمكن تطبيقُ نفس الفكرة – ولكن بصورةٍ أكثرَ تعقيدًا – مع كل من الثلاثي

والرباعي والخماسي. وهذه الفكرة تعرف الآن باسم "التوافيق". وضم الخليل إلى نظرية التوافيق نظرية أخرى هي "التباديل" حين أخذ يقلّب كلَّ كلمةٍ ناتجة عن التوافيق على أوجهها الممكنة بعد تبديل مواقعها في الكلمة. وتطبيق نظرية التباديل ينتج عن كل ثنائيٍّ صورتين وعن كل ثلاثيٍّ ست صور وعن كل رباعيٍّ أربعًا وعشرين صورة وعن كل خماسيٍّ مائة وعشرين صورة. ولتوضيح ذلك أضرب المثالين الآتيين من الثنائي والثلاثي. فكلمة مثل شدّ يمكن أن تتحول إلى دشّ عن طريق التباديل. وكلمة مثل "عَقَلَ" يمكن بالتقليبات أن يتولد عنها: عَلِق – قَعل – قَلَع – لَعِق وغيرها. ولا يلزم أن تكون كلُّ التقلُّباتِ النظريةِ للكلمة مستعملةً في اللغة فأحيانا تستعمل اللغةُ بعضَ التقلبات وتهمل بعضها الآخر. ومن ذلك خَنَعَ التي لم يرد لها في معجم العين إلا تقلُّبٌ واحد هو نخع. بل إن بعض الكلمات لم يرد له أيُّ تقلبات مثل كلمة خَدَعَ التي لم يرد لها في معجم العين إلا صورةٌ واحدة. وبعض الكلمات مهمل غير مستعمل مثل تجمع الثلاثي ع ق ج فلم يرد منه كلمة واحدة في معجم العين.

وهكذا استطاع الخليلُ عن طريق تطبيقه لنظريتي التوافيق والتباديل حصرَ كلمات اللغة حصرًا نظريًا. ولكنَّ اللغة العربية لا تستخدم كلَّ الإمكانيات النظرية لتجمعات الحروف، ولذلك كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظري أن يميز بين المستعمل والمهمل من هذه الصور النظرية وقد فعل ذلك، مستفيدًا من شيئين:

أولا: من ثقافته اللغوية الخصبة ومعرفته بلغة العرب ومروياتها من الشعر والأدب.

وثانيا: من خبرته الصَّوتيةِ الباهرة ومعرفتِه بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها في اللغة العربية.

وبذا حكَّم القوانينَ الصوتية إلى جانبِ تحكيمه للمادة اللغوية المسجلة.

وقد استطاع الخليل بطريقة الإحصاء الرياضي أن يجمع مادة معجمه في زمن قياسي، ولو أنه اتَّبع طريقةَ الاستقراءِ والسماع من الأعراب والذهابِ إلى البادية من أجل المشافهة كما كان يفعل غيرُه من اللغويين لأفرغ عمرَه دون أن يجمع عُشرَ معشارِ ما وضعه في معجمه، ولما قُدِّر لهذا المعجم أن يظهر في هذا الوقت المبكِّر من تاريخ اللغة

العربية وفي وقت قصير لا يتجاوز بضع سنوات كما يحكي تلميذُه اللَّيثُ بنُ المظفَّر الذي يقول إن الخليلَ بن أحمد بعد أن ورد عليه خُراسانَ فَاتَحَهُ في فكرةِ المعجم التي كان من الصعب على العقلِ العادي إدراكُها إلى أن يقولَ الليث" فجعلْتُ أستفهمه ويصفُ لي، ولا أقفُ على ما يصف فاختلفت إليه في هذا المعنى أياما ثم اعتلَّ وحججت. فرجعت من الحجِّ فإذا هو قد ألَّف الحروفَ كلها على ما في صدر هذا الكتاب".

وبعد أن تغلبَ الخليلُ على مشكلة جمع المادة واجهتْهُ مشكلةُ ترتيبها —حيث لم يكن أمامَه نَموذجٌ يحتذيهِ في ذلك. وقد هداه تفكيرُه إلى اتّباع الخطوات الآتية:

أولا: اتخاذُ الترتيب الصوتي أساسا لمعجمه. وهذا الترتيب الصوتي يبدأ بالعين ثم الحاء ثم الهاء ثم الخاء ثم الغين.. حتى يصل إلى حروفِ الشفتين وهي الفاءُ والباءُ والميم وحروفِ العلة وهي الألفُ والواوُ والياء.

ثانيا: تقسيمُ كلِّ حرفٍ من أحرف المعجم إلى أقسام ستة حَسَبَ حَجْم الكلمة ونوع حروفها وهذه الأقسام هي :

الثنائي	الثلاثي الصحيح	الثلاثي المعتل	اللفيف	الرباعي	الخماسي
مثل مدّ	مثل سمع	مثل قال	مثل وشى	مثل دحرج	مثل زبرجد

ثالثا: تقليبُ كلِّ كلمة في المعجم على جميع أوجهها الممكنة.

كيف نميز بين أصوات أصدقائنا في التلفون؟

يتضمن الصوتُ الإنسانيُّ عناصرَ ثلاثة هي:

أولا: وجودُ جسمٍ في حالة تذبذب أو حركةٍ يسمى مصدرَ الصوت.

ثانيا: وجودُ وسطٍ تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب.

ثالثا: وجودُ جسمٍ يستقبل هذه الذبذبات.

ومصدرُ الصوت عند الإنسان هو أعضاء النطق، ولا سيما الوترين الصوتيين، هذه الأعضاء التي تتحرك في اتجاهات مختلفة وبأشكال متعددة وتُنتج أصواتا تسبب تنوعات في ضغط الهواء.

ومن المعروفِ أن درجةَ الصوت ترتبط بعدد الذبذبات في الثانية. فكلما زاد عدد الذبذبات كان الصوت دقيقا أو حادًا وكلما قل عددُ الذبذبات كان الصوت سميكا أو خشنا. ويطلق العلماء على عدد الذبذبات في الثانية اسمَ "التردد". وكل جسم متذبذبٍ له تردده الخاصّ الذي تتحكم فيه مجموعةٌ من العوامل المتعلقة بالجسم المتذبذب مثلُ الوزن والطول وبالنسبة للأوتار نسبة الشدّ وبالنسبة للتجاويف الكتلةُ والشكلُ والامتداد. فالجسم الثقيل يتذبذب بصورة أبطأ من الجسم الخفيف والشوكةُ الرنانة ذاتُ الذراعين الطويلين تتذبذب أبطأ من الشوكة الرنانة ذاتِ الذراعين القصيرين. والوترُ الطويل يتذبذب أبطأ من الوتر القصير، والوتر الغليظ يتردد بنسبة أقلَّ من نظيره الرفيع. ويمكن زيادة أو نقص الترددِ بالنسبة للوتر عن طريق تغيير شده.

أما تمييزُ الأصواتِ المألوفة دون رؤية أصحابها فيرجعُ إلى أن لكل صوت إنساني بَصَمَاتِهِ المميزة التي قلما تلتبس ببصمات صوت آخر. وفي علم اللغة الحديث يوجد مصطلح اسمه "التعرف اللغوي". والهدف منه في معظمه هدفٌ عملي وهو القدرة على أن تَدُلَّ من أصواتِ لغةٍ منطوقة على نوع اللغة التي تواجهها. كما أن هناك أسلوبًا فنيا للعمل يحمل شعار "من أين أنت". وهو أسلوبٌ يمكن عن طريقه تحديدُ المنطقةِ

اللغويةِ الصغيرة التي ينتمي إليها المتكلم والتي قد تصل إلى نصفِ قطرٍ قدرُه عشرةُ أميالٍ من مسقط رأسه، وذلك عن طريق خصائصه الكلامية المتميزة. وقد كتب ماريو باي العالِمُ اللغويُّ الأمريكيُّ المشهور مقالا بعنوان" ماذا قال" عَالج فيه موضوعَ إمكانيةِ التعرفِ على المجرم وتحديد منطقتِهِ عن طريق دراسة ملامحه الكلامية.

وكما يؤدي إلى التعرف اللغويِّ الخصائصُ النطقيةُ، المكتسَبَةُ من المنطقةِ اللغويةِ التي ينتمي إليها المتكلم فهناك مجموعة أخرى من العوامل منها:

أولا: الخصائصُ النطقيةُ المعيَّنَةُ الناتجةُ عن خاصة عضوية في المتكلم كأن يكونَ هناك تصلبٌ أو ارتفاعٌ في مؤخِّرة اللسان فينتجُ الصوت مغرغرا أي مَشُوبًا بصوت الغين كما قد يكون هناك ابتعادُ خِلْقِيٌّ في الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى خفوتٍ ملازم للصوت. كما قد يكون هناك عاهةٌ عضوية أو ضغطٌ للسان أو انكماشُه إلى الداخل بحيث يصبح عائقًا أمام خروج الصوت كلّه من الفم فيتسربُ بعضُه من الأنف ويوصف المتكلم بالخَنَف كما قد يتميز بعض الناس بانسياب أصواتهم مندفعةً من الحنجرة نتيجةَ تصلبِ أعصاب الرقبةِ والحنجرةِ فيخرجُ الصوت فاقدًا لونَه وتكييفه الذي تعطيه عادةً الأوتارُ الصوتية في داخل الحنجرة. كما قد يَصْدُرُ بعضُ الأصوات مرتعشًا نتيجة التنفس بطريقةٍ خاطئة أو إجهادِ الصوت بحمله على طبقةٍ لا تلائمه أو نتيجة الشيخوخةِ أو الضعفِ العصبي أو الخوفِ..

ثانيا: كذلك يؤدي إلى تمييز الأصوات اختلافُ معدِن الصوت. وقد قسم العلماء الصوت إلى معادن خمسةٍ رئيسية تبدأ بالقرار وتنتهي بالسوبرانو، والأصواتُ التي من معدِن واحد تشترك في الصفة العامة وتختلف في بعض الصفات الفرعية.

أما أفخم الأصوات وأخشنها فهو المسمى بالقرار وتُحْدِثُهُ أغلظ الأوتار الصوتية وقدرته كاملةٌ على الدرجات السفلى في السّم الموسيقي.

وأما أرقها هو السوبرانو وهو سريعٌ حاد قادر على الدرجات العليا من السلم وبينهما درجاتٌ تجمع أصواتَ الحديث العادي بصورِهِ المختلفة. وهناك تمرينات يؤديها

الممثلون والخطباءُ خاصةً ليكونوا قادرين على استخدام معادن الأصوات كلها ويصبح صوتهم ليّنا طيّعا مستجيبا لرغبات المتحدث.

ثالثا: ويؤدي إلى تمييز الأصوات أيضا نوع الصوت وهو فرق يظهر بين نغمتين موسيقيتين ربما اتفقتا في درجةِ الصوت وفي العلو ولكنهما أُنتجتا بآلتين مختلفتين مثل البيانو والكمان.

وتفسير ذلك أن كلتا الآلتين تُصْدِرُ مجموعةً من النَغَمَاتِ واحدةٌ منها وهي الأساسية هي المسيطرة والأُخْرَياتُ وهي المسماة بالتوافقيات تكون في وضع انسجام معها. وحيث إن الجسمَ الرنّان يُقَوِّي بعضًا من هذه التوافقيات أكثرَ من الأخريات فإن النغمة تتلقى خصائصَ تسمحُ للسامع أن يميز بين صوتٍ وآخر أو آلةٍ وأخرى. وبهذا يظهر أن نوع الصوت هو الأثرُ السمعيُّ الناتج عن عددِ الموجاتِ البسيطة التي تُكَوِّنُ الموْجةَ المركبة التي تحمل الصوت للأذن وترددِ كل منها واتساعها.

وأخيرًا نشير إلى اختلاف الفراغات الرنانة المضخِّمةِ للصوت وهي التي يمر خلالَها الهواءُ بَعْد الحنجرة. فَفَراغُ الحلق وفراغ الفم والفراغُ الأنفي كلُّها تستغلّ في تضخيم الصوت ومنحهِ صفتَه الخاصةَ به التي تميزه عن غيره من الأصوات فهي بمثابة تلك الصناديق المجوَّفة التي تُشَدُّ عليها أوتارُ الكمان أو العودِ لأن أصواتَ الحنجرة وَحْدَهَا ضعيفةٌ وهي تَقْوَى بمرورها في تلك الفراغات الرنانة. واختلافُ حجم هذه الفراغات عند الناس يجعل أصواتَهُمْ مختلفةً متميزة. لأن حَجْمَ الفراغ وشَكْلَه يُكسب الصوت لونا خاصا يساعد على تمييز الأصوات.

بَصْمةُ الصوت وبصمة الإصبع

إنّ كـلام الشَّخْصِ يـنقل معلومـاتٍ وراء الرسـالةِ الـتي يحملها. فحينما نسمعُ شخصـا يتكـلم –حـتى لـو لم نكنْ نراه- يمكنُنا أن نتعرف في الغالب على عددٍ من صفاته حـتى لـو كان غريبًا عنَّا، مثلُ التعرُّفِ على سِنِّهِ ومِزَاجِهِ ومركزه الاجتماعيِّ أو الثقافي، وأكثرُ من هذا التعرُّفُ على جِنْسِهِ أذكر هو أم أنثى.

ويأتي التعرفُ على الجنسِ نتيجةَ وجودِ مكوّناتٍ صوتيةٍ معينة تُميِّز صوتَ الرجل عـن صوت المرأة يمكن أن تسمى "البصمة الصوتية للجنس" وهذه المكوناتُ الصوتيةُ هي التي تمكِّنُ السامعَ من تحديدِ جنسِ المتكلِّمِ دون أن يراه، حتى لو حاول المتكلمُ أن يتنكَّر أو يغطيَ فمه بشيء.

وأظهـر فـرقٍ في صـوت الذكـر والأنـثى البالغَيْن هو "دَرَجةُ الصوت" أو الترددُ الأساسـيُّ للتصـويت الذي يعتمد على طولِ الوَتَرَيْن الصوتيين ووزنِهما ودرجةِ تَوَتُّرهما. وقـد خلـق اللـهُ المـرأةَ بوتـرين صوتيين أقصرَ وأقلَّ ضخامةً وأكثر قابليةً للشدِّ مِنْ وَتَرَيِ الـرَّجُل ممـا يؤدي إلى زيادة سرعتهما وعدد ذبذباتهما في الثانية وهذا بِدَوْرِهِ يؤدِّي إلى حـدة الصـوت. كما خلق الرجلَ بوترين أطولَ وأضخمَ مما يؤدي إلى قلة ذبذباتهما في الثانية وهذا بِدَوْرِه يؤدي إلى عُمْق الصوت.

وهناك عاملٌ ثانٍ يميِّزُ بين الجنسين وهو نموذجُ الرَّنينِ الحادثِ في التجويف الصوتي فـوق الحَـنْجَريِّ فـالذكورُ الـبالغون- في العادة- يملكونَ تجاويفَ صوتيةً فوقَ حنجريةٍ أكْبَرَ مما تملكه الإناث ولذا فهم يُنتْجون حُزَمًا صوتيةً أخفض.

كمـا أن هـناك عـاملا ثالـثا وهـو العادات الكلامية لكل جنس، فالبالغون من الذكـور والإناث ربَّما عَدَّلوا من أوضاع أعضائِهم النطقيةِ لخفضٍ أو رَفْع ترددات حُزَمِهم الصـوتية ليُنـتجوا أصـواتًا تـتَّجه نحـو النموذج المرسوم لكل جنس. وهذا واضح حينما تحاولُ بعضُ النساء ترقيقَ الأصواتِ المفخَّمَةِ ونطقَها بطريقة تنحو بها نَحْوَ نظيراتِها المُرَقَّقَةِ كمـا يَحْـدُثُ في نطـق القـافِ كافـا في كـلماتٍ مثل "قراءة" والطاءِ تاءً في كلمات مثل

"طائر" والضادِ دالاً في كلمات مثل "ضرب" والصادِ سينا في كلمات مِثل "صُراخ"، وليس هذا فحسب بل إنه يتم تعديلُ تجاويفِ الجهازِ النطقي في الحَجْمِ أو الشَّكل عن طريق حَرَكاتِ الرأسِ والحَلْقِ والفَكِّ والشفاهِ واللسانِ، من أجل الوصولِ إلى الخصائصِ الصوتيةِ الملائمةِ للنموذج الصوتيِّ المتعارَفِ عليه لكلٍّ من الذكور والإناث.

كذلك فإن المرأةَ تملك مجالا متنوعا للتنغيم، فهي تملك درجاتٍ من التنغيم أعلى وأخفضَ مما يملك الرجل كما أنها تملك نماذجَ تنغيمةً تعطي انطباعًا بالتساؤلِ والدهشةِ وطلبِ المساعدة وهي من النماذج التي تحبُّ المرأةُ استعمالَها كثيرًا.

ولكنْ عند أيِّ سنٍّ يمكن تمييز أصوات الجنسين؟

أثبتت الدراساتُ الميدانيةُ والتجريبيةُ صعوبةَ التمييز بينَ أصواتِ الجنسين في مرحلةِ الطفولةِ المبكِّرة، حتَّى إنّ الأُمَّ لا تستطيع أن تميزَ بين صراخ البنتِ وصراخ الولدِ إلى سنِّ السادسة، ويرجع سبب ذلك إلى ما أثبتته الدراسةُ التشريحيةُ من تساوي حنجرةِ الأولادِ والبنات في هذه السّنّ مِنْ حيثُ الحجمُ والطولُ والوزنُ وكذلك تساوي طولِ الفَكَّين. وتُعتبر السنُّ الحاسمة لتمييز صوتِ الذَّكَرِ عن الأنثى هي سنُّ الثانيةَ عشْرَةَ للبنات وأكبرُ من هذا قليلا للأولاد.. إذْ عند هذه السنِّ تحدثُ تغييراتٌ جَسَديةٌ كثيرةٌ في جهاز النطق عند الذكور بما فيها نموُّ التجويفاتِ النطقية، والنضجُ السريعُ للأوتار الصوتية عن طريق استطالتها، وضخامتها. وتؤدي هذه التغيُّراتُ إلى عُمْقِ صوتِ الذَّكر وتَمَيُّزِه الواضح عن صوتِ الأنثى.

ومع ذلك قام العلماءُ بدراساتٍ مكثَّفة للبحث عن إمكانيةِ تَمييزِ أصواتِ الجنسين في سِنٍّ ما قبل البلوغ انتهتْ إلى ما يأتي:

أولا: أنه منذُ سِنٍّ مبكرة، وقبل أن تتجهَ أعضاءُ النُّطْقِ عند كلِّ فريق إلى التميُّز يتعمَّد أفرادُ كلِّ جنسٍ في حدود إمكاناته التشريحية تعديلَ ميكانيكيةِ النطقِ عندهم لتغيير نموذج الحُزَمِ الصوتيةِ أو اتساعات ما بين الشفتين حتى يتطابق نُطْقُهُ مع النموذج الملائم لِجِنْسِه.

ثانيا: أنه أمكن تمييزُ جنسِ المتكلِّمِ الطفل من خلال النماذج الإيقاعية والتنغيم فقط وبعد إخفاء معالم الكلمات المفردة والمقاطع.

ثالثًا: أنه في تجربةٍ قامتْ على تسجيل عَيِّناتٍ لكلام عددٍ من الأطفال بين سنِّ الخامسة والسادسة متساوين في الطولِ والوزنِ أمْكَنَ التعرفُ على جنس المتكلم بنسبةِ صحةٍ بلغت ٧٤٪ . أمّا قبل سنِّ الخامسة فلم يمكن التعرُّفُ على جنس الطفل بصورة دقيقةٍ إذ إنَّ كثيرًا من الأولاد في العيّنة صُنِّفوا على أنهم بناتٌ حتى مع نطقهم جملا كاملة.

وهناك نوعٌ آخر من بصمةِ الصوْت يميز صوت الشخص عن الآخر، وتشبه مُكَوِّناتُه بصمةَ الإصْبَع في عدم تطابقها عند اثنين كما تشبُهها في إمكانيّةِ التعرُّفِ على صاحبها عن طريق تحليلها وهو ما يمكن أن نسميه" البصمة الصوتية للفرد".

وتقوم فكرة "البصمة الصوتية للفرد" على ما هو معروف من اختلاف الأفراد في حجم وشكل التجاويف الأنفية والفموية، وفي تركيب الحنجرة، وفي شكل الأوتار الصوتية، وغيرها من أعضاء النطق التي تشمل الأسنان واللسان والشفتين، وحتى البلعوم والجهاز التنفسي بعامة، وأن الاختلاف في شكل هذه الأعضاء يعطي الترددات الصوتية خاصية ملازمة للتركيب الفيزيائي لمكونات هذه الأعضاء، هذا بالإضافة إلى ما ثبت أن عادات الشخص الكلامية تستقر عند سنّ البلوغ.

وقد كان تحديد بصمة الشخص الصوتية يقوم في الماضي على حساسية أذن الخبير، وعلى تمرسه على التمييز بين الأصوات المتشابهة، ولكنه الآن أصبح يعتمد على تحويل الصوت إلى خطوط بيانية، وإشارات مكتوبة على الورق، تعكس ملامِحَهُ التّمْيِيزيَّةَ وتعرضُ بتجمُّعِها في شكل معين فرديَّتَهُ المطلقة، ويتم ذلك عن طريق آلة تعرف باسم "المِطْياف" أو"الرَّاسِم الطَّيْفيّ"، ولما كان الرَّسْمُ الطيفيُّ لشخصٍ ما يختلف عن كلِّ الرسوم الطيفية التي يُنتجها المتكلمون الآخرون فإنَّه من الممكنِ عن طريق مقارنَةِ الرَّسْم الطيفي لشخصٍ ما برسمٍ آخرَ لا يُعرف صاحبُهُ الحُكْمُ بما إذا كان الصوتان صادرَيْن عن نفسِ الشخص أو عن شخصين مختلفين.

وتدرب كثير من الدول الآن العديد من الخبراء على التعرف على الأصوات، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية التي تقوم بتدريب الخبراء تحت إشراف "الجمعية الدولية للتعرف على الصوت". ويعطي الخبير قراره من خلال مدرّج تقييمي من أربع درجات تبدأ بأن الصوت المفحوص هو صوت شخص معين بكل تأكيد، ثم صوت هذا الشخص بدرجة كبيرة من التأكد، ثم بتأكد إلى حد ما، ثم بنفي أن يكون هذا الصوت هو صوته. وحين يختلط الأمر على الخبير فمن حقه الامتناع عن إبداء رأيه.

وإذا كان العلماء يشبّهون بصمة الصوت ببصمة الإصبع، فإن الفارق الكبير بين البصمتين يجعل هذا التشبيه غير دقيق، لأن بصمة الصوت تعتمد على ما يفعله المتكلم أكثر بكثير مما هو عليه، كما يمكن أن تتدخل فيها عوامل خارجية مثل تقليد أصوات الآخرين[1]، أو كون التسجيل الصوتي مختلطا بأصوات أخرى غريبة، أو كونه قد خضع لتدخلات فنية عن طريق تركيب بعض الأصوات بطريقة اصطناعية، ومزجها بالصوت الحقيقي، أو كون صاحبه قد استخدم وسائل تمويهية، لتضليل الخبير كوضع مواد غريبة في الفم، أو سدّ فتحة الأنف من الخارج.

أما بصمات الأصابع فهي ثابتة غير قابلة للتدخّل منذ كان الشخص جنينا في الشهر السادس من عمره. وحتى لو أجرى الشخص عملية جراحية بقصد تغيير بصمة إصبعه، فهي عملية مكلفة من ناحية، وخاسرة من ناحية أخرى، لأن طبقات الجلد العليا تتجدد من خلال الطبقة الثانية للجلد المسماة "المتجددة"، فهي تعيد البصمات المنتزعة إلى حالتها السابقة دون أدنى تعديل يطرأ عليها حتى نهاية العمر.

---

(١) من أبرز الأمثلة على دقة التقليد أن التلفزيون البريطاني عرض رسما طيفيا لمقلد صوتي حاكى صوت هارولد ولسن رئيس الوزراء. وقد بدت المشابهة كبيرة جدّا بين الصوت الأصلي والصوت المقلّد بدرجة أكبر من المشابهة بين صوت المقلد وصوته الحقيقي من ناحية، وبين صوت ولسن في المناسبة التي سجلت، وصوته في مناسبات أخرى.

وإذا كـان خـبير البصـمات الإصـبعية في الماضي يعتمد على منظار مكبر وخبرة سـابقة لعقـد المقارنة مما كان يجعل معدلات الإنجاز لا تتجاوز عشرين بصمة في السـاعة، فـإن الأجهـزة الحديـثة المسـتخدمة الآن تسـتطيع مضـاهاة عشـرين ألف بصمة في السـاعة الواحدة.

وإذا كـان العـلماء الآن يـنفون نفـيًا باتًـا إمكانـية تطـابق شخصين في بصمات أصابعهما فقد سبق للقرآن أن قرر هذه الحقيقة حين قال " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامـه. بلـى قادرين على أن نسوي بنانه" وهكذا يبقى بنان كل إنسان علامة مميزة له، وتبقى إعادة كل "بنان" إلى أصله بعد الموت دليل القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود.

تطبيقات عملية
لاستخدام البصمة الصوتية

بعـد أن أمكـن وضـع بصـمات للأصـوات مـن خلال القيام بتحليلات فيزيائية للكـلام ودراسـة الموجـات الصـوتية اللغوية من خلال جهاز المطياف، أو الراسم الطيفي Spectrograph الذي يصدر صورا مرئية تمثل المعالم السمعية للصوت الكلامي..

وبعـد أن نشـر لورنـس كريستا عام ١٩٦٢ بحثه الرائد في موضوع "التعرف على البصمة الصوتية"، الذي طرح فيه إمكانية تصنيف الناس عن طريق تحليل النماذج المرئية التي يظهرها الراسم الطيفي لعشر كلمات شائعة..

وبعـد أن اقتـنع كـثير مـن العـلماء بفكرة "التفرد الصوتي" لكل شخص نتيجة الاخـتلاف في شـكل التجاويف الصوتية (تجويفا الحلق والفم- تجويف الحنجرة – تجاويف الأنف - تجويف الشفتين) وأعضاء النطق، وطريقة التحريك لكل منها أثناء الكلام..

وبعـد أن ثبـت بالمتابعة العلمية دقة الحواسيب والراسمات الطيفية في التمييز بين الأصـوات حـتى لـو حـاول إنسان تغيير ملامح صوته، أو التخفي من خلال وضع مواد غريبة في فمه، أو تغطية شفتيه، أو أنفه أثناء الكلام..

بعد كل هذا ظهرت مجالات كثيرة استخدمت فيها البصمة الصوتية سواء في عالم الاقتصـاد والبـنوك، أو في عالم المحاكم والأدلة الجنائية، أو في عالم الطب والتعرف على الحالة الصحية للمتكلم، أو حتى في عالم المعارك والحروب:

١-فقـد اسـتخدمت البصـمة الصوتية في مجال صرف الشيكات. فما على صاحب الحسـاب في البـنك الـذي يعمـل بهـذا النظام إلا الاتصال برقم معين في البنك، وإعطاؤه أوامـر صـوتية بصـرف أو تحويـل المـبالغ الـتي يـريدها من حسابه، ويسجل البنك الأمر ويدخلـه في الحاسـوب الخـاص بالتمييـز بـين الأصـوات ومضـاهاتها للتأكد من أن هذا الصوت هو صوت صاحب الحساب.

وهناك نوع من الخزائن الحديدية يعمل بنظام " بصمة الصوت" فلا ينفتح إلا إذا قال له صاحبه عبارة معينة، وغالبا ما تحفظ بهذه الخزائن المجوهرات والأوراق المالية والوثائق الهامة، والأشياء الثمينة.

٢-أما الجانب الثاني للتطبيقات العملية للبصمة الصوتية فهو ميدان القضاء، والتعرف على المجرمين من خلال تسجيلاتهم الصوتية ومقارنتها بأصواتهم.

وقد كان الخلاف شديدا في المحاكم حول مصداقية هذا الدليل، ومدى الثقة في حجيته حينما كان خبير الأصوات يعتمد على حسه السمعي، أو على بعض الأجهزة التقليدية وعلى تدريبه الطويل، ومع ذلك اعتمدت بعض المحاكم المصرية والأمريكية والألمانية والكندية منذ الستينيات على التسجيلات الصوتية حين اطمأنت إلى مصداقيتها، وأصدرت قرارات بالإدانة أو البراءة في حالات التجسس، والرشوة، والابتزاز، وطلب الفدية، والتهديد بالقتل؛ وكلها قضايا تشترك في أن الصوت يشكل الدليل الأساسي للإدانة أو البراءة، لأنها كلها تتم عن طريق الاتصالات التليفونية.

وقد أصدرت محكمة جنح الموسكي حكمها في الجلسة رقم ٢٧٣٣ لعام ١٩٦٢ الصادر في ٤ فبراير ١٩٦٣ الذي قضى بإدانة المتهم، وبتعويض المدعى بالحق المدني، واستندت في حكمها- ضمن ما استندت — إلى الحديث المسجل للمتهم، الذي اعترف فيه بالتهمة، وإلى تقرير خبير الأصوات. وفي منتصف الستينيات أمسكت الشرطة الأمريكية بشاب كان قد أشعل النار في مؤسسة كبيرة، ثم خاطب إحدى محطات الإذاعة قائلا "إنه الفاعل" دون أن يذكر اسمه. وبعد شهور أمسكت الشرطة به، وأثبت الخبراء أنه صاحب المكالمة الهاتفية بعد أن تطابقت بصمته الصوتية في حديثه الهاتفي وحديثه العادي، واعترف المتهم في النهاية بجريمته.

وتضاءل الخلاف أو تلاشى الآن بعد تطور وسائل التحليل الصوتي، واستخدام أجهزة حاسوبية وراسمات طيفية متقدمة، فأصبحت المحاكم تعتمد على رأي خبير الأصوات بنسبة اطمئنان عالية فاقت نسبة ٩٩٪، وإن أثارت إشكالات أخرى تتعلق بمدى

قانونية التسجيل الصوتي لانتهاكه الحرية الشخصية، وقيامه على أسلوب غير مشروع وهو استراق السمع والتَّنَصُّت.

وتعتبر نقطة الانتقال الحاسمة بين عصر الشك وعصر اليقين أو شبه اليقين اختراع جهاز الراسم الطيفي (سبكتروجراف) عام ١٩٧٢ الذي ظهر لأول مرة بولاية ميامي في محاولة للتعامل مع البصمة الصوتية، وقد أوصى مجلس حاكم ميامي رجال القضاء باستخدام البصمات الصوتية كسند قانوني يعتد به. وقد أخذت محاكم ولاية متشجان مثلا بمبدأ البصمات الصوتية وأصدرت أحكامها في ٢٧ جناية عام ١٩٩٩ بإدانة المتهمين على الرغم من عدم وجود أدلة سوى بصمات أصواتهم في هذه القضايا. وبعد هذا تقدمت الأبحاث الصوتية وظهر "علم البصمات الصوتية" عام ١٩٨٢، وكذلك أنشأت ولاية ميتشجان المعهد العالي للبصمات الصوتية. وصارت الدول المقدمة تدخل الحواسيب إلى أجهزة رسم الأطياف (الاسبكتروجراف) لجعل البصمات الصوتية أكثر نقاء.

أما في الدول العربية فقد انعقد أول مؤتمر للأدلة الجنائية في الرياض عام ١٩٨٦ لتطوير التعامل مع البصمة الصوتية، بعد بصمات الأصابع. وفي عام ١٩٨٨ أخذت محكمة أمن الدولة العليا بمصر بتقرير خبير الأصوات في قضية "الناجون من النار" بعد أن أكد الخبير أن الصوت المسجل في الأشرطة للمتهمَيْن فلان وفلان. وهناك أكثر من جهة في مصر الآن تطور منهجا دقيقا للتعرف على صاحب الصوت، منها "إدارة الأدلة الجنائية"، و"المركز القومي للبحوث" وذلك عن طريق استخدام حاسوب رقمي تخزن فيه جملة للشخص متضمنة المقاطع التي لها خواص صوتية أساسية شاملة للحروف الساكنة، والمتحركة، والمدغمة، والوقفية، ثم تقطع وتحول إلى أرقام تخزن في ذاكرة الكومبيوتر. وعند الرغبة في التعرف على صاحب الصوت بين مجموعة أصوات تجرى نفس العملية للأشخاص الجدد، وتتم المضاهاة آليا.

٣-أما في عالم الطب والعلاج، فقد أصبح ممكنا من خلال التحليلات الصوتية معرفة نوع المرض الموجود على الأوتار الصوتية مثل اللحميات، والارتشاحات، وشلل

الأوتار، وعن طريق هذه التحليلات يمكن المساهمة في التشخيص المبدئي، ومتابعة التحسن في أداء المريض أثناء التدخل العلاجي للحكم على فعالية النتائج؛ مثل تقييم وظيفة الصوت باستخدام التحليلات الصوتية قبل إجراء العمليات الجراحية في الأوتار الصوتية، ثم تقييم ذلك بعد الجراحة. ومع استخدام أجهزة التحليل الصوتي يتم اختبار قدرة هذا الفرد على الاستفادة من التدريبات الصوتية، إلى جانب أن الأبحاث التي تجري حاليا تستهدف استخدام هذه البصمة الصوتية في الكشف عن أمراض الصوت والكلام.

٤-وقد كانت التطبيقات في مجال المعارك والحروب أسبق في الوجود من التطبيقات في مجالات السلم. وفي سبق المهندسون العسكريون حين نجحوا عام ١٩٤٣-١٩٤٤ في إنتاج أجهزة للتنصُّت اللاسلكي على الألمان واليابانيين في نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم جرى تطوير لهذا النظام بعد الحرب بعامين حين ظهر لأول مرة ما يعرف "بالكلام المرئي"، وأصبح هذا الكلام علما عسكريا يطبق بتوسع وإمكانات هائلة خلال الحروب. ففي حرب يونيو ١٩٦٧ قامت إسرائيل بتوجيه أوامر هاتفية مزيفة إلى قادة بعض التشكيلات المقاتلة المصرية، استخدمت خلالها أصوات قادة مصريين وأسماءهم بهدف توجيه هذه التشكيلات المقاتلة إلى الهدف الخطأ . وشهدت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحرب تحرير الكويت ١٩٩١ أشكالا أكثر تطويرا في عوالم الاستطلاع التليفوني واللاسلكي، ومعرفة القادة العسكريين من خلال تحليل بصماتهم الصوتية، وهم يتحدثون تحت أسماء منتحلة أو حركية كإجراء تأميني لأشخاصهم، ومهامهم الحربية الموكولة إليهم.

ولا تزال مجالات التطبيق لاستخدام البصمة الصوتية مفتوحة، والسباق العلمي دائرًا على أشده بين الباحثين وعلماء الأصوات لتجاوز نسبة الـ٩٩٪ والوصول إلى درجة اليقين. ولا يزال الاهتمام قائما بإيجاد مجالات أخرى تطبيقية، كاستخدام البصمة الصوتية في التجارة للتمييز بين العملاء، والتعرف على المتحدثين من خلال الهاتف، واستخدامها في الهندسة لتمييز الأصوات غير العادية في الأجهزة والآلات .



الباب الثاني

أنا والمجمع



مدخل

تم انتخابي عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ضمن نخبة من أعلام اللغة والأدب في الدورة المجمعية الخامسة والستين (٩٨ – ١٩٩٩) ، وألقى كلمة استقبالي في مستهل الدورة السادسة والستين (١٩٩٩ – ٢٠٠٠) المرحوم الأستاذ إبراهيم الترزي الأمين العام للمجمع . وقد شغلت المكان الذي خلا بوفاة شيخ المحققين وعميد المدققين المرحوم الأستاذ محمود شاكر . ولما كان من تقاليد المجمع أن يلقي الخالف كلمة تأبين، وتعريف بجهود السالف ، فقد استهللت نشاطي المجمعي بكلمة قصيرة ألقت الضوء على نشاط المرحوم العلامة محمود شاكر ، وسجلت بعض انطباعاتي عنه منذ أخذت أتردد على منزله ، وأجلس إليه مجلس التلميذ .

ثم توالى نشاطي المجمعي – بعد هذا – من خلال لجنتين هما "لجنة الأصول"، و"لجنة البحوث واللهجات" وكذلك من خلال المحاضرات العامة التي كان يقيمها المجمع ، والمناقشات التي تتم سواء على مستوى مجلس المجمع الذي ينعقد أسبوعيا، أو على مستوى مؤتمر المجمع الذي ينعقد سنويا ، وتعرض عليه أعمال اللجان التي أقرها مجلس المجمع .

والصفحات التالية تسجل أهم أنشطتي المجمعية على المستويات السابقة لمدة عامين وبعض عام، وقد ضممت إليها البحث الذي شاركت به في "ندْوة المعجم العربي" التي عقدها مجمع اللغة العربية في دمشق (أكتوبر ٢٠٠١) .

ولمجرد التنظيم وزعت هذه الأنشطة على ثلاثة فصول تحمل العناوين الآتية :

الفصل الأول : محاضرات مجمعية .

الفصل الثاني : تحقيقات لغوية .

الفصل الثالث : رأي صريح في المعجم الكبير .

الفصل الأول

محاضرات مجمعية



باكورة نشاطي المجمعي

(جلسة الاستقبال)

أيها الزملاء الأعزاء

أيها السادة والسيدات الضيوف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فبقدر ما كانت سعادتي بعضوية المجمع اللغوي كانت رهبتي من الحديث إليكم. فهذا أول اختبار لي أمام هذا الحشد الحاشد من جِلّة العلماء ، وخيرة رجال الفكر واللغة والأدب ، وقد حمدت الله أن جاء هذا الاختبار بعد فوزي بالعضوية وليس قبله.

ثم إنني - **ثانيًا** - أتحدث بعد أديب متمكن ملك ناصية البيان ، وفاقت فصاحته فصاحة سحبان ، فأنَّى لي أن أجاريه أو أقرب منه . وهو إلى جانب ذلك قد خلع عليَّ من الصفات ما يناسب مكانة المُهدي لا المهدى له ، مما زاد من صعوبة موقفي.

وأنا - **ثالثًا** - قد شغلت المكان الذي خلا بوفاة المرحوم العلامة الأستاذ/ محمود محمد شاكر فحُملت بذلك أمانة ثقيلة قد تأبى حملها السموات والأرض والجبال، لأن مكان الأستاذ لا يمكن أن يشغله أحد سواه ، ولكن هكذا أرادت الأقدار .

وأنا - **رابعًا** - مطالب بالحديث عن صاحب الكرسي الذي ودَّعنا بجسمه ، ومازال علمه وفضله ملء السمع والبصر ، والحديث عن المرحوم العلامة محمود شاكر نمط من الحديث صعب ومخيف لجملة أسباب منها :

أولاً :قرب المرحوم العلامة محمود شاكر من تلامذته ومريديه ، وللقرب الشديد - كما للبعد الشديد - مخاطره ومزالقه .

وثانيًا :لأن المرحوم العلامة محمود شاكر قد جمع العالم في واحد ، وكل جانب من جوانب ثقافته لو وجد في شخص لكان كافيًا لأن يشتهر به ، ويعد علمًا من أعلامه.

وثالثًا :لأنه شخصية أو أكثر من شخصية تتلاقى فيها الأضداد ، وتجتمع المتناقضات.

فهو : يحصل على البكالوريا (الثانوية العامة) من القسم العلمي ثم يلتحق بكلية الآداب ، ويختار من بين أقسامها قسم النغة العربية بالذات . وهو يدخل كلية الآداب بعد شفاعة طه حسين له عند مدير الجامعة أحمد لطفي السيد ليقبله بشهادته من القسم العلمي ، ثم يخرج من الكلية ويترك الدراسة بسبب خلافه مع طه حسين . وهو يرسب في اللغة العربية في امتحان الشهادة الابتدائية، ويعيد العام كله من أجل هذه المادة ، ثم يصبح – فيما بعد – المنافح الأول عن اللغة العربية وآدابها ، وتزداد المفارقة باختياره عضوًا في مجمع اللغة العربية.

وهو إلى جانب ذلك يمدّ جلساته الطويلة مع أصدقائه ومعارفه وتلاميذه فتظن أنه لا يجد وقتًا للعمل ، وينشر إنتاجه الغزير الممتد على طول السنوات فتظن أنه لا يجد وقتا للقاء أصدقائه.

وهو حاد الطبع ، عنيف في خصومته ، ومع ذلك تراه في أحواله العادية لين العريكة ، مرهف الحس ، شديد التأثر لفقد أصدقائه ومعارفه ، حتى إن حزنه لوفاة صديقه مصطفى صادق الرافعي عام ١٩٣٧ قد صرفه عن استكمال ردوده على طه حسين فيما اختلف معه فيه حول المتنبي . وقد انتهى محمود شاكر في دراسته للمتنبي إلى نتائج انفرد بها ، منها نفيه أن يكون من أصل وضيع ، وإثباته أنه كان علويًا هاشميًا قرشيًا ، ونفيه لنبوءة المتنبي خلافا لما تذكره المصادر .

إن محمود شاكر نموذج فريد بين بني البشر قلما أو يستحيل أن يتكرر ولو بصورة مقاربة . إنه نمط صعب من الرجال لا تجد له نظيرًا على امتداد الأحقاب والأجيال. وإذا كان معظم الناس تتفجر طاقاتهم من إحساسهم بالنقص ، وشعورهم بالدونية فإن ما فجر طاقات محمود شاكر هو إحساسه بالتميز ، وشعوره بالتفرد منذ اللحظات الأولى لنشأته :

فهو قد ولد وتربى في بيت توارثت أجياله المجد كابرًا عن كابر حتى انتهى إلى أبيه الشيخ محمد شاكر الذي كان مقدم الغلام فالا طيبا له ، ولعل الوالد كان قد توسم

فيه ذلك فأسماه محمود سعد الدين ، وقد تقلد الوالد في نفس عام مولده منصب الوكيل للجامع الأزهر ، إلى جانب ما تولاه من مناصب أخرى تشرئب لها الأعناق مثل قاضي قضاة السودان ، وعضو الجمعية التشريعية .

لقد كان بيت الوالد يغص بأعلام الفكر والأدب والسياسة ، مما أتاح للفتى الناشئ أن يلتقي بهم ، ويجلس إليهم ، ويتشبع بأفكارهم مثل محب الدين الخطيب ، وأحمد تيمور باشا ، والشيخ محمد الخضر حسين . ولعل صورة هذه المجالس التي انطبعت في ذاكرته كانت الباعث له على أن يجعل من داره نسخة ثانية من دار والده ، ومن مجالسه ملتقى لأعلام الفكر والأدب والسياسة، من مثل أحمد حسن الباقوري ، ورشاد مهنا ، ويحيى حقي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وإحسان عباس ، وشاكر الفحام، ومحمد يوسف نجم ، وناصر الدين الأسد ، وأحمد راتب النفاخ ... وغيرهم وغيرهم ممن يجلون عن الحصر .

لقد نضج الفتى قبل الأوان ، أو لعله – على حد تعبير أبي علي الفارسي لتلميذه ابن جني – قد تزبب قبل أن يتحصرم .

فمن يصدق أن يقدر فتى في التاسعة عشرة أن ينشئ مدرسة في مدينة جدة ، ويعمل مديرا لها ؟

ومن يصدق أن ينصرف فتى في عمر الزهر عن لهو الشباب ويوجه طاقته إلى البحث، والتعمق في الفهم ، فيحفظ ديوان المتنبي ويدرس الكامل للمبرد ، وحماسة أبي تمام، وأمالي القالي ، وأشعار الهذليين ؟

ومن يصدق أن غلاما في المرحلة الثانوية تجتذبه كتابات المستشرقين فيقرأ ضمن ما يقرأ مقال مرجليوث الذي نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عن "نشأة الشعر العربي" ؟ ويقف من المقال وصاحبه موقفا صارما في مناقشاته لطه حسين في نفس الموضوع ؟

ومن يصدق أن شابا في مقتبل عمره تخصص له مجلة المقتطف (وهو بعدُ لم يبلغ السابعة والعشرين من عمره) عددا كاملا خاصا عن المتنبي حيث قام بدراسة فريدة

لحياته من شعره ، وقدم تفسيرًا لما أشكل من هذا الشعر ، وهي الدراسة التي نال بها بعد خمسين عاما جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب ؟

ومن يصدق أن شخصًا واحدًا — إلى جانب اهتماماته العلمية — يتصدى وحده لعدد من أعلام الفكر والأدب يفند آراءهم، ويقوّم انحرافاتهم من أمثال سلامة موسى، وطه حسين، وسعيد الأفغاني، ولويس عوض ، وعبد الغفار مكاوي ... ؟

ومن يصدق أن يجتمع في شخص واحد أن يكون شاعرا، ومحققا للتراث، وأديبا، ولغويا، وعالما واسع العلم بالتاريخ والتفسير، والجرح والتعديل ؟ ويحتاج كل جانب من هذه الجوانب إلى دراسة مستقلة.

ومن يصدق أن شابا في مقتبل عمره تتنافس المجلات الأدبية والثقافية على محاولة اجتذابه، وتنشر له نتاجه بصورة تكاد تكون دورية ؟ وأن كتابته في مجلة المقتطف بدأت عام ١٩٣٢، وكان قد سبق ذلك نشره في مجلة الزهراء عام ١٩٢٦ ، والبلاغ عام ١٩٣٠ ؟ ثم تلا ذلك كتاباته في مجلة الرسالة، والفتح، والعصور، والكتاب، والمسلمون، والثقافة، والهلال وغيرها.

وبعد : فقد عرفت المرحوم الأستاذ محمود شاكر أو تتلمذت على يديه معاينة بعد أن تتلمذت على أفكاره وأبحاثه ودراساته — عرفته معاينة منذ عام ١٩٥٩ حينما كنت طالبًا متفرغًا للدراسات العليا أعد لدرجة الماجستير . وأذكر أنني في مستهل اشتغالي بالتحقيق كانت تستغلق عليّ بعض الأمور فكنت أعرضها على شيخ المحققين فيهرع إلى مكتبه ثم يعود بعد دقائق وفي يده مفتاح الحل . وأذكر أنني قد عجزت عن نسبة شطر بيت وتكملته ، وهو قول الشاعر :

على كثرة الواشين أي معون

فأكمله لي في الحال ، ونسبه إلى جميل بن معمر ، والبيت بتمامه :

بثينَ الزمي "لا" إنّ "لا" إن لزمته   على كثرة الواشين أيُّ مَعُونِ

وتكررت لقاءاتي به في منزله بعد ذلك لعدة سنوات .. إلى أن طوّحت بي الأيام فعشت طويلاً خارج مصر للدراسة أولا ، ثم للعمل ثانيًا ، فقلت زياراتي له ، وإن تعدّدت لقاءاتي به في زياراته المتكررة للكويت .

وحينما اعتقل الأستاذ محمود شاكر في عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، (وقد حدث ذلك مرتين : الأولى لمدة تسعة أشهر عام ١٩٥٩ ، والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرًا في الأعوام ١٩٦٥ – ١٩٦٧) كنت ضمن تلامذته وأحبائه الحريصين على زيارته في المعتقل . ومع ذلك لم يكف لا قبل اعتقاله ، ولا في أثنائه ، ولا بعد الإفراج عنه عن مجاهرته في كل مجالسه برأيه في نظام الحكم ، غير مبال بما يسببه له ذلك من متاعب ، ولا عابئ برجال السلطة الذين كانوا يسجلون عليه أنفاسه ، ويرصدون زائريه ، ويراقبون الداخلين عليه والخارجين ، ويتنصتون على مكالماته الهاتفية .

رحم الله الفقيد الكريم كفاء ما قدمه للعروبة والإسلام من أياد بيضاء ، وأثابه على جرأته في الحق ، وصموده في الدفاع عن قضايا أمته العربية ، وتصديه لكل ما يراد لها من كيد في دينها ولغتها وأدبها وتراثها .

وصدق قول صديقه محمود حسن إسماعيل فيه :

وأراك أنت بكل لُجٍّ مَوْجها ... وأراك أنت عليمها وكليمها

والهادر المشبوب في شلالها ... والجاذر الشبهات في استدلالها

الانحراف اللغوى فى الإعلام المصرى المسموع[1]

مظاهره ، وسبل تقويمه

الراصد للغة الإعلام المصرى المسموع يلاحظ جملة أمور سلبية منها:

١-طغيان المادة التى تقدم بالعامية على تلك التى تقدم بالفصحى.

٢- وجود انحرافات لغوية محدودة ولكنها ملحوظة فيما يقدم من مادة فصيحة تتمثل فى نشرات الأخبار والتعليق عليها، ومواجز الأنباء، وأقوال الصحف، وحديث السهرة،والأحاديث الدينية ذات المواعيد الثابتة فى كلتا الإذاعتين المسموعة والمرئية.

٣- غلبة الانحرافات اللغوية على العديد من البرامج والنشرات الخاصة التى كان يمكن أن تقدم باللغة الفصحى مثل النشرة الجويه،والاقتصادية، والرياضية، وحوارات الضيوف مع مقدِّمى الكثير من البرامج،وتقارير المندوبين والمراسلين الإذاعيين.

٤-تفاوت مستوى المتحدثين الخارجيين،وتدنى لغة بعضهم إلى الحد الذى يستفز المشاعر،ويستثير الغضب والدهشة فى آن واحد.ويشمل ذلك خطب الكثير من كبار المسئولين فى الدولة ، وأحاديثهم وتعليقاتهم ، وخطب بعض رجال الدين فى الجمعة أو العيدين أو الاحتفالات الدينية المختلفة.

وإذا كان النوع الأخير يخرج عن سيطرة الإذاعة، ولا تتحمل -من أجل ذلك - مسئوليته، فهى مسئولة مسئولية تامة عن الأنواع الثلاثة الأولى، وهى مطالبة من واقع هذه المسئولية بتتبع هذه الانحرافات، والسعى الجاد للتخلص منها والقضاء عليها.

وحتى لا يكون كلامى مرسلا أو ملقى على عواهنه أضرب الأمثلة السريعة لما لاحظته من أنواع الانحرافات فى المادة المقدمة باللغة الفصحى.

---

(١) محاضرة ألقيت في مؤتمر المجمع لعام ١٩٩٩-٢٠٠٠.

وأبدأ بالمذيعين المحترفين فى الإذاعتين المسموعة والمرئية، الذين كان يجب على الإذاعة أن تصنعهم على أعينها، وأن تحسن اختيارهم، وتتوخى الدقة فى انتقائهم، وتتعهدهم بعد ذلك بالعناية والرعاية والتوجيه حتى يستقيم لسانهم، وتجود لغتهم قبل أن تدفع بهم إلى مواجهة الجماهير،ومخاطبة أسماعهم.

وأضرب أولا بعض الأمثلة من المآخذ الصوتية والنطقية،ثم أثنّى ببعض الانحرافات اللغوية الأخرى.

أولاً: المآخذ الصوتية والنطقية:

تدخل تحت هذه المآخذ أنواع مختلفة، منها:

١-الاستخدام المعيب للوسائل الصوتية غير اللفظية [(١)]:

يفتقر كثير من المتحدثين فى الإذاعتين المسموعة والمرئية إلى ثقافة صوتية، ويفتقدون التدريب الكافى على استخدام الإمكانيات الصوتية المتنوعة التى تدخل تحت ما يسمى بالوسائل الصوتية غير اللفظية ، أو الملامح النطقية غير التركيبية المصاحبة للعملية الكلامية ، والمشاركة لها فى أداء الرسالة اللغوية ، والمستخدمة لتنويع نماذج الأصوات مثل النبر [(٢)] والتنغيم [(٣)]،

---

(١) لم تعالج وسائل الاتصال غير اللفظية معالجة علمية إلا منذ أوائل الخمسينيات من القرن العشرين تحت اسم "علم الحركة الجسمية".

(٢) وهو إعطاء بروز لأحد مقاطع الكلمة بالنسبة لغيره من المقاطع بقصد إظهار الاهتمام به.

(٣) وهو تتابعات مطردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتية على جملة كاملة،أو أجزاء متتابعة.

ودرجـــة الصوت [١] ومعدل سرعته[٢]، ونوعيته، ومدى ارتفاعه[٣] ، والوقفة أو السكتة[٤].
وتأتى أهمية هذه الوسائل الصوتية من أنها تنتج نحوا من ٣٥٪ من الرسالة اللغوية،كما أنهـا قد تكون ذات تأثير سلبى حين يساء استخدامها.وربما كان من أكثر السلبيات لفتا للنظر فى هذا المقام ما يأتى:

١-كـثرة السـكتات والوقفات الخاطئة من المذيع، كما حدث حين قرأ أحدهم الجملة الآتية:" أن أسلوب الشتائم الذى يتبعه العراق# [٥] دائما أسلوب المفسدين"، وكان حقه أن يقرأها هكذا:

"أن أسلوب الشتائم الذى يتبعه العراق دائما# أسلوب المفسـدين ".

وكذلك الجملة الآتية التى قرأها المذيع هكذا:

"حـيا وزيـر خارجـية البوسنة# مستقبليه، وأثنى على صمود بلاده"،وكان حقه أن يقرأها هكذا:

"حيا وزير خارجية البوسنة مستقبليه # وأثنى على صمود بلاده".

---

(١) تـتدخل درجـــة الصـــوت لبيان درجة الانفعال أو التأثر،أو الابتهاج، أو الاهتمام بمضمون الجملة،ومحتوى الكلام.

(٢) يشـــير إلى عدد الأصوات المنطوقة خلال وحدة زمنية معينة. ولمعدل السرعة أثر كبير فى تحسين الاتصال، والوضوح، والاستيعاب.

(٣) يعطى لمحات وقتية أو لحظية عن المتصل وشكل تفاعله مع الآخرين.

(٤) المعدل الطبيعى هو عدم التصويت لمدة ٢٠٠مللى ثانية أو أكثر قليلاً.

(٥) هذه العلامة تشير إلى موقع السكتة.

٢-الخطأ فى تنغيم الجملة أثناء قراءتها.فالجملة أثناء الاستمرار فى نطقها لها تنغيم معين، وعند انتهائها يصبح لها تنغيم آخر.والجملة التقريرية لها تنغيم،والاستفهاميّة تنغيم ثان، والاحتمالية تنغيم ثالث، والتوكيدية تنغيم رابع وهكذا[1].

وكثيرا ما يعطيك المذيع- عن طريق تنغيمه للجملة -انطباعاً باستمرار الجملة، ثم تفاجأ بانتهائها، والانتقال إلى جملة جديدة، وقد يحدث العكس، أى أن يعطيك المذيع عن طريق تنغيمه إحساساً بانتهاء الجملة، ثم تفاجأ بعدم انتهائها، كما فعل مذيع إحدى النشرات حين نطق الجملة: "بعد ثلاثة أشهر من الإصرار" فقد قرأها: بعد ثلاثة أشهر (بتنغيم الوقوف)،ثم فوجئ السامع بأن الجملة لم تنته، وأن بقيتها: "من الإصرار". وكما فعل مذيع آخر حين نطق الجملة " لا فرق بين حل عربى أو إسلامى، مهما كان الحل فالمطلوب حل المشكلة " حيث أعطى تنغيم الوقوف عند "مهما كان الحل" مع أن الجملة ممتدة.

٢-نطق الأصوات نطقاً معيباً:

يشمل ذلك نماذج كثيرة،أهمها:

أ- الخلط بين الصوتين المجهور والمهموس فى النطق تحت تأثير عامل المماثلة الصوتية،وهو ما قد يؤدى - فى بعض الأحيان - إلى تغيير المعنى أو تشويهه، ومن أمثلة ذلك:"يخفر أخطاءه" بدلا من " يغفر" ، "تحتقدُ أن"بدلاً من "تعتقد"، "نشرة الأغبار"، بدلا من "الأخبار" "ضخط مرتفع"، بدلاً من "ضغط" .

ب- الخلط بين الصوتين المرقق والمفخم، وبخاصة صوتا الراء واللام اللذان يختصان بأحكام معينة حسب نوع الحركة المصاحبة لهما، أو نوع الصوت المجاور، ومن أمثلة ذلك ترقيق الراء فى لفظ "رامية من ذلك"و "السنوات الأخيرة"، وتفخيم لفظ

---

(١) تتنوع التنغيمات بين الصاعدة، والمستوية، والهابطة، والصاعدة الهابطة، وغيرها.

الجلالـة فـى مـثل "سـائلا الله" مع نطق المذيع "سائلا" موصولة بلفظ الجلالة، وتحريك تنويـنها بالكسـرة للـتخلص مـن الـتقاء السـاكنين. وآخر ما سمعته من هذا القبيل نطق المذيعة صباح يوم الاثنين ٢/٢١ "نجاح الطيار الإصلاحى"، وهى تقصد -بدلالة السياق - التيار الإصلاحى.

ج- التأثر بالنطق العامى فى نطق الأصوات التى يختلف نطقها الفصيح عن نطقها العـامى كـنطق "الغـردقة" : "الغـردأة"، ونطق "ذلك" : "زالك"، "ثقافة" :"سقافة". وقـد يوقـع هـذا الـتأثر فـى لـبس دلالى كما سمعت أحدهم يقرأ : " لا تتعدى الشقة حجرتين بأساس متواضع" بدلا من " أثاث ".

د- الخلـط بين " ال " الشمسية و" إل " القمرية ، والأولى تتحول إلى صوت ممـاثل لما بعدهـا ويدغـم الصـوتان، أمـا الثانية فتحتفظ بنطقها ولا تتحول إلى صوت آخر. وقد سمعت أحد المذيعين يقول: "هنا اقّاهرة "،وثانياً يقول : لدى الشعب العربى ككل، وثالثاً يقول : على أساس من الوفاء والتقدير.

هـ- الخلـط بين همزتى الوصل والقطع،بنطق الأولى فى وسط الكلام همزة قطع، كما فى الأمثلة الآتية: "بهذا الإسم "، "وأصيب إثنان منهم "، "قضايا ألأمة العربية"، "يتكلم إعتيادياً". ويتصل بهمزة الوصل كذلك الخطأ فى ضبطها حين يبدأ بها، كما فى عبارة "استُخدم استخداماً خاطئاً"، "اختُتمت المباحثات أمس فى باكستان"، فقد نطقها المذيـع بكسـر الهمـزة والصـواب ضـمها لبـناء الفعـل للمجهول، ووجود ضمة قريبة من الهمزة.

و-الـتخلص بالسـكون مـن حـركة الإعراب،وهذا شائع فى نطق المذيعين بصورة لافـتة للـنظر، وقد يبالغ المذيع فى ذلك فيبدو وكأنه ينطق كلمات مفردة لا جملة متصلة كمـا قـرأ أحدهم : "مع خبراءْ من وزارةْ البترولْ والثروةْ المعدنيةْ"، وقرأ آخر: "تكوينْ مجموعةْ دولْ مستعدةْ للموافقةْ على القرار".

وحين يواجه المذيع المسكّن للآخر بسكون الحرف التالى فإنه يلجأ إلى حركة التخلص من التقاء الساكنين، وليس الحركة الإعرابية الملائمة مثل "أكد الرئيسِ الأمريكى" ، "وقد تم اختيارِ السيد أمين بسيونى" ...

ثانياً: الانحرافات اللغوية الأخرى:

وتغطى هذه الانحرافات ما يأتى:

١- الانحرافات الصرفية:

ربما كان أكثر ما يقع فيه المذيع من انحرافات صرفية يتمثل فى الخطأ فى ضبط عين الفعل الثلاثى المجرد فى كل من الماضى والمضارع. والأمثلة كثيرة بالعشرات، ولكننى سأكتفى بضرب الأمثلة القليلة الآتية:

أ-لقد ثبُت بُعْد نظره، والصواب من باب نصر. أما ثبت - بالضم - فقد جاء من الشجاعة وثبات العقل فيقال:ثبت الرجل إذا كان شجاعًا متماسكًا.

ب-حَفَظ للبلد كرامته، والصواب من باب فرح، ودليل ذلك أن المضارع بالفتح، ولم يرد فعل من باب فتح إلا إذا كان حلقى العين أو اللام.

ج- الخلط بين بابى ضرب ونصر، وهو كثير شائع، ولنا رأى فيه سنذكره فيما بعد.

د- الخطأ فى ضبط عين الماضى المضعف من باب فرح حين فك إدغامه لإسناد الفعل إلى ضمائر الرفع المتحركة مثل:مللت صحبته، وظللت أناقشه، التى يجب أن تنطق بكسر العين لا بفتحها.

هـ- ويلى هذا الخطأ فى الشيوع والكثرة الخطأ فى ضبط حرف المضارعة نتيجة الخلط بين الفعل الثلاثى المجرد، والثلاثى المزيد بالهمزة، مثل:كانت تَأوى جماعَة من المنشقين، والصواب:تُؤْوى، تُحد من قيمتها، والصواب: تَحُدّ، تَحكم قبضتها، والصواب: تُحكم،حرب تُشنها إسرائيل، الصواب:تَشُنّها.

و- ومن أمثلة الانحرافات الصرفية كذلك الخطأ فى التعامل مع المؤنث المجازى عن طريق تذكيره، وعود الضمير عليه مذكرًا، فى كلمات مثل: سِنّ، وفخذ، وأذن، وكتف، ويمين، وبئر.. وقد تولد عن هذا الخطأ خطأ آخر تمثل فى تأنيث عدد من الكلمات المذكرة مثل بلد، ورأس، ومستشفى.

وتحت يدنا أمثلة أخرى كثيرة تتعلق بقواعد التثنية، وجمع المؤنث السالم، وباب النسب، والخلط بين اسمى الفاعل والمفعول مما زاد على ثلاثة، والخطأ فى إسناد الأفعال إلى الضمائر، وبخاصة الأفعال المقصورة عند إسنادها إلى واو الجماعة أو ياء المخاطبة.

٢- الانحرافات النحوية:

تظهر هذه الانحرافات فى أبواب معينة يكثر الخطأ فيها حتى من المتخصصين، ومن ذلك أبواب العدد، ومنع الصرف،وبعض مسائل الاستثناء والإتباع، وخلط أجزاء الجملة نتيجة طولها، وكثير غير ذلك، ولا يتسع المقام لضرب الأمثلة لكل نوع.

وربما كان من أهم الانحرافات النحوية ما يسببه طول الجملة، وفصل المتعلقات عما تتعلق به، مما يوقع فى لبس، مثل:جامعة القاهرة تبحث استعدادات العام الدراسى بعد غد، والمراد: جامعة القاهرة تبحث بعد غد استعدادات العام الدراسى لأن الظرف "بعد غد" متعلق بالفعل "تبحث"، وليس ببدء العام الدراسى.

٣- الانحرافات المعجمية:

يضم هذا النوع من الانحرافات صورًا كثيرة ربما كان أشهرها الخطأ فى ضبط بنية الكلمة. وقد شاع أثناء تولى عمر عبد الآخِر منصب المحافظ أن نطق اسمه:عبد الآخَر،والآخَر ليس من أسماء الله الحسنى، وإنما هو الآخِر. ويشيع كذلك التعبير "الخَيار العسكرى" وينطق بفتح الخاء، وصحة نطقه بكسرها، صَمّام الأمن، والصواب: صِمام ، الحكومة والمعارضة فى قارَب واحد، والصواب قارِب.وقد سمعت أحد المذيعين ينطق اسم مجمعنا: المُجَمَّع اللغوى ، وثانياً ينطقه المَجمْع اللُّغَوى . وكلمات أخرى

كثيرة مثل الجُرْم السماوى، فصل جنوب السودان عن شِماله، عِقْد التسعينيات، مدرسون أكِفَاء..

فإذا انتقلنا إلى مقدمى البرامج والنشرات الخاصة، والمندوبين والمراسلين الإذاعيين والمترجمين الفوريين نجد الخطب أفدح، والبلوى أعم.ولا يكاد يسلم أحد من الذين استمعت إليهم من الخطأ وإن تفاوتوا فى ذلك تفاوتًا كبيراً، فمنهم المتمرس الذى يملك زمام اللغة وهم قلة قليلة مثل عبد الوهاب محمود مراسل الإذاعة فى ألمانيا، وعبد الحميد زقزوق مراسلها فى الكويت، ومنهم من لا يكاد يقيم لسانه.وأضرب أمثلة سريعة لأخطاء هؤلاء المراسلين وزلاتهم:

- شعُر الإسرائيليون بذلك (عباس متولى / وشنطن)٢٠٠٠/١/٢١
- وأن لدى المقاومة قلاعُ حصينة (عبد الملك خليل/ موسكو)٢٠٠٠/١/٢١
- تقلص خلالِها الدور الأمريكى
الإستفراد بالمفاوض الفلسطينى
تسكين أواخر الكلمات
} (مجدى يوسف/بروكسل) ٢٠٠٠/١/١٩.
- الحملة التى يُشنها الحزب
عَمَل من خلال الأمريكيين
وُفْق الترتيبات الأمنية
} (سيد على/ بيروت)٢٠٠٠/١/٢٤.
- قطع همزة الوصل: للإلتزام /الإتفاقيات
إستنفاد الجهد، الإقتصادية
أكدت المصادرَ المطلعة فى المجلس
ترقيق الراء فى : رامية من ذلك
على طاولة المفاوضات الأخيرة
} (مجدى يوسف/ بروكسل)
٢٠٠٠/١/٢٤
- الوَحّدات والفوات
لا تعلن فيه سوى عن مقتل ثلاثة
أن إدراجِها رسميا
} (سامى عمارة/موسكو) ٢٠٠٠/١/٢٤

- يرى أن تشكيل الحزب الجديد دليلا على انشقاق المعارضة (مراسلنا فى لندن) ٢٠٠٠/٢/٣.

ومن الأمثلة المتناثرة التى جمعتها مؤخراً:

خبراء اللّغويات (كما نطقها عباس متولى مراسل الإذاعة فى واشنطن).
ومن يخطُوَ فى اتجاهها خطوة واحدة (كما قرأها عبد الوهاب منتصر مراسل الإذاعة فى أبو ظبى)

تُدْمغ جيش إسرائيل.
يجب على مجلس الأمن عدمَ القبول بأقل من ...
آخر ما يمكن للنظام العراقى قبولَه.
قطعوا شِفَتها.

كما يدخل فى هذا الفريق المعلقون الإذاعيون على الهواء، والمعلقون على الأخبار إذا كانوا هم كاتبى التعليق، كقول أحدهم: كان من قُبيل تحصيل الحاصل،وقول آخر:بين الرئيسان مبارك وحافظ الأسد .وقد سبق أن نبه المرحوم أحمد بهاء الدين فى إحدى يومياته على ذلك قائلا : "ومنذ أيام رأيت تعليقًا على الأنباء وسط أحد البرامج الإخبارية بصوت كاتب التعليق. ولم أسمع من قبل هذه الكمية من الأخطاء اللغوية فى هذا العدد من الدقائق"(يوميات ٨٩/٤/١)وقد كان سمير التونى رئيس شبكة الأخبار المركزية السابق فى الإذاعة من أسوأ النماذج لهذا النوع من المعلقين الإذاعيين مع أنه كان ينبغى -بحكم منصبه - أن يكون قدوة لغيره، والحمد لله أن إحالته إلى المعاش قد خلصتنا من أخطائه الصارخة. وقد قام أثناء عمله بوصف مراسم استقبال الرئيس حسنى مبارك فى دمشق وتكلم نحو دقيقتين وقع فيهما فيما لا يقل عن ستة أخطاء لغوية.

ومنذ أيام قلائل كنت أستمع إلى تسجيل لحفل الجامعة الأمريكية الذى تسلمت فيه السيدة سوزان مبارك درجة الدكتوراه الفخرية.وجاء تعليق السيدة سوزان حسن مليئا بالأخطاء الصارخة -مع أنها مذيعة سابقة قديمة -كقولها: حصُلت على درجة

الماجستير-أن حضورها جعل هذا الاحتفال احتفالا خاصا -لتقدم نموذجٌ رائعٌ -بدأت رحلةٌ عملَها التطوعى..إلخ.

وأما المتحدثون الخارجيون نحدث عنهم ولا حرج وبخاصة إذا كانوا من رجال السياسة أو أقطاب الحكم. ولم يسلم من المآخذ كبار المثقفين ورجال الدين الذين يتوقع منهم أن يكونوا فى مرتبة أعلى فى صحة التعبير من المذيعين. وأكتفى ببعض الأمثلة الصارخة لذلك.

١-فى كلمة قصيرة لنقيب الصحفيين السابق مكرم محمد أحمد ألقاها بين يدى الرئيس حسنى مبارك فى عيد الإعلاميين - وهى مناسبة كان ينبغى أن يحتشد لها - لم يقم لسانه فى جملة واحدة، وأخطأ فى الفاعل والمفعول والمجرور.

٢-فى إحدى جلسات افتتاح مجلس الشعب ألقى الدكتور أحمد فتحى سرور كلمة قصيرة أخطأ فيها بضعة أخطاء لغوية منها عطف منصوب على مرفوع، ونصب الفاعل، وضم راء "تجربة" ، وقطع همزة الوصل، مع أن الصحف المصرية كانت حريصة على أن تبرز ضمن مواهب الدكتور سرور أنه متحدث من الطراز الأول، وأنه يجيد فن الحوار. وفى كلمة أخرى ألقاها تحية للرئيس حسنى مبارك أمام مجلس الشعب والشورى وقع فى بضعة عشر خطأ تتعلق بالعطف ، والنداء، والمضاف إليه، وهمزة الوصل، وضبط عين الثلاثى. وفى تعليق على مناقشات قانون الأحوال الشخصية وقع فى عشرات الأخطاء التى منها: مناقشات استمرت ستةُ أيام.

٣-فى كلمة للوزير الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة أذيعت فى وسائل الإعلام المسموعة وردت الأخطاء الآتية :

اسمحو لى أن ألقى كلمة ..	(وصحتها بضم الهمزة)
تَشْرف بكم	(وصحتها بضم الراء)
كان أحدُ صور هذا الوعى	(وصحتها كانت إحدى صور هذا الوعى)
إلى دائرةَ النور	(وصحتها إلى دائرةِ)
أن تضاءُ المناطق	(وصحتها : بالنصب)

حتى يمكن إدراكَ عمقها (وصحتها بالرفع لأنها فاعل)

عقْد لحماية الطفل المصرى (وصحتها عقد بفتح العين)

٤-ولم يسلم كبار الشيوخ ورجال الدين فى الدولة من الوقوع فى الأخطاء المستفزة، مما يجعلنى أتشكك كثيرًا فى جدوى الدعوة إلى العودة إلى الكتاتيب ، وتحفيظ القرآن مع أننى كنت من المؤيدين للفكرة ، ومن الأمثلة على ذلك :

أ - فى أول ظهور علنى لفضيلة الشيخ نصر فريد واصل مفتى الجمهورية، وفى حديثه فى حفل استطلاع هلال شهر رمضان (١٩٩٧/١/١٩) نجده يخطئ فى آيتين قرآنيتين ويقع فى ثلاثة أخطاء لغوية هى :

- أحد هذه العبادات هو الصيام ، وصحتها : إحدى .. هى .
- وأنا الذى أُجزى به ، وصحتها : أَجزى .
- لأن كلٌ منهما لا يغنى عن الآخر ، وصحتها : كُلاً .

ب - فى خطبة الجمعة التى أذيعت يوم الجمعة ٢٠٠٠/٢/٤ من البرنامج العام، ومن مسجد السيدة خديجة بنت خويلد لم ينطق خطيب الجمعة جملة واحدة صحيحة. ولا أدرى كيف تسكت وزارة الأوقاف على هذا المستوى المتدنى للخطباء، وكيف يذيع البرنامج العام خطبة لا يعرف صاحبها أوليات القواعد النحوية، ومن ذلك :

- لأن موسم الحج موسما اقتصاديا واجتماعيا كذلك .
- وجعلها أشهرَ معلومة.
- له حواسٍّ يتحسس بها الأشياء.
- وأن ينتهِى عما نهى الله عنه.
- يوم خلق السموات والأرضِ منها أربعة حرم (ولاحظ أن هذه آية قرآنية).
- خلق الأيام فاصطفى منها يومُ الجمعة، والليالى فاصطفى منها ليلةُ القدر.
- النهى عما انتُهينا عنه (يقصد : الانتهاء عما نهينا عنه).
- لماذا نهوَى بعقولنا، ونسقط بتفكيرنا؟
- الإسلام ثوب أبيضٌ شفاف، فعلينا الاستماعَ إلى النصيحة.

- أرح نفسك يا عبدُ الله.

ج – فى حديث الصباح الدينى لفضيلة الشيخ منصور الرفاعى (١٩٩٩/٣/٢٦) وقع لحن فاحش إذ كرر نطق الحديث الشريف : استوصوا بالنساء خيرًا – نطقه: استوصَوْا بفتح الصاد وسكون الواو، مع أنها فعل أمر لاماض.

د - ورغم إعجابى بفصاحة فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ سيد محمد طنطاوى فإننى لاحظت أنه كثيرًا ما تبدر منه بعض الهفوات اللغوية، كقوله فى حديث الروح (مساء ٢٠٠٠/٢/١) : هذا ما سنتكلم عنه فى الحلْقات القادمة.

هـ – وقد كنت آمل الخير فى المسلسلات التى تقدم بالفصحى، وأتوقع أن تؤدى دورها فى الارتقاء بمستوى الأداء اللغوى، ولكن خيبت معظم هذه المسلسلات ظنى هى الأخرى. وأكتفى بضرب الأمثلة من مسلسل أبى حنيفة الذى قدمه تليفزيون القاهرة خلال شهر رمضان ١٤١٧، فقد كثرت فيه التجاوزات اللغوية إلى الدرجة التى جعلت أحد كتاب الأعمدة اليومية الصحفية يسميها "كوارث لغوية" ، ومنها :

- فى يوم ٩٧/١/٢٣ قال أبو حنيفة (محمود ياسين) لابنه : قاطعت حلْقات العلم فى المسجد، وصحتها : حَلَقات. وفى اليوم نفسه يقول أبو حنيفة (محمود ياسين) أن به تبيانُ كل شىء.
- وقد سببت كلمة "دعاة" المضافة إلى الضمير مشكلة للممثلين - وربما للمراجع اللغوى للمسلسل أيضًا - لأنها نطقت عدة مرات مع نصبها بالكسرة توهما أنها من جمع المؤنث السالم، ومن ذلك ما جاء فى حلقة ١/٢١ على لسان شيخ العباسيين : أبلغوا دعاتِنا بالتخفى والسكون. وتكرر فى حلقة ١/٢٣ : إن دعاتِهم ينشطون اليوم بعد قتل زيد.

وقد استفز هذا التدهور الشديد للغة الإعلام المسموع كثيراً من المثقفين الغيورين الذين نبهوا إلى كثرة هذه الأخطاء وفداحتها. ومن هؤلاء الأستاذ نجيب محفوظ الذى كتب فى "وجهة نظر" بالأهرام ما نصه : "من حين لآخر تثار مشكلة اللغة

العربية فى التليفزيون كيف تلقى على الناس متعثرة بأخطاء النحو والنطق، وكيف تعمل على نشر الخطأ على أوسع نطاق بقوة التليفزيون وهيمنته على الحواس والأذواق".

وكتب المرحوم "أحمد بهاء الدين" منذ أكثر من عشر سنوات فى عموده اليومى "يوميات" قائلا : خلال رحلة الرئيس مبارك الماضية إلى أوربا أغرقنا المذيعون والمذيعات فى التليفزيون بالنطق الخاطئ لأسماء أشهر الأماكن والعواصم والأشياء .. وبعض المسئولين فى التليفزيون يعتبرون مأساة اللغة العربية فى التليفزيون غير هامة. كلا يا سادة . فالذين وظيفتهم الكلام باللغة العربية يجب أن يتلقوا الدروس، أو تكتب لهم المادة مع التشكيل الدقيق.

وكان أقسى نقد وجه للغة الإعلام المسموع ما كتبه الأستاذ الدكتور كمال بشر فى صحيفة الأخبار منذ بعض الوقت مطالبا بالتصريح برفع دعوى قضائية تستند إلى الدستور ضد الإذاعة والتليفزيون؛ لأن الدستور ينص على أن اللغة الرسمية فى مصر هى اللغة العربية فى حين أن الإذاعة لا تلتزم بذلك.

* * *

فما السبيل إلى إنقاذ الأمة العربية من هذه الكارثة القومية المدمرة؟ لن أعقّد الأمور كثيرًا، فأطلب المستحيل، أو أنشد الحل خلال سنوات قليلة، وإنما سأركز على النقاط الرئيسية التى قد يحتاج إنجاز بعضها إلى سنوات بعد التخطيط الدقيق لها، ومتابعة تنفيذها.

أول ما أدعو إليه وأنادى به ضرورة إذكاء الشعور الوطنى والدينى لدى أبناء الأمة العربية وبث روح الغيرة على اللغة العربية فى نفوسهم والتعامل معها لا على أنها مجرد وسيلة للتفاهم، وإنما باعتبارها أولاً عنوان هويتنا، ووعاء ثقافتنا، وغايتنا فى ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. ولن أذهب بعيداً بضرب الأمثلة من اللغة الفرنسية التى وضع لها البرلمان الفرنسى مؤخراً قائمة سوداء من الكلمات التى يحظر استخدامها فى الإعلانات والمدارس والحكومة والمؤسسات، وأنما سأضرب المثل باللغة العبرية الحديثة التى لم تحقق ما حققته من مكانة لتصبح اللغة الوطنية لدولة إسرائيل إلا نتيجة لتنامى الشعور

الوطـنى، والإرادة الجماعية لليهود. ومما يلفت النظر فى التجربة اليهودية السرعة المذهلة فـى تنفـيذها وفاعليـتها، وشمولها كل مناحى الحياة داخل الدولة الحديثة، سواء كانت اجتماعية أو تقنية أو تعليمية.

وثـانى مـا أدعـو إلـيه اتخاذ الوسائل لإعداد مدرسى اللغة العربية إعدادًا جيدًا بعد اختيارهم من حملة الثانوية العامة على أساس قدراتهم وإمكاناتهم اللغوية والتربوية، مع توجيه أفضلهم إلى مرحلتى التعليم فى الروضة والتعليم الابتدائى اللتين تمثلان أخطر سـن وأهمهـا فـى تعلّم اللغة واكتسابها. ويقتضى هذا إعطاء مدرس اللغة القومية عدداً من المميزات الأدبية والمادية لجذب أفضل العناصر إليها.

أمـا ثالـث مـا أدعو إليه فهو تحسين صورة أستاذ اللغة العربية فى وسائل الإعلام وبخاصـة فى مسرحياتنا ومسلسلاتنا وأفلامنا، وعدم اتخاذه مادة للتندر والسخرية، وهى صـورة فـريدة بالنسـبة لمدرسى اللغات فى مصر، وبالنسبة لمدرس اللغات الوطنية فى كل بلاد العالم.

ويـأتى بعـد ذلـك الحـديـث عـن مسـئوليات الأجـهـزة الإعلامية التى يمكن أن ألخصها فيما يأتى :

أولاً : الـنزول بنسـبة الـبرامج الـتى تقدم بالعامية حتى تقرب من الصفر، والصعود بنسبة البرامج التى تقدم بالفصحى، مع تشجيع المتحدثين بالعامية فى معظم البرامج الإذاعية على الـتحدث بلغة سليمة بسيطة، وإزالة الرهبة من نفوسهم، مع بث الشعور لديهم بأن الحديث باللغة الفصحى مع نسبة خطأ معقولة أفضل من الحديث بالعامية.

ثانـياً : بالنسـبة لـلمذيعين وقـارئى النشـرات الإخـبارية أو التعلـيقات السياسية ومواجز الأخبار، وأقوال الصحف وغيرها من المادة المكتوبة، ينبغى مراعاة ما يأتى :

١-انتقاء أفضل العناصر من بين المتقدمين للعمل فى الإذاعة، مع قصر التعيين فى وظائف المذيعين على عاشقى اللغة العربية من خريجى أقسام اللغة العربية. وتدريب هؤلاء إذاعـيًا علـى الإلقـاء والقـراءة أمـام المـيكروفون أسهل بكثير، وأفضل نتائج من تدريب

غيرهم الذين فاتتهم سن الاكتساب اللغوى الصحيح، ولم تعد تجدى معهم الدورات اللغوية التدريبية نظراً لترسخ العادات النطقية الخاطئة فى نفوسهم.

٢-تسليم المادة المكتوبة للمذيع قبل قراءتها بوقت كاف يسمح له بضبط ما يلبس، واستشارة قسم التحرير، وبعض المعاجم إذا احتاج الأمر. وكثير من مشكلات النطق لدى المذيع تنشأ من عدم فهمه للجملة، وتعرفه على وظيفة كل كلمة فيها.

٣-كتابة الأعداد الواردة فى المادة المكتوبة بالحروف لا بالأرقام حتى يتجنب المذيع أخطاء العدد وهى كثيرة لا تحصى، وحتى يبتعد عن أى انحراف ناحية نطق الأعداد باللهجة العامية، وهو انحراف لا يكاد يسلم منه مذيع.

وما أظن أن الأخطاء الآتية كان يمكن أن تقع من المذيع لو أن الأعداد كتبت له بالحروف :

أ - التى بلغت مئتين وأربعةْ راكب. وواضح أن العدد قد كتب له ٢٠٤ راكب، فبدلاً من أن يقول: التى بلغت أربعة ومئتى راكب ، وقع فى هذا الخطأ البين.

ب - تبلغ إحدى .. أحد عشر عاماً. فواضح أن العدد قد كتب له ١١ عاماً، فبدأ به مؤنثاً على اعتبار أن التمييز هو كلمة سنة ثم اكتشف أنه كلمة عام فعاد وصحح نطقه، ولو كنت مكانه لتداركت الخطأ باستبدال كلمة سنة بكلمة عام.

ج – منذ عام ألف وتسع مئة واثنان وثلاثين .. فقد ارتبك المذيع حين وجد أمامه رقماً كبيراً كهذا ١٩٣٢ فصعب عليه المواءمة بين أحكام العدد من حيث التذكير والتأنيث والإفراد والجمع، وأحكام إعراب المثنى بين الرفع والنصب والجر فرفع لفظ اثنين ولم ينتبه إلى موقعه الإعرابى وهو الجر.

٤-أخذ التدريبات اللغوية التى تقدم فى دورات المذيعين المختلفة مأخذ الجد والخروج بها عن الطابع الشكلى الذى يساوى بين من يحضر أويغيب، ومن ينجح أو يرسب، ولا يجرى امتحانات جادة تميز بين من استفاد ومن لم يستفد، ويضغط على الأساتذة لتمرير الجميع ولو بطرق ملتوية.

٥-عدم الاقتصار على المذيعين من داخل الإذاعة فى كل الدورات التدريبية المقدمة وإشراك المراسلين والمندوبين الإذاعيين معهم فى هذه الدورات. وإذا لم يتيسر ذلك فينبغى اتخاذ معايير صارمة عند اختيار هؤلاء المراسلين والمندوبين، ومتابعتهم دورياً مع استبعاد العناصر غير الصالحة، أو ضعيفة الأداء اللغوى.

٦-السماح للمذيع بتصحيح ما يرد فى النشرة من أخطاء تعود إلى كاتب النشرة، وبذلك يمكن تدارك الخطأ قبل وصوله إلى السامع. ومن ذلك :

- لا يجب أن يكافأ المعتدى على عدوانه.
- لا أحداً يدعو إلى حل عسكرى
- مصر متمسكة بالحل السلمى لتجنُّب المنطقة ويلات الحرب (وكان الواجب أن يقرأها : إما: لتُجنِّب – على أنها فعل – ، أو لتجنيب – على أنها مصدر).
- كتبت صحيفة الأخبار فى إحدى موضوعاتها تقول .
- مع بعثتى صندوق النقد والبنك الدولى التى وصلت إلى مصر.
- يضم واحداً وأربعين دولة.
- قاصرة على السكان اليهود.
- كان مقرراً له العشرين من هذا الشهر (والعدد مرفوع سواء اعتبرناه اسما لكان مؤخراً، أو نائب فاعل لاسم المفعول).
- شركاء النمسا الأربعة عشرة.
- يرى أن تشكيل الحزب الجديد دليلاً على انشقاق المعارضة فى الجنوب.

٧-توجيه النظر فى الدورات التدريبية اللغوية إلى مواطن الزلل الشائعة مثل :

- الأخطاء النحوية والصرفية الملبسة.
- طريقة الأداء والنطق بما يشمل معدل السرعة، وقواعد النبر والتنغيم.
- نطق الأعلام العربية والأجنبية.
- كيفية تصحيح السهو وزلات اللسان وانحرافات النظر، بدلاً من ترك الأمر للمذيع ليتصرف كما يحلو له. فمنهم من يتجاهلها ويمر عليها مرور الكرام، ومعظمهم

يعـيد الكلمة مصححة دون تنبيه، أو يستخدم لفظ "أو" وقليل منهم من يعتذر ثم يعيد الكلمة مصححة.

٨-تعـيين عـدد مـن المـراجعين اللغويـين فـي كل قسم من أقسام الإعداد للمادة المقـروءة، وبخاصـة المترجمـة مـن لغـات أجنبية. والعناية بقسم تحْرير الأخبار ليتقاسم مع مذيع النشرة مسئولية الاتصال الجيد بالجمهور.

٩-الإكـثار مـن الأعمال الدرامية المقدمة باللغة الفصحى، وبخاصة ما يقدم منها فـى بـرامج الصـغار، والـتعاون مع الإذاعات الأخرى التى لها نشاط ملحوظ فى مثل هذا الـنوع مـن الأعمال الدرامية. ولعل النظر يتجه كذلك إلى تقديم الأعمال المدبلجة التى عادة ما تقدم بلغة عربية فصيحة.

١٠-عـدم اعـتماد الإذاعـة أى متحدث بها من خارج المذيعين إلا إذا كان يجيد الحديـث باللغـة الفصحى. واختيار المساجد التى تذاع منها خطب الجمعة والعيدين تجنباً لأمثال خطيب الجمعة الذى سبق أن أشرت إليه.

١١-عـدم الـلجوء إلـى الترجمـة الفورية المباشرة إلى اللغة العربية إلا فى أضيق الحـدود، وعلـى أيـدى المترجمـين المتمـيزين. وفـيما عدا ذلك تعرض المادة المترجمة على المتخصصين اللغويين لإقرارها قبل السماح بإذاعتها.

١٢-عـدم تـرك الحـبل علـى الغارب للهواة الإذاعيين الذين يتناولون قضايا اللغة العربـية فـى سـطحية ظاهرة، ويفتون فى قضايا الصواب والخطأ دون علم كصاحب برنامج "قـل ولا تقـل" وبرنامج "أسبوعيات" الذى شكل جماعة باسم "حماة العربية" دون أن يملـك مؤهـلات الحمايـة. وقـد تصـادف أن سـمعت برنامجه "أسبوعيات" وصدمت لكثرة أخطائه اللغوية من مثل قوله : حتى ننعُم بلقائكم ، وقراءته كلمة النُّهي على أنها النُّهى، والسـياق يحـتم غـير ذلـك، وخطـئه فى فاعل الفعل فى قوله : لا يمكننا قبولَها، بدلاً من "قبولُها".

ويأتي أخيراً، أو أولاً، دور مجمع اللغة العربية الذى يكاد يختفى فى الساحة الإعلامية، والذى كان يستطيع أن يقدم الكثير المفيد لأجهزة الإعلام المسموعة والمقروءة، من خلال ما يأتى:

١ - تبنى المجمع سياسة جديدة فى التعامل مع مشكلات اللغة شعارها "اللغة للجميع" يوجه إليها معظم جهده. والأمر يقتضى استحداث لجان جديدة مثل : "لجنة اللغة والإعلام" و "لجنة تيسير النحو" ، و"لجنة المعجم العربى الحديث" ، إلى جانب لجانه الحيوية الأخرى الموجودة. على أن تتولى لجنة "اللغة والإعلام" متابعة ما يرد فى الأجهزة المسموعة والمقروءة والمرئية من انحرافات، أو استخدامات جديدة، يشترك فى رصدها الخبراء والمحررون. ولا تقف اللجنة عند ذلك بل تتعداه إلى تنسيق الجهود مع أجهزة الإعلام المختلفة، وأقسام التحرير والمراجعة، ومعاهد التدريب الإذاعى والصحفى، مع فتح خط ساخن بين اللجنة ومسئول الإعلام بصورة تشجع على تبادل الرأى، وقيام اتصال مباشر يسمح بالرد على استفسارات الإعلاميين، والإجابة عن أسئلتهم.

وتتولى "لجنة تيسير النحو" مهمة وضع بناء متكامل لأساسيات النحو العربى، مع حذف التفصيلات والتشعيبات التى لا تفيد نطقاً، ولا تقيم لسانا. على أن يتم ذلك بالتنسيق مع وزارة التربية، ومراكز البحث العلمى المعنية، وعلى أن يصحب ذلك تصور هيكلى لموضوعات النحو العربى بحيث تتدرج مع النمو اللغوى للمتعلم وتشكل فى النهاية بناء كليا متناسقا يضم إلى جانب مادته التمرينات والتدريبات النموذجية، والاختبارات اللازمة، مع التركيز على مواطن اللبس، واستخدام طريقة التحليل التقابلى.

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يجب - إلى جانب التركيز على الجانب الوظيفى للقواعد- اختيار الأمثلة والنماذج من اللغة الحية المعاصرة، ومن النصوص التى لا تنفصل عن لغة الحياة، والتى يمكن أن تزود الطالب - فى الوقت نفسه - بمفردات وتراكيب يحتاجها فى حياته للتعبير عن ذات نفسه.

أما "لجنة المعجم العربى الحديث" فتحتاج لكى تؤتى أكلها إلى تنسيق مع المجامع اللغوية الأخرى. كما تحتاج إلى تعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمنظمات الوطنية المتفرعة عنها لاستكمال مشروع الرصيد اللغوى الوظيفى الذى توقف وغلفه النسيان، وما تم إنجازه منه قليل جداً من كثير جداً، وقد صار ما صدر منه متخلفاً عن ركب الحياة بعد طول الزمن عليه (لم أطلع إلا على كتاب الرصيد اللغوى الوظيفى، الصادر فى تونس عام ١٩٧٦).

٢ - أن يتجه المجمع فى لجانه اللغوية إلى التعامل مع القضايا اللغوية المتشابكة والأبواب النحوية المعقدة أو التى تتسم بالشذوذ وعدم الاطراد لمحاولة عرضها بصورة جديدة تجعل التمكن منها، والسيطرة عليها أمراً ممكنا، وذلك مثل ضبط عين المضارع من الفعل الثلاثى المجرد، وتمييز المؤنث المجازى من المذكر، وطرد قواعد التكسير ومصادر الثلاثى وغيرها. وينبغى فى مثل هذه الحالات تبنى أسهل الآراء وإن لم يكن أشهرها، والأخذ برأى الأقلية إذا كان يفضل رأى الأكثرية فى التيسير على أبناء اللغة.

وفى هذا المقام ينبغى أن نعلن للكافة سلامة الانتقال بين بابى نصر وضرب، دون غضاضة أخذاً برأى القلة من القدماء وعلى رأسهم أبو زيد الذين اعتبروا هذا قياسا مطردا. فلا نقف لنتساءل عن مضارع الأفعال كتم، وكفل، وهدف، ورسم، ونبذ، وهتف، وقطف، وسجن، وقبض، وحسد، ودرس، وطمس، وهبط، .. أهو بالضم أم بالكسر.

كما ينبغى أن نتخلص مما يسمى بالمؤنث المجازى إذا كان خالياً من علامة التأنيث، ونعامله معاملة المذكر، أخذا برأى المبرد الذى كان يقول: مالم يكن فيه علامة تأنيث، وكان غير حقيقى التأنيث فلك تذكيره، نحو: هذا نار. وبهذا نرفع الحرج عن نفوس من يذكر كلمات مثل إصبع، وسن، وكف، وعين، ويمين، وبئر، وأذن ، وكتف، وغيرها.

٣ - سعى المجمع الحثيث إلى نشر جهوده وأنشطته السنوية على الكافة، وبخاصة ما يتعلق منها بالتصويب اللغوى، وإدخال ألفاظ جديدة فى اللغة، وتيسير القواعد، وأن

تتخذ إدارة المجمع السبل لتوثيق صلتها بأجهزة الإعلام المختلفة لنشر قراراته وتعريف جمهور المثقفين بها، بدلاً من تركها حبيسة الأدراج، وعدم متابعة نشرها. فمن المؤسف أن يكون آخر ما صدر للمجمع من مجموعته "الألفاظ والأساليب" قد صدر عام ١٩٨٥[1]، ومن مجموعته "في أصول اللغة العربية" قد صدر عام ١٩٨٣. ومن المؤسف ألا يملك المجمع لنفسه سجلاً وافياً مفهرسا لكافة أنشطته وقراراته منذ نشأته حتى الآن، يسهل الرجوع إليه عند الحاجة.

وعلى الرغم من أن المجمع لا يملك سلطة الإلزام، فهو على الأقل يملك قدرة التوجيه، وما أظن أن أحداً سيخرج عما سيقرره المجمع إذا كان ما يقرره سائغا. وأشهد أن أجهزة الأعلام سريعة الاستجابة - حتى للملاحظات التى يصدرها الأفراد، كما أشهد أن صحيفة الأهرام دأبت لبعض الوقت على تسمية النشرة المنفصلة الملونة التى توزع مع الصحيفة اسم "إنسرت" وكانت تصف ورق النشر بأنه "ورق كوشيه" وحين اعترضت فى رسالة إلى بريد القراء على اللفظين استبعدت الصحيفة اللفظ الأول مكتفية بقولها "داخل العدد"، أما كلمة "كوشيه" فقد غيرتها إلى "ورق فاخر" كما اقترحت عليها.

وهناك - إلى جانب هذا - مجموعة من الاقتراحات التى لا يتسع المجال لذكرها ولعلى أجد فرصة أخرى للحديث عنها.

---

(١) صدر بعد هذا جزء ثالث عام ٢٠٠٠م.

نظرة في معجمين حديثين للمترادفات: المكنز العربي المعاصر، والمكنز الكبير[1]

مدخل

مفهوم كلمة مكنز:

كلمة المكنز ترجمة للكلمة الإنجليزية (ذات الأصل اليوناني) thesaurus. وقد تطور معناها في اللغة الإنجليزية تطورًا كبيرًا، فبعد أن كانت تعني "مخزن البيت"، أو "المكان الذي يحتوي على كنز "أصبحت تعني "الثروة"، أو "الكنز"، ثم تطور معناها فأصبحت تعني "مستودع المعلومات" مثل المعجم، أو الموسوعة، أو ما شابه ذلك (عام ١٥٦٥)، وأطلق في هذه المرحلة على عدد من معاجم اللغات الرومانسية، واللاتينية، والأماكن المشهورة. وفي عام ١٨٥٢ ظهر عمل روجيه Roget المعنون:

Thesaurus of English Words and Phrases[1]

وتوالت بعد ذلك الأعمال المعجمية التي تحمل نفس الاسم، مثل:

١- Cook's Thesaurus.
٢- Astronomy Thesaurus .
٣- NASA Thesaurus.
٤- Thesaurus for Graphic Materials.
٥- Global Legal Information Network Thesaurus .[2]

---

(١) بحث قدم إلى ندوة المعجم العربي- دمشق- أكتوبر ٢٠٠١.

أما في اللغة العربية فقد كان أول من ترجم الكلمة إلى "مكنز": "المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات"، وقد أعطاها عددًا من التعريفات يهمنا منها تعريفه "المكنز" بأنه معجم أو مجموعة مفردات جمعت وفقًا للأفكار، أي أنها تجميع أو تصنيف للمترادفات، وأشباه المترادفات، والأضداد (٣).

وفي العام نفسه ظهر معجم " المورد " (عربي - إنجليزي) الذي اشتمل على كلمة "مكنز" وترجمها إلى thesaurus.

وفي عام ١٩٨٩ ظهر " المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات " الذي أعدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس، وقد وضع أمام كلمة thesaurus لفظين عربيين هما: "ذخيرة لغوية "، و" مكنز" (٤).

وفي عام ١٩٩٣ ظهر أول معجم عربي يحمل اسم " المكنز " وكتب على غلافه بالعربية: المكنز العربي المعاصر: معجم في المترادفات والمتجانسات، وبالإنجليزية:

Modern Arabic Thesaurus : Arabic - Arabic

وفي عام ٢٠٠٠ ظهر ثاني معجم عربي يحمل اسم "المكنز"، وكتب على غلافه بالعربية: المكنز الكبير: معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات.

وبظهور هذين المعجمين استقرت كلمة " مكنز " باعتبارها المقابل العربي لكلمة thesaurus.

المفهوم الاصطلاحي لكلمة مكنز:

تحدد موسوعة كمبردج المفهوم الاصطلاحي لكلمة thesaurus بأنه معجم يعرض الكلمات بطريقة منظمة عن طريق تقسيمها إلى مجموعات حسب معانيها، وداخل كل مجال تأتي الكلمات ذات الصلة بحيث يشرح بعضها بعضًا(٥).

وأخذ المؤلف على هذا النوع من المعاجم مأخذًا هامًا، هو أنه محدود القيمة؛ لأنه لا يحوي معلومات عن العلاقات الدلالية بين الكلمات المستقلة، ولا يبين استخدام

الكلمة حسب المناطق، أو الظروف الاجتماعية، أو التنوعات التخصصية، ولكن الكلمات يُرَصّ بعضها إلى جانب بعض دون تعقيب.

ولكنه اعترف بأهمية هذا النوع من المعاجم، وبفائدته في المواقف العملية اللغوية، مثل الكتابات المتخصصة، والترجمة[٦].

أما معجم وبستر[٧] فقد طرح السؤال التالي: ماذا يريد الباحث من الـ thesaurus، ثم أجاب عنه قائلاً:

١-إنه يريد منه أن يقدم له كلمة أكثر ملاءمة من تلك التي وردت في ذهنه، وهذا يجعله مختلفًا عن معاجم المترادفات والمتضادات.

٢- إن المكنز يمكن أن يمد القارئ بمرادف أقوى أو أضعف من الكلمة التي خطرت بباله، أو يزوده بعبارة ذات تصاحب لفظي تحمل نفس المعنى الذي أراده، وهذه أمور لا تتحقق عند الحديث عن الترادف أو التضاد[٨].

٣-ويحدد معجم وبستر مواصفات المكنز المثالي بأنه لا يكتفي بسرد قائمة الكلمات، لأن ذلك لا يكشف عن معنى كل كلمة، بل لابد أن يبين لب المعنى لكل كلمة، ويعطي مثالاً توضيحيًا[٩].

التعريف بالمكنز العربي المعاصر

تأليف الدكتور محمود إسماعيل صيني وآخرين

يقع هذا المكنز في مائة وخمسين صفحة (تشغل المادة اللغوية الخالصة ١١٩ صفحة منها، والباقي يشغله كشاف الجذور) بالإضافة إلى مقدمة تقع في إحدى عشرة صفحة.

أما المقدمة فتعالج عددًا من القضايا، أهمها:

أولاً: استعراض تاريخي لنشأة معاجم المعاني العربية وتطورها على مدار السنين. وقد تناول هذا الاستعراض ثلاثة أعمال قديمة هي: الألفاظ الكتابية للهمذاني، وفقه

اللغة للثعالبي ، والمخصص لابن سيده. كما تناول عددًا من معاجم المعاني الحديثة هي: نجعة الرائد لإبراهيم اليازجي، والرافد للأمير أمين آل ناصر الدين، والإفصاح لحسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي ، والمنجد في المترادفات والمتجانسات لرفائيل نخلة اليسوعي[١٠].

ثانيًا: التعريف بالمعجم، أو بالمكنز، وقد تناول في هذا التعريف ثلاث نقاط هي:

أ-تحديد مفهوم المكنز واختصاصاته، وقد حدده بقوله: المكنز هو في عرفنا ذخيرة للكلمات، وهو مرشد للباحث عن الكلمات المرتبطة بمفهوم ما يمثله المدخل. فهو أداة لتذكير الباحث بما يعرف من كلمات مما قد لا يرد إلى ذهنه أو خاطره ساعة حاجته إليها عند التأليف أو الترجمة.

ب-ويبين المؤلفون[١١] الفرق بين معجم المعاني والمكنز بأن الثاني يبني تنظيمه على الألفاظ بوصفها تمثيلاً للمعاني المختلفة، ومن ثم لا يحتاج الباحث عن الكلمة المناسبة إلى البحث في الفهارس ورءوس الموضوعات. وكل ما على الباحث أن يذكر كلمة شائعة تتعلق بالفكرة أو المفهوم الذي يود التعبير عنه ثم يبحث عنه في مكانه وفق الترتيب الألفبائي.

ج-وينفي المؤلفون عن المكنز قدرته على التمييز بين الكلمات المترادفة أو المتجانسة، أو على شرح معاني المداخل[١٢].

ثالثًا: الحديث عن النظام الذي اتبعه " المكنز "، ويتلخص فيما يأتي:

أ-اختياره للكلمات الكثيرة الدوران والشيوع لتمثل المدخل إلى الكلمات الأخرى.

ب-بيان جذر الكلمة، ونوعها (فعل / اسم /صفة).

ج-ذكر الكلمات المرادفة أو المجانسة للمدخل مرتبة حسب درجة شيوعها.

د-ذكر بعض التعبيرات الاصطلاحية أو شبه الاصطلاحية التي تؤدي معنى كلمة المدخل.

هـ-اتباع الترتيب اللفظي الألفبائي دون النظر إلى جذر الكلمة أو اشتقاقها.

و-تزويد المكنز بفهرس للجذور يضم الكلمات المشتقة من كل جذر مما ورد في المكنز.

رابعًا: إيراد مصادر المكنز، وهي في جملتها من نوع معاجم الألفاظ والمعاني المعروفة.

خامسًا: بيان طريقة استخدام المكنز، وتتلخص فيما يأتي:

أ-البحث عن الكلمة في مكانها وفق الترتيب الألفبائي.

ب-النظر تحت نوع الكلمة (فعل / اسم /صفة).

نظرة نقدية في المكنز العربي المعاصر

يلفت نظر المستخدم لهذا المكنز جملة من الصفات الإيجابية مثل:

١-الاختصار والتركيز، والاعتماد على سلسلة الكلمات في شرح بعضها بعضًا.

٢-تحقيقه - إلى حد كبير- الغرض من تأليفه، وهو إرشاد الباحث أو المترجم إلى الكلمات المناسبة لموضوعه التي يبحث عنها، والتي قد تكون من محفوظاته اللغوية، ولكنها لا ترد إلى ذهنه ساعة حاجته إليها.

٣-أنه يوفر على الباحث في معاجم الموضوعات خطوة باستبعاده "رءوس الموضوعات"، واعتماده الكلمة الأولى في سلسلة المدخل لتكون هي المعبرة عن الموضوع.

٤-أنه اختار - في عرضه للكلمات - الترتيب اللفظي الألفبائي، دون اعتبار لجذر الكلمة الذي يقتضي تجريدها من الزوائد للوصول إليها، وهو ما يرهق المثقف العام.

٥-ذكره بعض التعبيرات الاصطلاحية والسياقية.

٦-تزويده بكشاف للجذور يضم كلمات المداخل المشتقة من كل جذر.

٧-ضبطه الكلمات - أو ما ألبس منها - بالشكل.

كما يلفت نظره جملة من الصفات السلبية، وأهمها:

١-أن المؤلفين اتبعوا أيسر سبيل عليهم، وهو الاكتفاء برصّ الكلمات بعضها إلى جانب بعض. وقد مرّ علينا توصيف معجم وبستر للمكنز المثالي بأنه لا يكتفي بسرد الكلمات، بل لابد أن يبين لب المعنى لكل كلمة (١٣).

٢-أن المعجم خلا من أي أمثلة توضيحية، وهو مطلب نصّ عليه كذلك معجم وبستر.

٣-أن المعجم خلا من أي إشارة إلى تحديد الاختلافات بين الكلمات، سواء كانت ناتجة عن اختلافات مكانية، أو ظروف اجتماعية، أو تنوعات تخصصية، وهو مأخذ سبق أن أشارت إليه موسوعة كمبردج.

٤-أن بدء المؤلفين كل مجموعة بأكثر كلماتها شيوعًا لتمثيل المدخل إلى الكلمات الأخرى لا يخلو من التحكم، لأنهم لا يستطيعون أن يقطعوا بأن ما يعدونه أكثر شيوعًا سيعده غيرهم كذلك.

فهل كلمة "آبَ" - مثلاً - أكثر شيوعًا من "عاد"، و"رجع"؟ وهل كلمة"آزر" أكثر شيوعًا من "ساند"، و"عاون" ؟ وهل "أَبّ" أكثر شيوعًا - إن كانت شائعة على الإطلاق - من "تجهَّز"، و "استعد"، و"تهيأ" ؟ وهل "أترع" أكثر شيوعًا من "ملأ"، و"عبّأ" ؟ وهل "بَرْهَم"- إن كان أحد منا قد سمع عنها أو استعملها - أكثر شيوعًا من"رنا"، و"حَدّق"؟ وهل "حُوب" أكثر شيوعًا من "إثم" و"ذنْب"، و "جُرْم"...؟

٥-أن ترتيب الكلمات بعد كلمة " المدخل " قد خضع كذلك لمبدأ الشيوع حيث بدئ بالأكثر شيوعًا، فالذي يليه، وهكذا، أو على حد تعبير المؤلفين " الكلمات.. مرتبة وفق درجة شيوعها"(١٤). وينطبق على هذا الصنيع ما قلناه في المأخذ السابق، إذ إن الباحثين لم يتفقوا على تحديد درجة الشيوع لكل لفظ. وعلى سبيل المثال: ورد بعد المدخل " آزَرَ " الكلمات الآتية بالترتيب:

آسى- أسعد على- وازر- ساند- نصر- أعان- أيّد- أنجد- أجار- رفد- أمدّ- عاون- عان- ساعد- دعم- أغاث- أسعف- ضافر. ولو كان الخيار لي لأخرت كلاً من "أسعد على"، و"وازر" و"أنجد" و"عان" إلى آخر المجموعة[١٥].

٦-أن المؤلفين كان عليهم لينجوا من المآخذين السابقين أن يتبعوا منهجًا آخر يقوم على ما يأتي:

أ-إلغاء مبدأ الشيوع تمامًا، والاستعاضة عنه بالترتيب الألفبائي.

ب-اتباع فكرة التدوير لكل الكلمات الواردة أمام كلمة " المدخل "، بمعنى وضع كل كلمة وردت في المعجم- وضعها في ترتيبها الألفبائي لتصبح مدخلاً مرة واحدة في المعجم، وكلمةً مرادفة في عدد من المداخل يساوي عدد مرات تكرارها.

ج-أو الاستعاضة عن فكرة التدوير بجعل كشاف الجذور شاملاً لكل كلمات المعجم، وليس فقط كلمات المداخل. فالباحث لا يستطيع أن يعرف ما إذا كانت كلمة ما واردة في المعجم - من خلال كشاف الجذور- إلا إذا تصادف وجودها في عمود المداخل.

٧-وهناك مأخذ آخر، هو أن المؤلفين لم يراعوا الاطراد والشمول في كل مدخل من مداخل المعجم بالنظر إلى ما ورد فيه من كلمات. ولتوضيح هذه النقطة أقول إنني اضطررت إلى التنقل بين سبعة عشر موقعًا[١٧] في المعجم لأجمع أكبر قائمة تضم مرادفات الفعل"عاد". ولو أننا استقرأنا هذه المواقع جميعها لاكتشفنا أن هذه القائمة الشاملة قد خلت من كلمات أخرى كانت تستحق أن تذكر ، مثل: وافى- ورد- وصل.

٨-وقد لفت نظري- في المكنز العربي المعاصر- كذلك جملة سلبيات من أهمها:

أ-وقوع خلط- أحيانًا- بين الأفعال المتعدية واللازمة. فمع " اشتعل "وضع " أضرم " مع أن هناك مدخلاً مستقلاً للفعل " أشعل ".

ب-وقوع خلط- أحيانًا- بين مصادر الأفعال، فمع "إشعال" وضع "تأجُّج" وصحتها: "تأجيج".

ج-عدم المنطقية في وضع المشتقات كمداخل. فلماذا تحت المدخل الفعلي وُجد: "اشتعل"، و"أشعل"؟ ثم في المدخل المصدري وُجد "إشعال" ولم يوجد "اشتعال"؟

د-وقوع هفوات يرجع بعضها إلى خطأ الضبط، أو سهو الطبع مثل:

- ضبط كلمة " استعر " هكذا: استعرَّ (ص ٩)، وصحتها استَعَرَ؛ لأنها من سعر، وليست من عرر.
- تنوين أعمى (ص ١١)، وهي ممنوعة من الصرف.
- ضبط كلمة "خصم" بكسر الخاء (ص٤١) وصحتها بالفتح.
- ضبط كلمة " سرحان " للذئب بفتح السين (ص ٤٦)، وصحتها بكسرها.
- ورود الفعل " أثاب " ضمن مرادفات الفعل " عاد " (ص ٧٦). والموجود في المعاجم " ثاب " بدون همزة.
- ورود كلمة " فاء " مدخلاً لمرادفات اسمية هي:"شفاء"، و"برء"، و"صحة"، و"نقه" (ص ٨٥)، ومكانها الأفعال.
- ضبط كلمة " رذل " مرادفة " لئيم " (ص ٩٥) بكسر الذال، والصواب بسكونها.

التعريف بالمكنز الكبير

تأليف الدكتور أحمد مختار عمر

يحتوي هذا المكنز على ٣٤٥٣٠ مدخلاً، موزعة على ١٨٥١ موضوعًا[١٨]، أو مجالاً دلاليًا، ويقع في ١٢٣٢ صفحة، خلص منها للمادة المعجمية ٩١٢ صفحة، وشغلت المقدمات حتى صفحة ٢٥، والفهارس من صفحة ٩٤١ حتى صفحة ١٢٣٢.

أما المقدمات فقد اشتملت على ما يأتي:

أولاً: قائمة بفريق العمل، والمهمات التي كلف بها.

ثانيًا: كلمة رئيس فريق العمل التي تضمنت تعريفًا بالمعجم، وتحدثت عن طريقة جمعه وترتيبه، وبينت أهم مزاياه وما ينفرد به عن غيره من المعاجم المشابهة. وقد شغلت هذه المقدمة ثلاث صفحات من المعجم، وتضمنت الأفكار الآتية:

أ-يضم هذا المعجم بين دفتيه معجمًا للموضوعات أو المعاني أو المجالات، ومعجمًا ثانيًا للمترادفات والمتضادات، ومعجمًا ثالثًا لمعاني الكلمات، ومعجمًا رابعًا للألفاظ أو الكلمات.

ب-لا تنحصر قيمة هذا المعجم في فكرته المبتكرة، ولكن تمتد لتشمل منهجيته وإجراءات العمل فيه، واتباعه أحدث المواصفات العالمية في صناعة المعاجم وإخراجها. وما وُضع بين يدي الباحث ليس عملاً معجميًا عاديًا، وإنما هو نقطة تحول في صناعة المعجم العربي. إنه ليس تكرارًا أو تقليدًا لعمل معجمي سابق، أو جمعًا لمعجم من عدة معاجم- شأن العديد من المعاجم السابقة- وإنما هو "موالفة" جديدة تقدم للقارئ العربي لأول مرة.

ج-استغرق التخطيط لهذا المعجم والعمل فيه جمعًا وتصنيفًا، وتبويبًا، وتحريرًا ومراجعة وبرمجة وإدخالاً زمنًا ليس بالقصير. وقد وضع تحت يد فريق العمل قبل البدء في العمل وأثناء العمل كل ما احتوته المكتبة العربية من معجمات عامة وخاصة. فالعامة مثل الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز أبادي، وتاج العروس للزبيدي، وأساس البلاغة للزمخشري، والمقاييس لابن فارس. والخاصة مثل:

١-معاجم الموضوعات والمجالات، وأهمها المخصّص لابن سيده، وفقه اللغة للثعالبي، والألفاظ الكتابية للهمذاني، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت، ومعجم أسماء الأشياء للبابيدي، والإفصاح في فقه اللغة لعبد الفتاح الصعيدي، وحسن يوسف موسى، وغيرها.

٢-معاجم المرادفات قديمها وحديثها. فالقديمة مثل: الألفاظ المترادفة للرماني، والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، وكتاب الفرق لقطرب، والكليات لأبي البقاء الكفوي، والحديثة مثل: معجم المعاني للمترادف والمتوارد والنقيض لنجيب إسكندر، وقاموس المترادفات والمتجانسات للأب رفائيل نخلة اليسوعي، ونجعة الرائد في المترادف والمتوارد لإبراهيم اليازجي، ومعجم الجيب للمترادفات لمسعد أبو الرجال، والمكنز العربي المعاصر لمحمود إسماعيل صيني وآخرين، ومعجم المترادفات العربية الأصغر لوجدي رزق غالي.

د-بعد استعراض هذه المصادر وُجد أنها لا تفي بحاجة الباحث، ولا تلبي احتياجاته، فضلاً عن أنها تخلط القديم بالجديد، أو تكتفي بحشد الكلمات جنبًا إلى جنب دون ترتيب معين، ودون تدقيق في معانيها، ودون إعطاء معلومات عنها تتعلق بدرجتها في الاستعمال. ومن أجل هذا وُضع لهذا المكنز منهج جديد يتجنب عيوب الأعمال المشابهة ويسمح باستخلاص عدد من المعاجم منه.

هـ-وقد ظهر التفرد في منهج هذا المعجم منذ نقطة البداية ، وهي مرحلة جمع المادة، فلم تعتمد -اعتمادًا كليًّا- على معاجم السابقين وإنما ضمت إليها مادة غزيرة تم استقاؤها من تفريغ العشرات من كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر وعينة من الصحف اليومية،منها على سبيل المثال لا الحصر: البيان والتبيين للجاحظ، ديوان المتنبي، ديوان الجارم، ديوان شوقي، مجمع الأمثال للميداني، من كنوز القرآن لمحمد السيد الداودي، أعمال يحيى حقي، أعمال أحمد عبد المعطي حجازي، أعمال إبراهيم عبد القادر المازني، أعمال صلاح عبد الصبور، اللغة واللون لأحمد مختار عمر، وعينة من بعض الصحف... وغيرها.

و- وعلى الرغم من أن الهدف الأول كان صناعة معجم للمترادفات والمتضادات العربية مما كان يسمح بالتخفف من إعطاء أي معلومات إضافية اعتمادًا على أن كلمات كل مجال يشرح بعضها بعضًا فإن المعجم لم يقنع بذلك، وأضاف إلى قوائم المترادفات والمتضادات معلومات أخرى تتلخص فيما يلي:

١-بيان نوع الكلمة (فعل- اسم- صفة- حرف) مع فصل كل نوع في مجموعة مستقلة.

٢-تحديد المجال الدلالي العام الذي تنتمي إليه مجموعات الكلمات المترادفة أو المتضادة. واجتهدنا بالنسبة لكلمات المعاني أن نستخلص لكل مجال اسم المجال المضاد له، وهو صنيع تخفف منه كثير من كتب الترادف.

٣-بيان الجذور لجميع كلمات المدخل، وهو أمر أهمله معظم كتب المترادفات إما على سبيل التخفف أو نظرًا لصعوبته. وقد نبع هذا الحرص من رغبة المعجم في تمكين الباحث من استدعاء جميع مشتقات الجذر الواحد دفعة واحدة سواء اتفق معناها أو اختلف، وسواء وجدت علاقة اشتقاقية مباشرة بينها أو لم توجد.

٤-وضع شرح موجز أمام كل كلمة، أو مثال توضيحي (أو كليهما)، أو الإحالة إلى كلمة أخرى وردت في المجال نفسه . كما راعى المعجم في الأمثلة -خاصة بالنسبة للكلمات الحية المعاصرة - أن تكون طبيعية غير مصطنعة ولا متكلفة، أو أن تكون مأخوذة من نص حي حديث. أما الأمثلة التراثية فقد راعى فيها الإيجاز والتركيز، وأن تكون كاملة المعنى بقدر الإمكان وذات مغزى.

٥-إضافة نماذج من المصاحبات اللفظية التي يكثر استخدامها، وأخرى من التعبيرات السياقية التي اكتسبت معاني جديدة زائدة على معاني مفرداتها. وقد وُزعت هذه التعبيرات على مكانين، أحدهما مقابل الكلمة التي ورد فيها التعبير، والآخر في نهاية المجال حتى يتطابق معنى التعبير مع معنى المجال دون أن يحتوي على أي كلمة من كلماته.

٦-إضافة معلومة لم تتطرق إليها معظم معاجمنا العربية، وهي المعلومة الخاصة بتصنيف الكلمة وبيان درجتها في الاستعمال (انظر: دليل التصنيف). ونبع حرص المعجم على هذا التصنيف من الإيمان بأن جزءًا من معنى الكلمة يأتي

من تحديد مستواها في اللغة، الذي يختلف تبعًا لاختلاف الأسلوب، أو الزمان أو المكان، أو الطبقة الاجتماعية أو الثقافية. إذ ليس من المعقول أن تُرصّ كلمات الترادف بعضها إلى جانب بعض على توهم أنها لترادفها في معناها اللغوي فهي مترادفة كذلك في معانيها الثانوية والأسلوبية والسياقية، وهو ما لا يقول به أحد من علماء اللغة والدلالة المعاصرين.

ثالثًا: إرشادات الاستخدام وقد تضمنت جملة من المبادئ، أهمها ما يأتي:

أ-ترتيب المجالات الدلالية الواردة في المعجم ألفبائيًا، وكذلك ترتيب الكلمات داخل كل مجال ألفبائيًا.

ب-إتباع مرادفات كل مجموعة بمجموعة مضاداتها حين يتوفر ذلك [١٩]. ولما لم يكن هناك معيار حاسم لاعتبار إحدى المجموعتين مرادفًا، والأخرى مضادًا، فإن فهرس المجالات قد أزال الحاجز بين النوعين، واشتمل على المجال المضاد، مرة مقترنًا بقسيمه المرادف، ومرة باعتباره مرادفًا مع ذكر قسيمه أمامه باعتباره مضادًا. فمجال البكاء مثلاً ورد (في ص ٥٧٢) باعتباره مضادًا لمجال الضحك (ص ٥٧١) ولكنه ورد مرتين في فهرس المجالات: مرة في حرف الباء باعتباره مجالاً دلاليًا، ومرة في حرف الضاد باعتباره مجالاً مضادًا.

ج-توسيع مفهوم الترادف ليشمل كذلك أشباه الترادف، والكلمات المتقاربة في المعنى.

د-وضع كلمات الترادف أو التضاد في مجموعات متجانسة من حيث النوع (فعل- اسم- صفة- حرف)[٢٠] مع فصل أسماء الأعيان عن المصادر، ومع توسيع معنى المصدر ليشمل كل ما يدل على الحدث المجرد مما سماه النحاة باسم المصدر، أو المصدر الميمي.

هـ-احتواء المعجم على أمثلة كثيرة للتعبيرات السياقية، وهذه - إذا اشتملت على إحدى كلمات المجال- وضعت في السطر نفسه مع الكلمة، أما إذا خلت من إحدى كلمات المجال فكانت توضع مجموعة في آخر المجال بعد الانتهاء من جميع كلماته.

و-إتباع كل كلمة في المعجم بوصف تصنيفي يبين مستوى استخدامها. وقد روعي توحيد التصنيف حينما يتكرر بأكثر من نوع كلامي، إلا إذا كان هناك فرق في درجة الاستعمال لأحدهما، فكان المعجم يعبر عن هذا الاختلاف بمخالفة التصنيف، كما فعل المعجم مع الفعل "كاس" الذي صُنّف على أنه من لغة المثقفين، في حين صنف مصدره "كياسة" على أنه إيجابي معاصر.

رابعًا: دليل التصنيف، وقد تضمن المعلومات الآتية:

١-التمييز بين الرصيد الإيجابي الذي يمكن استخدامه في لغة العصر الحديث، والرصيد السلبي الذي فقد وجوده في اللغة الحية بمستوييها التراثي والحديث، ولم ينتقل من جيل إلى جيل إلا من خلال المعاجم. وهذا النوع الأخير يقابل ما يسمى في اللغة الإنجليزية obsolete (ممات أو مهجور)، وقد بلغ مجموعه في المعجم ٣٠٣ كلمات أي بنسبة أقل من ١٪.

٢-التمييز بين الرصيد الإيجابي المعاصر الذي يمثل اللغة الحية السائدة Current Arabic، أو النمط المشترك الذي يربط المثقفين بعضهم مع بعض، ويستخدمونه لنقل أفكارهم إلى جمهورهم، وبين الرصيد الإيجابي التراثي الذي لا يصادفه الباحث إلا في النصوص القديمة، ولا يستخدمه إلا المتصلون بالتراث في المناسبات الخاصة، وهم مع ذلك لا يسرفون في استخدامه، ولا يضمّنونه كلامهم إلا على سبيل الاقتباس أو الاستشهاد دون أن يتحول إلى نمط سائد. ولا يعني وصفنا اللفظ بأنه من الرصيد المعاصر أنه استجد في العصر الحديث، وإنما يعني أنه مستعمل في العصر الحديث حتى لو كان قديمًا. ويمثل الرصيد المعاصر الأغلبية العظمى في المعجم.

٣-تمييز الرصيد القرآني عن غيره - نظرًا لما للاستعمالات القرآنية من قيمة خاصة- مع ملاحظة الفصل بين الكلمات القرآنية التراثية التي لم يعد استعمالها شائعًا

في لغة العصر الحديث (مثل الكلمات " أبَق " بمعنى هرب، و " نتَق " بمعنى رفع، و"ضِيزَى " بمعنى جائرة، و"واصِب" بمعنى دائم لازم...) والأخرى الشائعة الاستعمال التي كثيرًا ما تقتبس في لغة المعاصرين، وقد بلغت نسبة القرآني التراثي نحوًا من ٣ ٪ والقرآني المعاصر نحوًا من ٢٢ .

٤-التمييز بين الاستعمال العام، والاستعمال الخاص أو المقيد بمكان معين، أو موقف معين أو فئة معينة (لهجة أو لغة محلية، رسمي، من لغة المثقفين، مصطلح علمي).

٥-التمييز بين الكلمات أو الدلالات المستقرة في المعاجم القديمة، وتلك المولدة أو المستحدثة التي دخلت اللغة مؤخرًا، أو بعد نهاية عصر الاستشهاد (القرن الرابع الهجري) والتي غالبًا ما تعبر عن ظاهرة حضارية استجدت في المجتمع فوضع بإزائها لفظ يعبر عنها (مولد أو محدث)، وذلك مثل الكلمات "تلاشى"، و"حبّذ"، و"سيارة"، و"شاحنة"، و"مسرح"... إلخ ومثل هذا النوع من الكلمات قد يكون سائدًا في لغة العصر الحديث وقد لا يكون.

٦- تمييز كلمات معينة للتحذير من استخدامها إما لأنها محظورة أو مبتذلة أو سوقية.فمثل هذه الكلمات لا يحسن استخدامها في المواقف الرسميّة أو العامة، أو في حضور النساء أو الأطفال. وقد اقتصرنا في هذه وتلك على أقل القليل من الكلمات، وتجنبنا الصريح أو المباشر منها.

وبهذا تبلور التصنيف في الأنواع الآتية:

١- إيجابي قرآني معاصر	وقد بلغ ٧٦٠٠ كلمة	بنسبة ٢٢ ٪.
٢- إيجابي معاصر	وقد بلغ ١٢٤١٠ كلمات	بنسبة ٣٥,٩١٧ ٪.
٣- إيجابي تراثي	وقد بلغ ٥٩٨٨ كلمة	بنسبة ١٧,٣٤٣٪.
٤- من لغة المثقفين	وقد بلغ ٥٥٧٣ كلمة	بنسبة ١٦,١٣٩٪.
٥- مولد أو محدث	وقد بلغ ١٢٣٥ كلمة	بنسبة ٣,٥٧٦ ٪.
٦-إيجابي قرآني تراثي	وقد بلغ ٩٦٠ كلمة	بنسبة ٢,٧٩ ٪.
٧- لهجة أو لغة محلية	وقد بلغ ٣٣٠ كلمة	بنسبة ٠,٩٥٥ ٪.

٨- سلبي	وقد بلغ ٣٠٣ كلمات	بنسبة ٠,٨٧٧ ٪.
٩- مصطلح علمي	وقد بلغ ٦٥ كلمة	بنسبة ٠,١٨٨ ٪.
١٠- مبتذل	وقد بلغ ٤٥ كلمة.	بنسبة ٠,١٣ ٪.
١١- محظور	وقد بلغ ١٤ كلمة	بنسبة ٠,٠٤١ ٪.
١٢- رسمي	وقد بلغ ٥ كلمات	بنسبة ٠,٠١٤ ٪.

خامسًا: قائمة بالمراجع، وقد حوت ١٠٥ مرجع عربي، و ٥ مراجع إنجليزية.

أما فهارس المعجم فتعد عملاً متميزًا في بابه ؛ إذ تم إعدادها باستخدام الحاسوب، وضمت ثلاثة أنواع هي:

أ-فهرس المجالات الدلالية (ص ٩٤١ - ٩٨٢).

ب-فهرس الكلمات (ص ٩٨٣ - ١١٥٨).

ج-فهرس الجذور ومشتقاتها (ص ١١٥٩ - ١٢٣٠).

هذه هي أهم مواصفات المعجم وخصائصه، وأضرب بعض الأمثلة التوضيحية حتى تكتمل الصورة:

١- *اشتمل مجال " الرسالة "* (رقم ١٠٦٦ ص ٤٥٥) على المعلومات الآتية:

١٠٦٦- الرِّسَالة

الرِّسَالة

أَلُوك [ا] ألك [ج] إيجابي تراثي [ت]: رسالة.

أَلُوكَة [ا] ألك [ج] إيجابي تراثي [ت]: رسالة.

بَرْقِيَّة [ا] برق [ج] مولد أو محدث [ت]: رسالة ترسل بواسطة المبرقة (التلغراف) "برقية تهنئة / تعزية ".

بَــرِيد [ا] بـرد [ج] إيجـابي معاصـر [ت]: مـا يُـتلقى من رسائل وطرود. [م] ساعي البريد: موظف مختص بنقل الرسائل.

تِلغراف [ا] تلغـراف [ج] مولد أو محدث [ت]: برقية "أرسل تلغرافًا إلى أهله". [م] مكتب تلغراف: مكان مخصص لإرسال البرقيات واستقبالها.

جَـوَاب [ا] جـوب [ج] إيجـابي معاصر [ت]: ردٌّ على رسالة. [م] ربما كان السكوت جوابًا.

خِطَاب [ا] خطـب [ج] إيجـابي معاصر [ت]: رسالة. [م] خطاب مفتوح: رسالة توجه إلى مسئول عن طريق الصحافة.

رِسَــالَة [ا] رسـل [ج] إيجـابي معاصـر [ت]: خطاب " بعث برسالة مُسَجَّلَة ". [م] رسالة الماجستير/ الدكتوراه / مُسَجَّلة.

فــاكس [ا] فكـس [ج] مولـد أو محدث [ت]: رسالة ترسل بواسطة الناسوخ (جهاز الفاكس).

كِــتَاب [ا] كتـب [ج] إيجـابي قـرآني معاصـر [ت] :رسالة ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِم﴾.

مَأْلُك [ا] ألك [ج] إيجابي تراثي [ت]: رسالة.

مَأْلُكَة [ا] ألك [ج] إيجابي تراثي [ت]: رسالة.

مَكْتُوب [ا] كتب [ج] لهجة أو لغة محلية [ت]: رسالة.

ويمكـن الوصـول إلـى هـذا المجال بالبحث مباشرة في المعجم مع اتباع الترتيـب الألفـبائي لـلمجالات، أو من خلال فهرس المجالات الدلالية (ص ٩٦٠)، أو فهـرس الكـلمات (ص ١٠٦١) ، أو فهـرس الجـذور (رسـل ص ١١٨٢).

٢-*تحت الجذر "كتب"* (ص ١٢١٢) سيجد الباحث ثمانية عشر لفظًا (للرجوع إلى أماكنها في المعجم يُرجع إلى فهرس الكلمات)، وهي حسب ترتيبها الألفبائي (والرقم هو رقم المجال):

استكتاب (٢٢٧٣)-استكتب (٢٢٧٢)- اكتتاب (٢٢٧٣)- اكتتب (٢٢٧٢)- الكتاب (٢٤)- كاتَبَ (١٧٩٣) - كاتِب (٤٦٧ ،١٦٨٠) - كُتَّاب (١٢٠٩) - كِتاب (٤٦٦) – كتابة (١٦٧٩) - كتابيّ (١٦٨١) - كَتَبَ (٥٣٣ ، ٥٩٠ ، ١٦٣٧ ، ١٦٧٨) – كِتْبة

(١٦٧٩)- كتيبة (٢١١٧)- مكاتبة (١٧٩٤)- مكتب (١٧٦٠)- مكتبة(١٨٨٣)- مكتوب (١٠٦٦).

٣- *إذا أخذنا الفعل:" كتب "* كمثال تم تجميعه من فهرس الكلمات نجده قد توزع على أربعة مجالات هي:

أ-**التخيير** (وضده الإجبار)، وقد ورد مع مجموعة "الإجبار" التي تضم ثلاثين كلمة، منها: أجبر، وأرغم على، وأكره على، وأوجب، واستكره، وحمل، وقسر، وكلّف.. إلخ.

ب-**التشريع**، وقد ورد مع مجموعة تضم ثلاث عشرة كلمة، منها: أوجب، وسَنّ، وشَرَع، وشرَّع، وفرض...

ج- **القضاء والحكم**، وقد ورد مع مجموعة تضم ست عشرة كلمة، منها: أفتى، وأمر، وأمضى، وأنفذ، وبتّ، وحَسَم، وحكم، وفَصَل، وقَدَر، وقرّر...

د- **الكتابة**، وقد ورد مع مجموعة تضم عشرين كلمة، هي: استطر، وحبّر، وخطّ، ودوّن، ورسم، ورشم (كلمة سلبية)، ورقش، ورقم، ورَقَن (محلية)، ورقّن، وزَبَر، وسجّل، وسَطَر، وسطّر، وقيد، وكتب، ولَمَق، ونسخ، ونقل، ونمنم.

٤-إذا أخذنا كلمة " الكتاب " كنموذج أخير (لاحظ أنها معرّفة بأل) نجدها قد وردت تحت مجال " أسماء القرآن "(رقم ٢٤ ص ٣٢) ضمن مجموعة ضمت:التنزيل، والذِّكر، والفرقان، والقرآن، والكتاب، والمثاني، والمصحف.

أما كلمة "كتاب" منكرة فقد وردت تحت مجال "التأليف" (رقم ٤٦٦ ص ٢١٧)، ضمن مجموعة ضمت: أطروحة، وبحث، ورسالة، ورقيم ، وزبور، وسجلّ، وسِفْر، وكتاب، ومؤلَّف، ومبحث، ومخطوط، ومخطوطة، ومصنَّف.كما وردت ضمن مجال الرسالة (رقم ١٠٦٦ ص ٤٥٥) ضمن مجموعة من الكلمات سبق ذكرها في ص ٢٢٧ من هذا البحث.

نظرة مقارنة بين المكنزين

هناك جملة من الملاحظات يمكن أن يضع يده عليها كل من ألقى نظرة فاحصة على كلا العملين، ولعل أهمها:

١-الاختلاف الجذري بين منهجي المعجمين بدءًا من طريقة جمع المادة، وانتهاء بتحريرها، ومرورًا بذكر مضادات المجالات، وشرح معاني الكلمات، وإعطاء كل كلمة درجتها في سلم التصنيف.

٢-الطفرة العلمية الكبيرة التي حققها المكنز الكبير بالنسبة للمكنز العربي المعاصر، والتي تمثلت في استخدام البرامج الحاسوبية، والجمع الميداني، وإعداد نسخة إلكترونية للمعجم مزودة بمحلل صرفي يسمح للمستخدم أن يدخل الكلمة (بالنسبة للأفعال) بصيغة الماضي أو المضارع أو الأمر، مع أي سابقة إضافية، ومع أي لاحقة من لواحق ضمائر الرفع وسيتولى المحلل الصرفي- بالنيابة عنه- رد الكلمة إلى شكلها الموجود بالمعجم، كما يسمح له أن يدخل الكلمة (بالنسبة للأسماء) مفردة، أو في صورة جمع التكسير، مع أي سابقة إضافية.

وإلى جانب المحلل الصرفي هناك مولّد صرفي كذلك يتولى توليد المرادف أو المضاد من الكلمات المخزَّنة بنفس الملامح الصرفية للكلمات المدخلة. فمثلاً إذا كانت كلمة البحث هي "يأكلون" واختار الباحث المرادف " التهم " من القائمة، فإن مربعًا خاصًا يظهر أمامه على الشاشة متضمنًا كلمة " يلتهمون ".

٣-الاختلاف الشديد في حجم المعجمين. وإذا كان المكنز الكبير مزودًا بالأرقام والإحصاءات نظرًا لطبيعة إنجازه الحاسوبية، بخلاف المكنز العربي المعاصر، مما يجعل المقارنة الدقيقة صعبة بينهما، فإننا يمكننا أن نلجأ إلى طريقة أخرى قد تكون نتائجها أقرب إلى الدقة، وإن لم تحقق الدقة الكاملة:

إذا كانت المادة المعجمية الخالصة تشغل ٩١٢ صفحة في المكنز الكبير وكانت الصفحة الواحدة فيه ذات عمودين أي تعادل صفحتين، فإن عدد صفحات هذا المعجم تقفز إلى الرقم ١٨٢٤ صفحة، في حين أن ما يقابلها من المكنز العربي المعاصر لا يتجاوز ١١٩ صفحة أي أن النسبة بينهما تبلغ تقريبًا ١٥: ١، أي أن المكنز الكبير يبلغ خمسة عشر ضعفًا للمكنز العربي المعاصر.

وليست هذه المقارنة بعيدة عن الواقع. فإذا أخذنا مجال "الإشعال" على سبيل المثال نجده يحوي اثنتين وثلاثين كلمة كفعل في المكنز الكبير في حين أنه يحتوي على خمس كلمات فقط في المكنز العربي المعاصر. فإذا ضممنا إلى ذلك اختلاف عدد المجالات بالزيادة في جانب المكنز الكبير، وذكر المضادات لمعظم المجالات، وانفراد "الكبير" بإعطاء معلومات دلالية وتصنيفية عن كل كلمة - اطمأن قلبنا إلى النتيجة السابق ذكرها.

٤-على الرغم من اشتراك المعجمين في النص على الجذر فإن هناك فرقًا جوهريًا بينهما. فالجذر في المكنز الكبير يتبع كل كلماته في حين أنه في المكنز العربي المعاصر يتبع كلمات مداخله فقط.

٥- أنه لم تند كلمة في المكنز الكبير عن الإحصاء ولم تستبعد كلمة من فهرسي الجذور والكلمات، وبالتالي فإن أمام أي باحث فرصة الدخول بـ ٣٤٥٣٠ مدخلاً

مختلفًا هي عدد مداخل المكنز الكبير في حين أن فرصه محدودة بالنسبة للمكنز المعاصر، إذ ليس فيه فهارس بالكلمات، وفهرس الجذور فيه لا يتناول إلا ما ورد في المعجم باعتباره مدخلاً رئيسيًا أو عنوانًا على المجال.

* * *

وبعد : فقد استغرق التخطيط للمكنز الكبير قرابة السنة، وامتد جمع مادته وتحريرها قرابة السنتين، واحتشد لإنجازه فريق عمل يبلغ الأربعين على رأسهم مقدم هذا البحث، صاحب فكرة المعجم، والمخطط له والمتابع لكل مراحل إنجازه، والأستاذ الدكتور حسام الدين محجوب المسئول عن الشئون البرمجية والحاسوبية. وقد كنا نواصل الليل بالنهار، ولا نضن بجهد أو عرق. وكان حافزنا الأكبر فيما تحملناه من جهد، وما تكبدناه من مشاق أملنا في حسن استقبال المثقفين له بعد صدوره، وهو ما حدث بحمد الله، إذ جاءت ردود الأفعال مشجعة من ذوي التخصص، وأهل الخبرة ونذكر من بينهم الأستاذ الدكتور محمد عناني أستاذ الجامعة وخبير المعاجم والترجمة الذي كتب يقول عنه: " إنه معجم حديث يخلو من مثالب المكانز الأجنبية، ويضرب بسهم وافر في فنون المعاجم العالمية الحديثة في آن واحد.. إنه موجه في المقام الأول لكل من يكتب العربية فيشرح له معنى الكلمة في إيجاز يقترب من الإعجاز، ثم يضيف الفروق اللغوية في المعنى والأسلوب. ولا أبالغ حين أقول إن كل من يكتب، أي كل من يفكر لن يستطيع الاستغناء عن هذا المكنز الكبير، ولا أبالغ أيضًا حين أقول إنه معجم نادر، ولا غناء عنه لكل من ينتمي بصلة إلى اللغة العربية ".

الحواشي

(١)انظر في كل ما سبق The Oxford English Dictionary.

(٢)هذه المعلومات مأخوذة من عدد من المواقع على الشبكة العالمية.

(٣)مادة thesaurus ص١١٢٠، وقد طبع عام ١٩٨٨م.

(٤)يلاحظ أن بعض معاجم المصطلحات اللغوية الصادرة في تلك الفترة قد خلت من كلمة "مكنز" مثل معجم المصطلحات اللغوية لرمزي بعلبكي الذي ترجم الكلمة إلى: معجم موضوعي، وذكر أنه معجم مرتب على الموضوعات والأبواب.

(٥)The Cambridge Encyclopedia of Language p. ١٠٤.

(٦)السابق والصفحة.

(٧)اسم المعجم بالكامل: Webster's School Thesaurus.

(٨) المدخل.

(٩) ص ٧ أ.

(١٠) صفحة ز وما بعدها.

(١١) المؤلفون هم: د. محمود إسماعيل صيني، وناصف مصطفى عبد العزيز، ومصطفى أحمد سليمان.

(١٢) صفحة م، ن.

(١٣) لا يقلل من هذا المأخذ نص المؤلفين في مقدمة المعجم على أنه ليس من هدفهم التمييز بين الكلمات، ولا شرح معاني المداخل (صفحة ن) بعد أن رأينا معجم وبستر يعترض على هذه الطريقة.

(١٤) صفحة ن.

(١٥) وهل في مدخل "استلقاء": كلمة "انسداح" أشهر من "اضطجاع" أو "هجوع" أو "رقود"؟ وإذا كانت أشهر فلماذا في الفعل "استلقى" بدأ بـ: "اضطجع"ثم "هجع" ثم "انسدح"؟.

(١٦) ص (١٢١) وما بعدها.

(١٧) هي مواقع المداخل: آب- عاد- رجع١- رجع٢- انقلب-آض- آل- قفل- آد- انكفأ- حار- عطف- قدم- ثاب- أثاب- فاء- كرّ (ولي ملاحظة على المدخلين "أثاب" و"فاء" ستأتي بعدُ).

(١٨) إذا ألغينا التكرار في المجالات التي جاء منها أكثر من نوع كلامي ويبلغ الرقم **٢٣٥٥** إذا لم نلغ هذا التكرار. وعلى سبيل المثال فإن مجال القوة (ومضاده الضعف) قد أحصي ثلاث مرات باعتباره فعلاً مرة، واسمًا مرة ثانية، وصفة مرة ثالثة. ويرتفع الرقم إلى **٣٢٠٠** موضوع إذا أحصينا كل مجال له مضاد بمجالين اثنين.

(١٩) من المجالات التي خلت من مضاداتها مثلا: أدوات الرمي- أسماء الذهب- أسماء القرآن- الأنسجة الحريرية- الأثاث- الإجهاض- الإدمان- الإشاعة- الاستدارة- الافتراس، وغيرها.

(٢٠) إلا في حالات قليلة اختلط فيها نوعان، أو خرج فيها اللفظ عن أصله فانتقل من نوع إلى آخر فكان المعجم يضع الجميع تحت أشهر النوعين، وأكثرهما استخدامًا.



الفصل الثاني

تحقيقات لغوية

همزة إن بعد القول بين الفتح والكسر

يتوهم كثير من الباحثين فيظن أن مواضع كسر همزة "إن" و"فتحها" محصورة في مسائل محددة، غير مدركين أن النحاة قد وضعوا ضابطا عاما للكسر والفتح، فكل موضع يمكن أن تؤوَّل فيه "إن" مع ما بعدها بمصدر[1] تستحق فيه الفتح، وكل موضع لا يمكن أن تؤول فيه مع ما بعدها بمصدر تستحق فيه الكسر، وكل موضع يمكن فيه التأويل وعدمه يجوز فيه الفتح والكسر، يقول ابن مالك:

وهمز إنّ افتح لسد مصدر   مسدها وفي سوى ذاك اكسر

ومعنى هذا أن النحاة حين عدوا وقوع "إن" ومدخولها بعد القول من مواقع الكسر، كانوا ينظرون إلى عدم إمكانية حلول المصدر(المفرد) محلهما، لأن مفعول القول لا يكون إلا جملة.

والذي يبدو لي أن ما قاله النحاة مقصور على نوع واحد من أنواع القول، وهو ما يحكى بعده نص المقول (أو المفعول) فهذا يجب كسر همزة "إن" بعده، ولا خلاف معهم في ذلك. وهذا النوع من القول هو الذي عناه سيبويه بقوله: "واعلم أن (قلت) في كلام العرب وقعت على أن تحكي بها ما كان كلاما لا قولا"، يعني بالكلام الجمل، كقولك: زيد منطلق، وقام زيد، ويعني بالقول الألفاظ المفردة التي يبنى الكلام منها كزيد من قولك زيد منطلق[2].

---

(١) أو بعبارة أخرى: يمكن أن يحل محلها هي ومدخولها مفرد.

(٢) اللسان، وتاج العروس (قول). ومثل هذا قول سيبويه: تقول: "قال عمرو: إن زيدا خير منك، وذلك لأنك أردت أن تحكي قوله" (الكتاب ١٤٢/٣).

أما خلافي مع النحاة فيتعلق بأنواع أخرى من القول لا تستحق كسر همزة "إن" بعدها لإمكانية حلول المفرد محلها هي ومدخولها، ومع ذلك صمت النحاة عن هذه الأنواع فأوهموا الكافة عموم الحكم، وهو ليس كذلك. ومن هذه الأنواع:

١ - قال التي بمعنى ذكر، أو نطق، أو أخبر وهذه يأتي مفعولها مفردا.[١]

٢ - قال التي بمعنى اجتهد، أو حكم، أو رأى رأيا، وهذه تتعدى بحرف الجر، وفي الحديث قولوا بقولكم أو بعض قولكم.. قال في اللسان: أي قولوا بقول أهل دينكم وملتكم[٢].

بل إن جواز الفتح يمتد ليغطي كذلك "قال" التي تشتمل على لفظ القول ومعناه إذا لم يُرد المتكلم حكاية مفعولها، ويتم في هذه الحالة تقدير حرف الجر معها أو تضمين فعل القول معنى فعل آخر يأتي مفعوله مفردًا[٣] كقوله تعالى: "وَبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات" (البقرة ٢٥). ويتضح هذا أكثر في قوله تعالى: "وشهدوا أن الرسول حق" (آل عمران ٨٦)، مع قوله تعالى في آية أخرى: "واشهدوا بأنا مسلمون" (آل عمران ٦٤). وقد لوحظ تقدير حرف الجر في عدد من القراءات مع أفعال أخرى، كقراءة معظم السبعة: "فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى" على حذف حرف الجر، أي بأنّ، في حين قرأ ابن عامر وحمزة: " إن الله يبشرك بيحيى" بكسر الهمزة إجراء للنداء مجرى القول[٤].

---

(١) تاج العروس (قول) وفي اللسان: سمي الملك قَيْلا لأنه إذا قال قولا نفذ.

(٢) اللسان (قول).

(٣) يقول سيبويه: وسألت يونس عن قوله: متى تقول أنه منطلق؟ فقال: إذا لم ترد الحكاية، وجعلت تقول مثل تظن قلت: متى تقول أنك ذاهب، وإن أردت الحكاية قلت: متى تقول إنك ذاهب (الكتاب ٣/١٤٢).

(٤) الإتحاف ص ١٠٥

فالعامل الحاسم إذن بالنسبة لفعل القول الذي يشتمل على لفظ القول ومعناه، وفي غيره من الأفعال المشابهة هو إرادة الحكاية أو عدمها. ويتفرع على هذا أن هناك أفعالا خلت من لفظ القول ولكنها حملت معناه، وقصد بها الحكاية فكسرت همزة "إن" بعدها. وقد قرأ عاصم – في رواية – وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق والأعمش وغيرهم: "فدعا ربه إني مغلوب فانتصر" (القمر ١٠) على إضمار القول عند البصريين، أو على إجراء الدعاء مجرى القول عند الكوفيين[١]. وعلى الجانب الآخر فقد سمعت أمثلة لفعل القول لم يُرد به الحكاية ففتحت همزة "إنّ" بعده. وفي هذا يقول الأشموني: "فإن لم تحك، بل أجري القول مجرى الظن وجب الفتح، ومن ثم روي بالوجهين قوله:

أتقول إنك بالحياة ممتَّع وقد استبحت دم امرئ مستسلم

فالكسر على إرادة الحكاية، والفتح على تضمين القول معنى الظن[٢]. ومثله قول عمر بن أبي ربيعة:

أما الرحيل فدون بعد غد فمتى تقول الدارَ تجمعنا

قال الجوهري: وبنو سليم يُجرون متصرِّف قلت (ما تصرف منها) في غير الاستفهام أيضا[٣] مجرى الظن فيعدونه إلى مفعولين، فعلى مذهبهم يجوز فتح "إن" بعد القول[٤].

وقد كان الأشموني دقيقًا حين أوجب الفتح عند عدم قصد الحكاية، وكان الصبّان ذكيا حين دافع عن المرادي في إجازته الفتح والكسر في هذه الحالة بقوله: "قبل اختيار أحدهما"[٥]. فإذا اخترت أحد الوجهين وجب الكسر في حالة، ووجب الفتح في حالة.

---

(١) الكتاب ١٤٣/٣، والمغني ٦٣/٢، وتفسير الألوسي ٨١/٢٧.
(٢) شرح الأشموني مع حاشية الصبان، وشرح العيني ٢٧٣/١- ٢٧٥.
(٣) لأن جميع العرب يفعلون ذلك في الاستفهام.
(٤) الصحاح (قول).
(٥) الأشموني بحاشية الصبان ٢٧٥/١.

فإذا رجعنا إلى القراءات القرآنية نستشيرها في هذه القضية نجدها مؤيدة لجواز الوجهين بعد القول حسب القصد، فإن اتجه القصد إلى الحكاية وجب الكسر، وإلا وجب الفتح. ومن هذه القراءات:

١-قوله تعالى:"ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن" (طه ٩٠)، فقد فتح الهمزة في المرتين عدد من القراء، وفي "إن" الثانية: أبو عمرو- في رواية - والحسن وعيسى[1].

٢ - قوله تعالى: "ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت" (هود ٧)، فقد قرأه المطوعي (إمام في القراءات، عارف بها، ضابط لها، ثقة، وتوفي عام ٣٧١ كما ورد في لطائف الإشارات)، والأعمش، وعيسى بفتح الهمزة. وقد ذكر الألوسي أن هذا على تضمين "قلت" معنى "ذكرت" تجوزا، وقيل إن الذكر والقول مترادفان فلا داعي للقول بالتجوز.

٣ - قوله تعالى: "قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به.. وأنه تعالى جد ربنا.. وأنه كان يقول سفيهنا.. وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن.. وأنه كان رجال من الإنس.. وأنهم ظنوا كما ظننتم.. وأنا لمسنا السماء.. وأنا كنا نقعد منها.. وأنا لا ندري.. وأنا منا الصالحون.. وأنا ظننا.. وأنا لما سمعنا الهدى.. وأنا منا المسلمون.." (الجن ١-١٤).

فقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالكسر في الآيات جميعا ابتداء من قوله تعالى"وأنه تعالى جد ربنا"، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالفتح[2].وذكر صاحب الإتحاف أن أبا جعفر قرأ بالفتح في ثلاثة منها وهي: "وأنه تعالى"، "وأنه كان يقول"، "وأنه كان رجال" جمعا بين اللغتين[3].

---

(١) معجم القراءات القرآنية ٢٢٧/٣.

(٢) روح المعاني ٩٤/٢٩. وعكس أبو حيان النسبة في البحر ٣٤٧/٨.

(٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٢١٣/٥.

وجميع التخريجات التي ذكروها لتفسير الفتح مطعون عليها، وهي ما يلي:
أ- أن الآيات معطوفة على نائب الفاعل للفعل "أوحي".
قال أبو حيان: وهذا لا يصح في جميعه،مثل:"وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع".
ب- أن الآيات معطوفة على الضمير المجرور في "به" (الآية ٢).
وهذا لا يجوز إلا على رأي الكوفيين، فضلا عن أن بعض ما فتح لا يناسبه العطف في المعنى.
ج- أن الآيات معطوفة على مفعول "آمنا به" بعد تأويله بـ "صدقناه".
ولكن بعض ما فتح لا يناسبه تسليط "آمنا" عليه، مثل: "وأنا ظننا"[١].
ولا يسلم من التجريح إلا القول بالفتح على عدم إرادة الحكاية، ويكون الجمع معطوفا على مفعول القول الوارد في الآية الأولى.

٤ – وهناك قراءة رابعة تلفت النظر لأن القارئ بها أغلب السبعة، وذلك في قوله تعالى: "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشّرك بكلمة منه" (آل عمران ٤٥). فقد قرأها بكسر الهمزة حمزة وابن عامر، وبفتح الهمزة باقي السبعة، وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي. فالكسر على أنها مقول القول، والفتح على تقدير: نادتها بأن الله يبشرك[٢].

ومعنى هذا أن القاعدة النحوية الخاصة بكسر همزة إنّ بعد القول ينبغي أن يُفصّل القول فيها لتصبح على النحو التالي:
١ – تكسر همزة "إن" بعد القول إذا قَصَدْتَ الحكاية، وهي نقل الجملة بلفظها.
٢ – تفتح همزة "إن" بعد القول إذا لم تقصد الحكاية.

---

(١) البحر المحيط ٣٤٧/٨.
(٢) حجة القراءات لأبي زرعة ص ١٦٢،١٦٣، وانظر معجم القراءات ٤٠٦/١.

ويتضح الفرق في مثل قولنا:

قال الرئيس: إنني أوافق على كذا.

قال الرئيس أنه يوافق على كذا.

فهمزة الجملة الأولى واجبة الكسر، وهمزة الجملة الثانية واجبة الفتح.

وقد أردنا أن نقف على اتجاهات المحدثين في ميلهم إلى الكسر أو الفتح فقمنا بأخذ عينة من قاعدة بيانات صحفية خاصة، أثبتت الميل إلى وضع الباء قبل "أن" سواء مع الماضي، أو المضارع، أو المصدر. ولما كان حذف الباء في هذا الموقع قياسيا أمكن القول بميل المحدثين نحو الفتح (لجأنا إلى هذه الطريقة لأن التفرقة بين الهمزة التحتية والهمزة الفوقية غير مراعاة في الكتابات الصحفية).

وإليكم هذه العينة:

ملحق١ (قال بأن– يقال بأن):

١-للتاجر اللبناني الذي **قال بأنه** يعمل ويحقق النجاح على رغم.(اقتصاد١)

٢- **قال بأن** البحرين تسعى إلى آن. (اقتصاد١)

٣-و**قال بأن** نزلاءهم من الحجاج من داخل السعودية(اقتصاد٢).

٤-و**قال بأن** انقطاع التزود بالنفط بسبب قلة الانتاج مستبعد(اقتصاد٢).

٥-**قال بأن** عمل هذه الادارة يتمثل في تقديم أدق المعلومات الجوية(اقتصاد٢).

٦-و**قال بأنها** تفكر جديا في تشغيل خط ضبا (اقتصاد٢).

٧-احد الصحافيين **قال بأنه** لو اعد التقرير في سهل البقاع (عام١)

٨-لقبيل بل حتى ي**قال بأنه** يشهد على وجود اصل (عام١)

٩-و**قال بأنه** من المستحيل الاستمرار في عملية السلام(عام٢)

١٠- آن أذاع سرا جديدا عندما **قال بأن** القوات التي حسبها الناس (عام٢)

١١-**يقال بأن** طه حسين نفسه اضطر إلى تغيير موقفه من فرنسا (عام ٢)

١٢-آن تسمى الاشياء بأسمائها (كأن **يقال بأن** الاكراد هم اكراد)(عام٣)

١٣-فمنهم من **قال بأنها** النصوص الفلسفية ومنهم يقول أنها النصوص الفقهية ومنهم من يعتقد (عام٣)

١٤-بل يمكن أن ي**قال بأن** أحداث العشرين من أيا (عام٣)

١٥-و**قال بأنها** تتميز كذلك بالبلادة والجهل والخشونة (عام٣)

١٦-حين **قال بأن** ما يقلقهم (الاميركان) هو وجود (عام٣)

١٧-يعترف الدكتور الياس **سيقال بأنه** "كاتب الكتاب" فقط آما الطبيب النفساني(عام٣)

١٨-لأن الوزير فتوش **قال بأن** آي انتخاب محلي آخر لن يحصل(عام٣)

١٩-احتمال حدوث زلزال في لبنان **يقال بأنه** الاقوى خلال هذا العصر(عام٣)

٢٠-تيجة **يقال بأنها** كانت حتمية بعد فشل مفاوضات (عام٤)

٢١- الرأي الذي **قال بأنه** مشتق من كلمة(عام٤)

٢٢-الصحافي إلى هذه الناحية عندما **قال بأنه** اقترح على حسين كامل - اثناء لقائهما الاول (عام٤)

٢٣-**سيقال بأن** صيرورة الوردة لا تتم (عام ٥)

٢٤-و**قال بأن** التغيير يجب آن يأتي من الناس (عام٥)

٢٥-" لكنه ايضا **قال بأنه** " من الضروري القيام بعمل قوي(عام٥)

٢٦-القيام بعمل قوي ضد اليهود الاصلاحيين ثم **قال بأن** اليهودية الاصلاحية" (عام٥)

٢٧-**قال بأن** "التفاهم كان باقامة دولة فلسطينية منزوعة السلاح ترتبط بالأردن (عام٥)

٢٨-وقد **يقال بأن** فكرة المطاردة الساخنة فكرة أمنية(عام٥)

٢٩-كثيرا ما **يقال بأن** العمل الروائي يحتاج من صاحبه(عام٦)

٣٠-اذ **قال بأن** أوروبا الغربية لم تعد تهيمن على العالم(عام٦)

٣١-ومن **قال بأن** الجبروت رابح والمقهور خاسر(عام٦)

٣٢-عندما **قال بأن** لندن لانت واعتدلت بعد انفجار الأزمة(عام٦)

٣٤-وعضو كنيست **قال بأنه** لا يعتقد بحق النساء في التصويت.(عام ٦)

٣٥-**يقـال بـأن** هـذا العـالم آخـذ في التحول(عام ٦)

٣٦-**يقال بأنه** خاف على نفسه مرة (عام٦)

٣٧-حتى **يقال بأن** صورة الاسلام شوهت على أيدي الجماعات الاسلامية(عام٧)

٣٨-و**يقال بأنه** عند ما أخبر (عام٧)

٣٩-**قـال بأنـه** اتجه مع زوج ابنته السيد قصي (عام٧)

٤٠-**يقال بأن** العدو اقوى ويجب آن نكون على يقظة (عام٧)

٤١-**يقـال بـأن** علاقة الوزير المستقيل قد بدأت مع نتانياهو(عام٧)

٤٢-حين **قال بأن** هناك عناصر في مكتب المدعي العام (عام٧)

٤٣-و**يقـال بأنه** ما زال يأمل بعودة الوزير (عام٧)

٤٤-الذي **قـال بـأن**هم قاموا بالانقلاب حتى لا يتجاوز سعر الدولار العشرين جنيها (عام٧)

٤٥-حين **قـال بـأن** " لدينا تفسيرات متباينة حول كم من الأرض مقابل كم من السلام(عام٧)

٤٦-مواجهة بغداد عسكريا حتى **يقال بأنها** فشلت في حشد الدعم لها (عام٧)

٤٧-**قـال بأن** عقبات كبيرة قد وضعت في طريقه من قبل المسؤولين (عام٧)

٤٨-كلمة بيريز امام المؤتمر الذي **قال بأن** " الارهاب ليس مجهول الهوية (عام٧)

٤٩-اذ **قال بأن** " واشنطن لن تتحمل آي محاولات جديدة لتعكير الهدوء (عام٨)

٥٠-حتى **يقـال بأن** الطلبات الختامية قد انحصرت في الطلب (قانون)

٥١-صفته حتى **يقال بأن** الذي يستفيد منه (قانون)

٥٢-لا يصح آن **يقـال بـأن** هـذا الحكم (قانون)

٥٣-حتى **يقال بأن** المطالبه بجزء من هذا الدين تقطع التقادم (قانون)

٥٤-ولا **يقـال بأن** التزامات المورث تنتقل آلي ذمة الوارث(قانون)

٥٥- **فقال بأن** هذه الديدان تخرج من بيض (موسوعة)

٥٦-نحن نفهم ان **يقـال بـأن** المتشددين الإسلاميين يزعمون بأن الحكومة المصرية هي حكومة علمانية (موجز)

٥٧-كي لا **يقـال بـأن** الطريق هي طريق البقاع (أخبار١)

٥٨-رأي **قال بأنها** هي الحق لأنها صدرت عفوية (أخبار١)

٥٩-رأي **قال بأن**ها كلام غير مدروس (أخبار١)

٦٠-**قال بأن** " اسرائيل قد تجد نفسها مضطرة إلى اعادة النظر (أخبار١)

٦١-كي لا **يقال بأن** الطريق هي طريق البقاع (أخبار٢)

٦٢-و**قال بأن** ميون هو الذي تبعه في اشارة إلى وصوله قبله (أخبار٢)

٦٣-الصادر بعد ذلك **قال بأن** " كريستوفر جاء ليعطي قرار (أخبار ٣)

٦٤-لماذا لا **يقال بأن** لبنان ليس مؤهلا آو مخولا (أخبار٥)

٦٥-و**قال بأنه** كان يزوده بمعلومات عن حوادث حصلت(أخبار٥)

٦٦- و**قال بأنه** هو الذي ادعى انه الملازم اول (أخبار٥)

٦٧-رغم ما **يقال بأنه** جاء وليد ساعته (أخبار٦)

٦٨-وعلى رغم ما **يقال بأنها** لن تؤثر على مجرى الأمور(أخبار٧)

٦٩- ف**قال بأن** الانفصال " واقعة ماتت لحظة ولادتها " (أخبار٨)

٧٠-حتى لا **يقال بأن** هذا الائتلاف قد يتحول إلى لجنة امنية (أخبار٨)

٧١-لا **يقال بأن** عدم الاقبال كما يجب على صناديق الاقتراع(أخبار٨)

٧٢-وانه **قال بأنه** سيتلقى عرفات في الوقت (أخبار٨)

٧٣- و**قال بأن** أوروبا لم تنهض آلا بال علمانية (بحوث)

٧٤-و**قال بأنا** في مصر قد شكلنا لجنة لتمصير الوثيقة (بحوث)

٧٥-عن سوء النتائج **قال بأن**نا نلعب مع هذه الفرق (بحوث)

٧٦-حين **قال بأن** مشكلة المرور ترجع في أساسها آلي سلوكيات (بحوث)

٧٧-مرحلة الاستعداد و**قال بأن** البروفة كانت ناجحة (رياضة)

ملحق ٢ (مضارع قال بأن):

١-يفرح بهن سليمان آما نحن **فنقول بأنهن** آخذن المقهى منا آي احتللنه احتلالا (عام١)

٢-و**ليقول بأن** اطلاق مثل هذا الأخير في حملة انتخابية خارج اطار المسؤولية (عام ١)

٣-في رسالتك **تقول بانك** قد كتبت أربعة كتب عن النظام ولم تنشرها لحد الآن (عام ١)

٤-وزير دفاع أميركي... **يقول بانه** علينا أن نعترف(عام١)

٥- عندما **نقول بان** ساعة سقوطه أوشكت حقا (عام١)

٦-**وتقول بان** لها قضية في الجنوب(عام١)

٧-ومع ذلك يمكن **أقول بان** الظاهرة في مصر في مرحلة انحسار اكيد(عام١)

٨-وانما هي حركات جديدة ذات منطلقات عنصرية **تقول بان** " العدو هو الرجل ". (عام١)

٩-انك **تقول بانك** تؤمن بالنبوءة التي أطلقها لينين(عام١)

١٠-ينبغي ألا نتشاءم **فنقول بان** اللغة العامية تغرق(عام١)

١١-والغرب **يقول بان** الحروب الصليبية كانت حروبا غاشمة(عام١)

١٢-فإن سميح القاسم **يقول بانه** (أي كينان) ينطوي على تناقضات(عام١)

١٣-أم انه العاشق أليس من الاحرى آن **نقول بانه** العاشق ؟(عام١)

١٤-كان أفلاطون **يقول بانه** يجب تأمل المثل(عام١)

١٥-ليس هناك من **يقول بان** تخصيص مرافق مثل الكهرباء والسجون يرفع مستوى أدائها(عام١)

١٦-**اقول بان** اللغة الفرنسية تساهم اكثر من اللغة العربية في اخراج الثقافة المغاربية(عام١)

١٧-كأنما الجانب الصربي اراد آن **يقول بانه** لم يفعل ذلك نزولا عند رغبة باريس(عام١)

١٨-آن **نقول بان** التاريخ لم يعط الحق (عام١)

١٩-لهذا **نقول بان** التعرف على أعماله(عام١)

٢٠-**ويقول بانها** ليست اكثر سذاجة من جماعة(عام١)

٢١-وهناك من **يقول بان** المسؤولين الأميركيين قد أوعزوا إلى زملائهم(عام١)

٢٢-والوطن العربي **تقول بان** كل حل سلمي بقطع النظر (عام١)

٢٣-إلا أن **نقول بان** الاقتتال الأخير بين أحزاب وتنظيمات هذه الحركة هو خير دليل على عمق(عام١)

٢٤-ويمكن آن أقول بان " لعبة النسيان "(عام١)

ملحق ٣ (مصدر قال):

١- من السهل.. **القول بانه** كان علينا آن ندرك (عام ١).

٢- ومن الطبيعي **القول بـان** اية دولة كانت يمكن آن تنتج (عام ١).

٣- لذلك يمكن **القول بان** هذا المسار سينتج عنه دولة فلسطينية مستقلة (عام ١).

٤-نهضت على **القـول بان** العرب أو الاسلام لم يوجدا آلا ك" جماعات تأويل (عام ١).

٥- ولست أرى مبالغة في **القول بـان** المعنى السياسي للتحليل(عام ١).

٦- كـ**القول بـان** المرأة هي وحدها القادرة على الكتابة عن المرأة (عام ١).

٧- كـ**القول بـان** الماركسيين هم وحدهم القادرون على الكتابة حول الاقتصاد (عام ١).

٨- وليس من قبيل المبالغة **القول بـان** توسع النظام الاوروبي مثل دومًا تعبيرًا عن عمق في (عام ١).

٩- بينما يجوز **القول بان** توسع النظام العربي لم يعكس هذه الدلالات (عام ١).

١٠- حتى ليسوغ **القول بان** "مستصغر الشرر" قد بدأ بتطاير (عام ١).

١١- نظريا يسهل رصف الكلام **والقول بانـه** يكفي آن يضع الصحافي مواقفه السياسية (عام ١).

١٢- اضافة إلى **القـول بان** ذلك تحد للرأي العام (عام ١).

١٣- ثم يضيف القارئ الاسرائيلي **القول بان** الجريدة: (عام ١).

١٤- فـ**القول بان** الرأسمالية هي إفساد للفن (عام ١).

١٥- يث يمكن **القول بان** التاريخ يعيد نفسه (عام ١).

١٦- كما آن **القول بان** " الفلسطينيين " يمثلون شعبا غريبا متطفلا على فلسطين يجب إنكاره (عام ١).

١٧- نصل إلى **القول بان** اطلاق مسمى " ايلات " (عام ١).

١٨- يمكن **القـول بان** قصائدها حرائق صغيرة (عام ١).

١٩- يمكنني **القول بانني** لم أفارقه حتى الآن "(عام ١).

٢٠- أمكن **القــول بــان** التأمل فيها لم يتوقف (عام ١).

٢١- ويقتضي الانصاف **القــول بــان** نقاشات حية دارت خلال (عام ١).

٢٢- يمكن **القــول بــان** اللبناني " استحق " حربه عام ١٩٨٢(عام ١).

٢٣- وقد يكون امرا تمليه اعتبارات اكمال الصورة **القول بانه** في "احتفالات أوسلو ب" (عام ١).

٢٤- لأن **القــول بانهــا** جثة لمتمرد لا يمكن التشكيك به (عام ١).

٢٥- ثم آن **القول بان** شاعر " قصيدة النثر " (عام ١).

٢٦- وانتهى إلى **القــول بان** مشاريع التعاون المشترك المتوقعة (عام ١).

٢٧- **والقــول بــان** تغيرا كبيرا في طريقة عمل الحكومة (عام١).

٢٨- كم مرة سمعتم **القــول بــن** الزمن لا يجري في مصلحة السلام (عام ١).

٢٩- يدفعنا إلى **القــول بــان** ذلك بفرز عاملين متناقضين (عام١).

٣٠- فمنذ خمسة عقود لا نستطيع **القــول بــان** دولة افريقية ما تطورت (عام ١).

٣١- ثم خلصت إلى **القول بان** الساعة التي يمكن فيها إلغاءها (عام ١).

٣٢- وتخلص الابحاث إلى **القول بــان** على مشروع ديزني آن يستمر (عام ١).

٣٣- أخيرا يمكننا **القــول بــان** المقاومة الاسلامية في فلسطين ستدفع ثمن هذه المرحلة (عام١).

٣٤- وأبادر إلى **القول بــان** هذا ليس وقفا على العرب وحدهم (عام ١).

٣٥- ذلك آن **القول بــان** ميزان القوى بين العرب واسرائيل (عام ١).

٣٦- يتعارض هذا مع **القول بان** جانبا كبيرا مما يتقرر في المفاوضات (عام ١).

٣٧- لكن ذلك لا يعني **القــول بان** الانقسام بين "الشرق" و "الغرب" (عام ١).

٣٨- يقتضي ايضا **القــول بانهــا** تنطوي على عنصرين إضافيين (عام ١).

٣٩- حتى ذهب العديدون إلى **القــول بان** أهم ما ميز تلك الانتخابات (عام ١).

٤٠- اجمع المراقبون على **القــول بانهــا** تحمل املا باحلال السلام الاهلي. (عام ١).

٤١- للقول بانه والجيش في المرصاد (عام ١).

٤٢- ينبغي القول بان " المشايخ" التقليديين لا يقفون أيضا وحدهم في دفاعاتهم (عام ١).

٤٣- في القول بان التاريخ البشري وتاريخ الأمم عبارة عن دورات (عام ١).

٤٤- يمكن القول بان الخطوات الجدية الأولى (عام ١).

٤٥- هذه المعطيات تسمح بالقول بانه يمكن للشركاء (عام ١).

٤٦- ومع هذا يمكن القول بان الانقلاب الأول لم يكن في ظاهره شيشكليا (عام ١).

٤٧- القول بان التجريب خيانة(عام ١).

٤٨- امتلاك القدرة على القول بان إيران بادرت إلى ادخال السلاح النووي (عام ١).

٤٩- أصارحك القول بان لك أصدقاء (حقيقيين) (عام ١).

٥٠- آن القول بان هناك هجمة لقصيدة النثر تغدو ادعاء أحادي الرؤية(عام ١).

٥١- للقول بانهم اخذوا علما بالموقف الاسرائيلي (عام ١).

٥٢- بل من الصعب القول بانني اختار موضوعاتي (عام ١).

٥٣- فقد درجت العادة بالمحللين على القول بان ما هو عقلي يتخلف بالضرورة (عام ١).

٥٤- ليس من المبالغة القول بان أكثر الذين تصدوا لانشاء هذا المجمع (عام ١).

٥٥- لمجرد القول بان المتطرفين والمتعصبين مارسوا الارهاب (عام ١).

٥٦- يمكن القول بان نص العتيبي نص متحرك (عام ١).

٥٧- فالقول بان الصحافة الرسمية تمثل مصالح الشعب هو كذبة كبيرة (عام ١).

٥٨- أردت القول بان مشكلة الصحافة المكتوبة في الشمال هي هبوط موارد تمويلها (عام ١).

٥٩- وهذه طريقة للقول بان الفلسفة ليست مجرد فن (عام ١).

٦٠- والقول بانهم في هذه الحالة يصبحون فلاسفة (عام ١).

٦١- وخلافا للقول بان الصناعة لا تحصل على قروض (عام ١).

٦٢- علـى **القـول بانـه** لا يدعو إلى تركيز مزيد مـن السلطات (عام ١).

٦٣- أمـا **القـول بانهم** وقعوا عليه فهو صحيح (عام ١).

٦٤- لا يكـف عـن **القـول بانـه** حـين سيرحل (عام ١).

٦٥- هـل نستطيع **القـول بان** الرواية تؤرخ للمرحلة التي تعالجها (عام ١).

٦٦- يمكن **القول بان** الحياة الاجتماعية (عام ١).

٦٧- آن تعزي النفس بالقول بان خطة التقسيم كانت من بنات أفكارها(عام ١).

٦٨- ربمـا أمكنـنا **القـول بـان** مـا يـتحين عليـنا استنتاجه (عام ١).

٦٩- ولا ضـرورة **للقول بان** علاقاتي مع الرئيس فرنجية منذ البدء (عام ١).

ملخص النقاش الذي دار حول الموضوع
أثناء عرضه في مؤتمر المجمع اللغوي

الدورة السابعة والستون

٢٠٠٠ – ٢٠٠١

د. ناصر الدين الأسد: هذا بحث مستقص وشامل، وقد بذل فيه صاحبه جهدا كبيرا، وأورد ما ذكرته كتب النحو، كما أنه جمع من شواهد القرآن الكريم والشعر الشيء الكثير. أنا أوافقه فيما توصل إليه على أن يكون القرار كما يأتي: "تكسر همزة (إن) بعد لفظ القول إذا أريدت الحكاية –بمعنى نقل الجملة بلفظها كما قالها قائلها– وتفتح الهمزة إذا أريد التضمين...إلخ القرار".

د. كمال بشر: أرى أن يكون القرار: ويجوز الفتح والكسر إذا أريد التضمين...

د. أحمد مختار عمر: ما قاله الأستاذ الدكتور ناصر الأسد في محله، وحين قلتُ: يجوز كذا ويجوز كذا.. إنما عنيت به قبل توجه المتكلم إلى أحد الاختيارين، فإذا توجه إلى أحدهما يكون واجبا. فليس هناك جواز في النهاية، وإنما هو في البداية. فمن يتوجه إلى الحكاية عليه الكسر، ومن يتوجه إلى تضمين معنى ظن، أو أخبر، أو.. فعليه الفتح.

د. كمال بشر: هذه قضية مهمة، والبحث ممتاز وقيم علميا. ولكن أين المتكلم الذي يستطيع أن يميز هذا الموقف من ذاك ؟ إن الرجل العادي لا يستطيع أن يميز بين هاتين الحالتين، وإذا كان ولابد: نقول في النقطة الأخيرة: يجوز الوجهان دون إلزام.

د. الضبيب: الأساس الذي يجب ألا نتنازل عنه لهذه اللغة هو الاستعمال القرآني المعروف، وليس في قراءاته الشاذة.

د. عبد الكريم خليفة: يجب أن نفرق بين البحوث العلمية وما يجاز في الاستعمال. الأستاذ الكريم قد قام ببحث علمي ممتاز، وجمع من خلال مصادره ما يؤيد رأيه، ولكنه انتهى إلى قرار للمجمع بجواز الفتح والكسر. وهنا قضيتان: قضية علمية لا ننكر

ثبوتها عند سيبويه وغيره، وقضية تعليمية، وما يجيزه المجمع في الاستعمال. لا أوافق على تطبيق القاعدة المقترحة على الاستعمال الحديث لأن فيها تشويشا كثيرا على تلاميذ المدارس، ومن الصعب عليهم أن يفهموا الحكاية، والتضمين.

د. شوقي ضيف رئيس المجمع: حقيقة أنا أعجبت بهذا البحث إلى أقصى حد لأنه استطاع أن يعطيني مفتاحا لمعرفة لماذا فتحت "إن" في القرآن الكريم في بعض الآيات بعد القول. كلنا نتفق مع الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر في أنه استطاع أن يوجد لنا تعليلا صحيحا لفتح "إن" أحيانا في القرآن الكريم. فالدراسة من وجهة علمية بحتة دراسة على أعلى مستوى. أما أن ننشر بين المتعلمين أن "قال" يجوز أن يأتي بعدها " إن " بالكسر والفتح فهذه مشكلة أخرى. ولا يجوز أن نضع تحت أعين الناشئة مسائل من الصعب أن يتصوروها.

د. أحمد مختار عمر: الحقيقة تتمثل فيما قاله الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد. إنني هنا أتعامل مع التعبير "قال أن" لا على أنه لغة جديدة ولكن على أنه لغة قديمة، وأنها لغة موجودة في القرآن الكريم. سأغض النظر عن كل الآيات التي مثلت بها وسأتمسك بآية واحدة فقط قرأ اثنان من السبعة فيها بالكسر، وخمسة بالفتح. كيف نهمل هذه القراءة ونقول إنها قراءة شاذة، وإننا لا يصح أن نستند إليها. وهناك شيء آخر تردد في كلام السادة المعقبين، وهو ما يدرّس لتلاميذ المدارس. إذا كنا سنتقيد بما سيدرس للتلاميذ فقد خرج المجمع عن اختصاصه، وتدخل في اختصاص وزارة التربية. إننا حين نتعامل مع المشكلة نتعامل معها لأنها تمس جانب الدقة في التعبير، وتتعلق بالمثقف الذي يريد أن يضع العبارة المناسبة في المكان المناسب، وفي الموقف المناسب. وشيء ثالث أقوله للدكتور عبد الكريم خليفة هو أنه بدأ حديثه قائلاً: "أريد أن أقول أنه يجب أن نفرّق..." هو نفسه فتح همزة "إن" بعد القول. فلماذا يحجر على تلاميذ المدارس أن يفتحوا همزة "إن" بعد القول، ولماذا يبيح لنفسه ما يمنعه على غيره ؟! إننا حين نقول: يجوز الفتح، ويجوز الكسر... نحن لا نغلق بابا، بل نفتح بابا، ونحن لا نصعّب القاعدة كما ذكر بعضهم بل نحن نُيسّرها. أما قضية الحكاية أو التضمين فنحن نقولها للمثقفين أما بالنسبة للتلاميذ فنحن سنكتفي بأن نقول لهم: يجوز الكسر والفتح بعد

القـول. ونحن لسنا وزارة التربية حتى نراعي فيما نختاره ما يقال في الكتب المدرسية. نحن نتكلم ونتحاور باسم العلم، وباسم الحقيقة، وباسم اللغة المدعومة بالنصوص العربية. وهل بعد قول سيبويه من قول.. ليس في ذهني تلميذ المدرسة، لأنني لا أتعامل مع التلاميذ.

د. عبد الكريم خليفة: نحـن نفـرق بين البحث الذي قام به الدكتور أحمد مختار، وهو -كمـا قـال أستاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف - بحث علمي متميز، وبين أن ننتقل به إلـى هـذا المجمـع، ونصـدر قـرارا بصـحته. إن هناك قواعد موجودة في اللغة ولكنها لا تستعمل حديثا، وليس هناك من خير في أن نزيل عنها الغبار، ونحيي هذه القواعد القليلة الاسـتعمال. وهـناك تـناقض كبير وقع فيه الأستاذ الجليل حين مزج بين البحث العلمي، وإجازة الاستعمال. إنني لا أقر هذه المسألة ولا أجيز قاعدة تسبب التشويش لأبنائنا.

د. كمال بشر: هـذا الموضـوع نوقش في مجلس المجمع، وأبديت عليه بعض الملاحظات، وقـام صـاحب البحث بتعديله. كان البحث سابقا يستخدم لفظ الوجوب، وقد تغير إلى الجواز. هذه مجرد إجازة يلجأ إليها البعض حين يقع في مأزق، ولا خطر منها.

د. عباس الصوري: هـناك اختلاف في المنهجين: المنهج الذي تفضل به الأستاذ الدكتور أحمـد مختار، وهو منهج علمي استكشافي يقوم على جمع المعطيات واستقرائها، وإعطاء النتـيجة. لقـد قـدم لنا الأستاذ بحثا علميا مضبوطا مبنيا على النصوص والضوابط التي اسـتقرأها واستخلصها، وقال لنا: هذه هي النتيجة. أما المنهج الآخر فهو منهج تعليمي، وهـو لـيس مـنهجا علمـيا، بل هو منهج معياري يقوم على القواعد التي لا نقاش فيها. والأبحـاث اللغويـة القديمـة فيها المنهجان معا. فسيبويه رجل علم لا يهتم بالمتعلم، ولكن الـنحاة المـتأخرين اهـتموا بـه وراعوا التيسير والتسهيل عليه. ما قام به الأستاذ الدكتور أحمـد مخـتار عمـل جلـيل يراعي المنهج العلمي، ويبقى الجانب التربوي وهذا له أسلوب آخر لا يصح فيه أن يتعارض ما يتعلمه الطلاب مع ما يقوله العلماء.

د. عبد الكريم خليفة: ما قاله أستاذنا الدكتور رئيس المجمع، وله باع طويل في تيسير التعلـيم، وما قاله الدكتور عباس الصوري :وافق عليه. أما ما قاله الدكتور أحمد مختار فهو يدخل في تاريخ القاعدة النحوية، ونحن لا نجيزه للاستعمال.

د. أحمـــد مختار: هـل قرارات المجمع يراعى فيها ما يطبق في المدارس، أو هي تطبَّق في المدارس ؟ لقـد وافـق المجمـع علـى زيـادة واو قبل ياء النسـب في مثل "وحدوي" فهل يتعـلمها التلامـيذ في المـدارس ؟ ووافـق علـى جمـع الأعلام المنتهية بتاء التأنيث جمع مذكـر سـالما، فهل سجلت كتب المدارس القاعدة الجديدة ؟ ووافق على عشرات المسائل التي لا تدرس للتلاميذ.

لقـد أصدر المجمع ثلاثة أجزاء من "الألفاظ والأساليب"، وثلاثة أخرى من "أصول اللغة" وليس في هذه الأجزاء الستة إلا إجازة ما لم يكن جائزا من قبل، وإلا فلو أجاز مـا هـو جائز لم يكن لعمله أي معنى. إن وقوفنا عند القاعدة القديمة والتعبد بها على أسـاس أنـه لا يجـوز أن نمـس القاعدة القديمة، أو نغير ما هو شائع — معناه أننا نلغي الأجزاء الستة التي أصدرها المجمع في الأصول والألفاظ والأساليب.

د. كمـــال بشر:الصورة الآن واضحة. وما يقترحه الدكتور أحمد مختار فيه توسيع، وهو يقبل على أنه مندوحة للناس، وليس مفروضا على المدارس أو وزارة التعليم.

د. إبراهيم السامرائي: هـناك كثير مما قرره المجمع ليـس لـه صدى في كتب المدارس لأنـنا لا نجـرؤ علـى تعديـل قـاعدة استقرت في أذهان الجماهير. النسب إلى الجمع كثير جدا، وقد أجازه مجمعنا اللغوي ومع ذلك فهو غير موجود في كتب النحو اليوم.

وأخيرا وافق المؤتمر على الاقتراح بصورته الواردة في نهاية البحث.

درجات الصفات الدالة على المفعول

توصل النحاة في الصفات الدالة على الفاعل إلى أربع درجات من الصفة هي:

١- الصفة الدالة على التجدد والحدوث. (اسم الفاعل)

٢- الصفة الدالة على نسبة الحدث إلى الموصوف على سبيل الثبوت والدوام. (الصفة المشبهة).

٣- الصفة الدالة على التأكيد والمبالغة وتكرر وقوع الحدث. (صيغ المبالغة).

٤- الصفة الدالة على المقارنة. (أفعل التفضيل).

ولكنهم حين تحدثوا عن الصفات الدالة على المفعول اقتصروا على درجة واحدة وهي الصفة الدالة على التجدد والحدوث (اسم المفعول)، وسكتوا عن بقية الصفات، مما قد يوهم بوجود فجوة دلالية في اللغة العربية، وقصور في جانب المفعول عما يقتضيه الفكر المنطقي.

ولكن المتعمق في دراسة الصفات الدالة على المفعول في اللغة العربية يستطيع أن يستخلص منها الأنواع الأربعة السابقة، إما بالرجوع إلى الواقع اللغوي، أو باستخدام الإمكانيات المتاحة في اشتقاق الصيغ، وبناء التراكيب.

وحيث لم تكن هناك مشاحّة حول وجود النوع الأول الدال على التجدد والحدوث فسوف نقصر حديثنا على الأنواع الثلاثة الباقية.

أولا: الصفة المشبهة بالمفعول:

تحدث النحاة عن صيغتي فَعيل وفَعول بمعنى مفعول، ولكنهم أغفلوا الحديث عن درجة الصفة فيهما. وبشيء من التأمل يمكن اعتبار هذين النوعين من أوزان الصفة المشبهة بالمفعول لما فيهما من دلالة على ثبوت الصفة ودوامها، وليس على مجرد وجود الصفة وتجددها وحدوثها. يقول فاضل السامرائي:

" فعيل بمعنى مفعول يدل على أن الوصف قد وقع على صاحبه بحيث أصبح سجية له أو كالسجية، ثابتا أو كالثابت"[١] وفي الكليات أن "الحميد فعيل من الحمد بمعنى المحمود، وأبلغ منه؛ وهو من حصل له من صفات الحمد أكملها"[٢].

أ- فعيل بمعنى مفعول:

مما جاء من أمثلة فعيل بمعنى مفعول (وكذلك فعيلة بمعنى مفعولة):

* **الأسير**: المأسور.
* **البديع**: المبتَدَع.
* **البريد**: اسم للرسول المُبْرَد.
* **التريكة**: المرأة التي تُترك فلا يتزوجها أحد.
* **الجريح**: المجروح.
* **الجليب**: الذي يُجلب من بلده إلى غيره.
* **الحبيس**: المحبوس.
* **الحليب**: اللبن المحلوب الحديث الحلب.
* **الحليج**: المحلوج.
* **الخضيب**: المخضوب.
* **الخليع**: الذي خلعه أبوه من خبثه.
* **الذّبيح**: المَذبوح.
* **الرقيم**: المرقوم، وهو اسم لوح فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم.
* **الرهين**: المرهون.
* **الشهيد**: المُسْتَشْهَد.

(١) معاني الأبنية في العربية ص ٦١.

(٢) الكليات ص ٣٦٥.

* **الطريح**:المطروح.
* **الطليق**:الأسير يُطلق عنه إساره ويُخلى سبيله.
* **العتيق**:المعتَق.
* **العليفة**:المعلوفة، وتطلق على الناقة أو الشاة تعلف ولا ترسل للرعي.
* **العميد**:المعمود في الحب.
* **الغدير**:المغادَر، ويطلق على القطعة من الماء يغادرها السيل.
* **الفريضة**:المفروضة.
* **القتيل**:المقتول.
* **القدير**:المطبوخ في القدر.
* **الكحيل**:المكحول.
* **المخيض**:الممخوض من اللبن لإخراج زبده.
* **النديف**:القطن المندوف.[١]

وقد قصر كثير من النحاة هذا الوزن على ما سمع، وقاسه بعضهم فيما ليس له فعيل بمعنى فاعل[٢] ولا نرى بأسا في إطلاق القياس، لما فيه من توسيع على المستخدم، وعون له على الدقة التعبيرية.

وقد بلغ من قوة الصفة وثبوتها في هذا الوزن أن انتقلت بعض كلماته من باب الوصفية إلى باب الاسمية، كما في كلمات مثل: البريد، والتريكة، والجليب، والحليب، والخليع، والرقيم وغيرها.

ومما ورد من وزن فعيل بمعنى مفعول في القرآن الكريم:

* أسير :في قوله تعالى:"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا"(الإنسان٨).

---

(١) انظر في ذلك: ديوان الأدب ٣٩٨/١ وما بعدها، وصيغة "فعيل" واستعمالاتها ص ١٣.

(٢) صيغة فعيل واستعمالاتها ص ١٣، عن أوضح المسالك ٢٤٦/٣.

قال المفسرون: الأسير: الأخيذ، أو الموثق بالقيد، أو المحبوس.

* **أمين**: في قوله تعالى :"إن خير من استأجرت القوي الأمين " (القصص ٢٦)، والأمين: المؤتمن.

* **جنيّ**:في قوله تعالى: "تساقط عليك رطبا جنيا" (مريم ٢٥)، أي غضا طريا صالحا للاجتناء.

* **حصيد**: في قوله تعالى: "فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد" (ق ٩)، والحصيد: المحصود.

* **حكيم**: في قوله تعالى: "فيها يفرق كل أمر حكيم" (الدخان ٤)، والحكيم: المُحكم.

* **حميد**: في قوله تعالى: "واعلموا أن الله غني حميد" (البقرة ٢٦٧)، وأصح الآراء في معنى الحميد أنه: المحمود المستحق للثناء والحمد.

* **حنيذ**: في قوله تعالى: "فما لبث أن جاء بعجل حنيذ" (هود ٦٨)، والحنيذ: النضيج المشويّ على الحجارة المحماة.

* **رجيم**: في قوله تعالى: "وحفظناها من كل شيطان رجيم" (الحجر ١٧)، والرجيم: الملعون المطرود من رحمة الله تعالى.

* **رهين**: في قوله تعالى: "كل امرئ بما كسب رهين" (الطور ٢١)، والمعنى: مرهون مؤاخذ بالشر، ومجازًى على الخير.

* **عتيق**: في قوله تعالى: "وليطّوفوا بالبيت العتيق" (الحج ٢٩)، والعتيق: المحرَّر المعتَق من الظالمين والمتجبرين.

* **نضيد**: في قوله تعالى: "والنخل باسقات لها طلع نضيد" (ق ١٠)، ومعنى النضيد: المنضَّد المرصوص بعضه فوق بعض[1].

---

(١) راجع: المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته: قسم الألفاظ،أرقام: ٦٣، ١١٦، ٥٠٦، ٦١٧، ٦٥٣، ٦٦٨، ٦٨١، ٩٧٥، ١٠٦٢، ١٦٧٢، ٢٦٢١، وغيرها. وراجع كذلك: أسماء الله الحسنى ص ٥١.

ب – فَعُول بمعنى مفعول:

مما جاء من أمثلة فَعول بمعنى مفعول (وكذلك فَعولة بمعنى مفعولة):

* **جلوبة:** ما يجلب للبيع.
* **حلوب وحلوبة:** ما يُحلب.
* **دَفوع:** مدفوع.
* **ذعور** : من يُذعر.
* **رسول** : بمعنى مُرْسَل.
* **سلوب:** ناقة سلوب: سُلب منها ولدها وأخذ بعيدًا عنها.
* **قَدوع:** فرس قدوع: يُقدع، أي يُردّ فيكفّ بعض جريه.
* **قَعود:** القعود من الإبل: ما اقتُعد، أي امتطي.

وقد بلغ من قوة الصفة وثبوتها في هذا الوزن أن أصبح بعض ألفاظه مستخدما استخدام الأسماء التي تمكنت الصفة فيها. ومن ذلك:

* **الثَّقوب:** ما تُثقب به النار، أي توقد.
* **الغَسول:** الماء الذي يُغْتَسل به.
* **الفَطور:** ما يُفطر عليه.
* **اللَّبوس:** الدرع، وكل شيء يُتَحَصَّن به.
* **المَصُور** : الناقة التي يُتمصر لبنها، أي يُحلب قليلا قليلا.
* **النَّقوع** : دواء يُنقع من الليل.
* **اللَّدود** : دواء يُصب في أحد شقّي الفم.
* **الغَرور:** ما يُتغرغر به.

* السَّفوف: ما يُسفّ من دواء أو غيره.[١]

* الوجور: لما يوجر به، وهو الدواء الذي يدخل في الفم.[٢]

ومما ورد من وزن فَعول بمعنى مفعول في القرآن الكريم:

* ركوب وركوبة: في قوله تعالى: "فمنها ركوبهم" (يس ٧٢)، وقد قرأها: "فمنها ركوبتهم" كل من عائشة وعروة وأبيّ بن كعب[٣].

* حمولة : في قوله تعالى: "ومن الأنعام حمولة وفرشا" (الأنعام ١٤٢)، والحمولة: ما يُحمل عليه من الدواب مثل الخيل والبغال والحمير.

* ذلول : في قوله تعالى: "إنها بقرة ذلول" (البقرة ٧١)، والمعنى: سهلة الانقياد، مذللة بالعمل. وقوله تعالى: "جعل لكم الأرض ذلولا" (الملك ١٥)، والمعنى: ممهدة سهلة المسلك.

* رسول : في قوله تعالى: "فأتياه فقولا إنا رسولا ربك" (طه ٤٧)، والرسول: المبعوث المرسل بوحي لتبليغه[٤].

ثانيا: المبالغة في المفعول:

هناك صيغة فريدة جاءت نصا في الدلالة على المبالغة في المفعول، وقد رصدتها كتب اللغة، وأغفلتها كتب النحو، وهي صيغة "فُعْلة" بضم الأول وسكون الثاني.

ويظهر معنى المبالغة في المفعول في مثل قول ابن قتيبة: "وكل حرف كان على فُعَلة وهو وصف فهو للفاعل، نحو: هذرة، ونكحة، وطلقة، وسخرة، إذا كان مهذارا نكّاحا مطلاقا ساخرا من الناس. فإن سكّنت العين من فُعَلة وهو وصف، فهو للمفعول

---

(١) راجع ديوان الأدب ٣٨٧/١ وما بعدها، و٦٩/٣ وما بعدها.

(٢) معاني الأبنية في العربية ٦٩.

(٣) البحر المحيط ٣٤٧/٧.

(٤) راجع في ذلك: المعجم الموسوعي، أرقام ٦٧٣، ٩٢٦، ١٠٤٠ وغيرها.

به. تقول: رجل لُعْنة، أي يلعنه الناس.. ورجل سُبّة، أي يسبه الناس... وكذلك هُزْأة... وسُخْرة... وضُحْكة... وخُدْعة[١].

وعقد الثعالبي بابًا في كتابه "فقه اللغة" بعنوان: "فصل في الفرق بين ضدين بحرف أو حركة"، قال فيه: ذلك من سنن العرب. وما كان فرقه بحركة، كما يقال: رجل لُعَنة: إذا كان كثير اللعن، ولُعْنة: إذا كان يُلْعن. وكذلك ضُحَكة وضُحْكة[٢].

ونص ابن منظور على أن هذا البناء مطرد في معنى المبالغة، وكرر هذا في أكثر من موضع. فقال:

* **اللُّعْبة** : الأحمق الذي يُسخر به، ويطرد عليه باب.

* **صُرَعة** : كثير الصرع لأقرانه، وصُرْعة: يُصرع كثيرا، يطرد على هذين باب.

* **رجل لُومة**: يلومه الناس.

* **اللُّعَنة**: الكثير اللعن للناس، واللُّعْنة: الذي لا يزال يُلعن لشرارته، والأول فاعل، والثاني مفعول، ويطرد عليهما باب.

وبالإضافة إلى الألفاظ السابقة فهناك ألفاظ أخرى وردت مبعثرة في كتب اللغة، منها: نُهْبة، وقُعْدة، وهُمْزة، ولُمْزة، وضُورة، ولُحْنة، وسُبّة، ونُومة[٣]. وقد قرأ بسكون الميم في كل من "همزة" و"لمزة" أبو جعفر والأعرج.

قال في البحر: وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك منه، ويُشتم ، يُهمز، ويُلمز[٤].

ب – وهناك كلمات أخرى متعددة الأوزان جاءت بمعنى مفعول، وتحمل معنى المبالغة لأنها كانت مصدرا في الأصل، ثم استخدمت استخدام الصفات، وذلك مثل الكلمات القرآنية الآتية:

---

(١) أدب الكاتب ص ٣٣٢.

(٢) فقه اللغة ص ٢٦٧.

(٣) انظر: اللسان، والجمهرة ١/٢٣٦، وأدب الكاتب ٣٣٢، وديوان الأدب: وزن فُعْلة.

(٤) البحر المحيط ٨/٥١٠، وانظر القرطبي ٢٠/١٨٢، وغيره.

* **بَخْس** : في قوله تعالى: "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة" (يوسف ٢٠).
والمعنى مبخوس منقوص.
. **خَبْء**: في قوله تعالى: "ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض" (النحل ٢٥)، والمعنى: المخبوء المستتر.
. **دَكّ**: في قوله تعالى:"فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا" (الأعراف ١٤٣)، والمعنى: مدكوك مستوٍ بالأرض.
* **صَمَد**: في قوله تعالى: "الله الصمد" (الإخلاص ٣)، والمعنى: المصمود المقصود في الحوائج والمطالب.
ج – كما يمكن أن يدخل في هذا الباب كلمات المصادر التي جاءت على وزن أُفعولة حين تستخدم استخدام الصفات أو الأسماء، مثل: أعجوبة لما يتعجب منه، وأضحوكة، وألعوبة، وأفكوهة. وقد فسر ابن منظور الأضحوكة بما يضحك به، وفسرها الفارابي بالذي يُضحك منه[1]، والأطروحة: وهي المسألة تطرحها، والأُحدوثة: ما يتحدث به الناس تعجبا، ويقال: بينهم أسبوبة يتسابون بها، ولفلان أسجوعة يسجع بها[2].
د – ويدخل فيه أيضا كل أسماء المفاعيل المأخوذة من وزن "فعَّل" المراد به التكثير أو تكرار الفعل. وتذكر المعاجم عشرات الأمثلة لهذا النوع، كقول ديوان الأدب[3]:
* **ثقّب**: إذا أكثر الثقب.
* **خرّبوا بيوتهم**: شُدّد لفُشوّ الفعل، أو للمبالغة فيه.
* **المغلّب** : المغلوب كثيرا.
* **جَمَّح الرجل**: إذا فتح عينيه ونظر نظرًا شديدًا.
* **فتّح الأبواب وغلّقها**: شدد لكثرة.

---

(١) ديوان الأدب ١/ ٢٧٦.
(٢) معاني الأبنية في العربية ص ٧٠، ٧١.
(٣) ديوان الأدب: باب فعّل ٢/٣٣٨ وما بعدها.

* **سَبّخ الرجل**: إذا نام نوما شديدا.
* **مررت بقوم مشدَّخي الرءوس**: شدد للكثرة.
* **خيوط معقّدة**: شدد للكثرة.
* **نبّذه**: أكثر نبذه.
* **بذّر ماله**: أنفقه مسرفا.
* **عَقّره**: أكثر عقره.
* **كسّره**: أكثر كسره.
* **در منثّر**: شدد للكثرة.
* **صحف منشّرة**: شدد للكثرة.
* **عَبّس** : بالغ في العبوس.
* **لبّس عليه الأمر**: شبّه، شدد للمبالغة.
* **خدّش وجهه**: شدد للكثرة والمبالغة.
* **نفّض الثياب من التراب**: شدد للكثرة والمبالغة.
* **رجل مخدَّع**: قد خُدع في الحروب مرات حتى استحكم.
* **رقّع ثوبه**: إذا رَقَعه في مواضع.
* **ثياب مصبَّغة**: شدد للكثرة.
* **نتّفت حواصل الطير**: شدد للكثرة.
* **حرّق**: أكثر الإحراق.
* **دفّقت كفاه الندى**: أي صبتا، شدد للكثرة.
* **بتّك الآذان**: أي قطع، شدد للكثرة.
* **عقّل الإبل**: من العقال، شدد للكثرة.
* **رجل مرحوم، ومرحّم**: شدد للمبالغة.

* حديث مكتّم: أي بولغ في كتمانه.

هـ - كما يمكن أن يدخل في هذا الباب عدد من الكلمات التي جاءت منسوبة قصدا للمبالغة، وقد ورد منها في القرآن الكريم لفظان هما: سخري (بضم السين وبكسرها)، فمن الضم قوله تعالى: " ليتخذ بعضُهم بعضا سخريا" (الزخرف ٣٢)، ومن الكسر قوله تعالى: "فاتخذتموهم سخريا" (المؤمنون ١١٠). وقد فسر السخري – بالضم والكسر – بالهزأة يستهزأ به، وبالمسخَّر المضطهد الذي يعمل بلا أجر. أما اللفظ الثاني فهو "ظِهْرِيّ" في قوله تعالى: "واتخذتموه وراءكم ظهريا" (هود ٩٢)، أي منبوذا مطروحا خلف الظهر [(١)].

و – كما يدخل فيه أيضا عدد من الكلمات التي جاءت على وزن "مِفْعال" الدال على المبالغة، ولكن جاءت مبالغته للمفعول وليس للفاعل، مثل: رجل مديان: إذا كثر الدين عليه، ومكان محلال: يحل به الناس كثيرا، والمثراد: الخبز المثرود في الجفنة، ورجل مشناء: يبغضه الناس.

ثالثا: التفضيل من المفعول:

لم يتطرق النحاة إلى هذا النوع من التفضيل، ولكن يمكن التوصل إليه باستخدام الواسطة + المصدر الصناعي من اسم المفعول، كأن نقول: أقل مفهومية، أكثر مشروعية، أعلى مديونية، أكثر محدودية.. وغير ذلك كثير[(٢)].

والخلاصة:

أن ملاحظة الدرجات للصفة الدالة على المفعول تساعد على استخدام اللفظ المناسب، للمعنى المناسب، في السياق المناسب. كما أن التفضيل من المفعول يأتي

---

(١) انظر في ذلك: المعجم الموسوعي رقمي ١١٨٢، ١٦٥٨.

(٢) مما يستساغ صياغته على نفس النمط المصادر الصناعية: مسئولية، مدلولية، مرءوسية، مجروحية، محتومية، متبوعية، مذمومية، مرغوبية، مرهونية، مشمولية، مطلوبية، مظلومية، مغبونية...

ضروريا في بعض السياقات الحوارية، كأن يقول شخص عن نفسه: أنا مظلوم، فيقول الآخر له: وأنا أكثر مظلومية منك. ولا يغني عن ذلك أن يقول: أنا أظلم، أو أكثر ظلما، بالتفضيل المباشر، أو بالواسطة مع المصدر. ويحدث نفس الشيء إذا قال شخص: هذا كلام معقول، فيرد الآخر: وذاك كلام أكثر معقولية منه. ولعل المتكلم حين يقول كما في كلامنا الشائع عن شخص: إنه مهفوف. فيرد الآخر: ولكنّ فلانا أكثر مهفوفية منه، قد فعل ذلك ليعبر عن حالة من المقارنة لا يمكن التعبير عنها بوسيلة أخرى (في القاموس المحيط: الهفّاف: الطيّاش).

مراجع البحث

١- أدب الكاتب لابن قتيبة – تحقيق محمد الدالي – مؤسسة الرسالة ١٩٩٦.
٢- أسماء الله الحسنى – أحمد مختار عمر – عالم الكتب ٢٠٠٠.
٣- البحر المحيط لأبي حيان.
٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
٥- ديوان الأدب للفارابي – تحقيق أحمد مختار عمر.
٦- صيغة فعيل واستعمالاتها – علي أحمد طلب – مطبعة الأمانة – أولى ١٩٨٧.
٧- فقه اللغة للثعالبي – دار ابن خلدون – الإسكندرية.
٨- الكليات لأبي البقاء الكفوي – مؤسسة الرسالة ط ثانية ١٩٩٣.
٩- لسان العرب لابن منظور.
١٠- المزهر للسيوطي.
١١- معاني الأبنية في العربية – فاضل السامرائي – الكويت أولى ١٩٨١.
١٢- المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته – أحمد مختار عمر – شركة سطور ٢٠٠١.

القرن الحادي والعشرون / الواحد والعشرون / الأحد والعشرون

لفت نظري حوار سجله "بريد الأهرام" بين هاويين لغويين من أصدقاء الأهرام، يجمعهما تخصص واحد ليس اللغة العربية، وهما الدكتوران شعبان عفيفي، وأحمد شفيق الخطيب أستاذا اللغة الإنجليزية. وقد بدأ الحوار حين خطّأ الأول قول القائل: "نحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين" ذاكرا أن الصواب: ".. القرن الحادي والعشرين". فرد الثاني مصوبا التعبيرين بالإضافة إلى تعبير ثالث لم يتطرق إليه الأول، استنادا إلى أن "معجمات اللغة تذكر عن كلمة (الحادي) أنها مقلوب (الواحد)، وتذكر أيضا أنه يمكننا القول (أحد وعشرون) بمعنى (واحد وعشرون)، ومن ثم يمكننا أن نقول: "القرن الأحد والعشرون".

فما القول الفصل في الموضوع ؟

بعد رجوعنا إلى العديد من أمهات كتب اللغة والنحو أمكننا أن نحرر القول في المسألة فيما يأتي:

أولا: يميز العرب بين العدد الاسمي والعدد الوصفي (أو الترتيبي) في جميع الأعداد ماعدا ألفاظ العقود بدءا من العشرين، والمائة ومضاعفاتها، حيث يطابقون فيها العددين: الاسمي والوصفي، فيقولون: "عشرون رجلا"، و "الرجل العشرون"، والنحاة يتأولون الجملة الأخيرة على معنى: الرجل المتم للعشرين، أو تمام العشرين فتحذف "التمام" وتقيم "العشرين" مقامها (ابن الأنباري- المذكر والمؤنث ٢/٢٥٣، ٢٥٤).

ثانيا: أن العددين "واحد" و "أحد" عددان اسميان لا وصفيان، ويختص كل منهما بموقع معين، فالأول حين يكون العدد منفردا (عند بدء العدد)، ومؤنثه "واحدة"، والآخر حين يليه لفظ من ألفاظ العقود، مثل "أحد عشر"، و "أحد وعشرون" ومؤنثه "إحدى". وقد يقع مع ألفاظ العقود "واحد"، و"واحدة" أيضا لكن قليلا، فيقال: "واحد عشر"، و "واحدة عشرة"، و"واحد وعشرون" و"واحدة وعشرون" (شرح الرضي على الكافية ٤/٢٣٥، ٢٧٢). وقد ذكر السيوطي أن "واحد عشر" مما حكاه الكسائي، وأنه جاء على الأصل (همع الهوامع ٥/٣١٧، ٣١٨).

ثالثا: أن صحة التبادل بين "واحد" و"أحد" باعتبارهما عددين اسميين لا تستتبع صحة وقوعهما كعددين وصفيين، وبالتالي لا تصح النتيجة التي توصل إليها الدكتور أحمد شفيق الخطيب، وهي: "ومن ثم يمكننا أن نقول: القرن الأحد والعشرون".

رابعا: أن هناك خلافا بين النحاة حول نوع كلمة "واحد" المستعملة في العدد وأصلها، وقد تبلور هذا الخلاف في رأيين هما:

١ – أنها اسم فاعل من وَحَد يَحِد، أي انفرد، فالواحد بمعنى المنفرد، أي العدد المنفرد (شرح الرضي على الكافية ٢٣٥/٤، ٢٧٢).

٢ – أنها - وهذا رأي أبي علي الفارسي - اسم وليست بوصف، كما أن سائر أسماء الأعداد كذلك (المخصص ٩٧/١٧، ١١١)، وقد مال أبو البقاء الكفوي إلى هذا الرأي حين قال: "الواحد: اسم بني لمفتتح العدد" (الكليات ص٥٣).

خامسا: أن هناك خلافا آخر بين النحاة حول أصل كلمة "حادي" ووزنها تبلور في الرأيين التاليين:

١ – أنها فاعل من "وحد" – وهذا هو رأي ابن جني – وأصلها "واحد" فنقلت من "فاعل" إلى "عالف" (الخصائص ٧٨/٢، وأوضح المسالك ص١٧٤).

٢ – أنها فاعل من "حدو" – ووزنها "فاعل"، فقد حكى الفراء: "معي عشرة فاحدُهُنّ لي" أي اجعلهن أحد عشر، قال ابن جني: "فظاهر هذا يؤنس بأن (الحادي): فاعل" (الخصائص ٧٨/٢). وقال ابن سيده: ذكر الفراء أن "حادي عشر" من قولك "يحدو"، أي يسوق، كأن الواحد الزائد يسوق العشرة وهو معها (المخصص ٩٧/١٧، ١١١).

سادسا: أن الخلاف حول اسمية "واحد"، أو وصفيتها، وحول أصل "حادي" وهل هي مقلوبة "واحد" أو كلمة قائمة بذاتها – لا يفيد شيئا في مدى صحة استخدام "واحد" كعدد وصفي. فالعامل الحاسم في هذا هو الاستعمال وليس القياس العقلي، فإن باب العدد مبني في كثير من مسائله على الشذوذ. ومثال ذلك ما ذكره المبرد في المقتضب (١٥٣/٢) من أنه كان القياس أن تقول: واحدُ رجالٍ، واثنا رجال، كما تقول: ثلاثة

رجال، ولكنه لم يُقل. وكذلك مجيء العدد (١) على شكل اسم الفاعل، وهو اسم جامد، وتأنيث "أحد" على غير قياس على "إحدى".

سابعا: أنه نتيجة لتمييز العرب بين العددين الاسمي والوصفي تحقيقا للوضوح المطلوب، اتجه الاستعمال الشائع والفصيح إلى أن تسير سلسلتا العددين الاسمي والوصفي في خطين متوازيين على النحو التالي:

١- العدد الاسمي: واحد (أو: أحد على قلة) – اثنان.. أحد عشر (أو: واحد عشر على قلة) – اثنا عشر – ثلاثة عشر... واحد وعشرون (أو: أحد وعشرون).. إلخ. ومؤنث واحد: واحدة، ومؤنث أحد: إحدى.

٢ – العدد الوصفي: الأول – الثاني.. الحادي عشر – الثاني عشر.. الحادي والعشرون... إلخ، ومؤنث الأول: الأولى، ومؤنث الحادي وأخواتها: بإضافة تاء التأنيث.

وكما لا يجوز أن يحل "اثنان" محل "الثاني" كان من المفروض ألا يحل "الواحد" أو "الأحد" مكان "الحادي"، لكن توهم الوصفية في كلمة "واحد" أو القول بوصفيتها هو الذي سهل على العربي الانتقال بها من سلسلة الأعداد الاسمية إلى سلسلة الأعداد الوصفية. لكن يظل استعمالها قليلا، ولا يمكن تسويغه إلا بضرب من التأويل يشبه تأويل النحاة لاستخدام ألفاظ العقود بدءا من العشرين والمائة ومضاعفاتها أسماء وصفات في آن واحد. وهو تأويل إذا كان ضروريا مع العشرين وأخواتها فما الداعي إلى ارتكابه مع "الواحد" وله بديل لا تشوبه شائبة، وليس مستخدمه مضطرا إليه لأن أمامه البديل الخالص من أي شائبة وهو لفظ "حادي" ؟ يقول ابن الأنباري: وتقول هذا الجزء الواحد والعشرون والأحد والعشرون، وهذه الورقة الإحدى والعشرون والواحدة والعشرون على معنى: هذه الورقة تمام الإحدى والعشرين وتمام الأحد والعشرين (المذكر والمؤنث ٢/٢٥٣).

ويظل بعد ذلك استعمال لفظ "الحادي" هو الاستخدام الفصيح المجمع على فصاحته، كما يتضح من النصوص الآتية:

أ – يقـول سيبويه: "إذا أردت أن تقول في أحد عشر كما قلت خامس، قلت: حادي عشر، وتقول في المؤنث حادية عشرة..." (٥٦٠/٣).

ب – ويقول ابن هشام: "وحيث استعملت الواحد أو الواحدة مع العشرة أو مع مـا فوقهـا كالعشـرين فإنك تقلب فاءهما إلى موطن لامهما فتصيرهما ياء، فتقول حادٍ وحادية" (أوضح المسالك ص١٧٤).

ج – ويقـول ابـن الأنـباري: "الذي يجيزه النحويون كلهم: هذا الجزء.. الحادي عشر، والثاني عشر" (المذكر والمؤنث ٢٥٣/٢).

د – ويقـول الرضـي في شـرحه على الكافية: "إن قصدت الواحد باعتبار حاله (يعـني رتبته) قلت: الأول، والثاني، والثالث.. وإنما أبدلت الأول بالواحد لأن الواحد يطلق على كل واحد من مفردات المعدودات، إذا لم يقصد الترتيب. فقلت: الأوّل، ليتبين قصد الترتيب" (٢٣٥/٤، ٢٧٢).

لهـذا يـبدو غريـبا مسـاواة عباس حسن بين الاستعمالين الراجح والمرجوح حين يقول: "يصح اشتقاق صيغة فاعل من أحد الأعداد المفردة المحصورة في واحد وتسعة وما بيـنهما ويذكـر بعـد الصـيغة العقد معطوفا عليه بالواو خاصة، نحو: الواحد والعشرون، والحادي والعشرون، والواحدة والعشرون والحادية والعشرون.. والثاني والثلاثون، والثانية والثلاثون وهكذا" (النحو الوافي ٥٥٩/٤، ٥٦٢).

* * *

وبعـد هـذه الجولـة في كتب اللغة والنحو فكرنا في استقراء الواقع اللغوي القديم مـن خـلال البحـث في موسـوعة الحديث الشريف[1] من ناحية، والاستعمالات الواقعية في معجم لسان العرب من ناحية أخرى.

---

[1] بـرنامج صـخر (١٩٩٥ – ١٩٩٧). وتضـم الموسوعة كتبا تسعة هي: صحيحا البخاري ومسـلم، وسـنن الترمذي، والنسائي، وأبي داوود، وابن ماجة، والدارمي، ومسند أحمد، وموطأ مالك.

* وقد تبين لنا من الرجوع إلى موسوعة الحديث الشريف ما يأتي:

١ – ورود لفظ "أحد" في الحديث الشريف كعدد اسميّ مع غير العشرة، في مثل: "فجاء أبو طلحة بسَلَبِ أحدٍ وعشرين رجلا "، "إذا صام الناس يوم الفطر وهم يظنون أنه رمضان فجاءهم ثبت أن هلال رمضان قد رئي قبل أن يصوموا بيوم، وأن يومهم ذلك أحد وثلاثون فإنهم يفطرون"، "فعدّها فإذا هي أحد وخمسون دينارا"، "أحد وثمانون رجلا".

٢ – ورود "واحدة" في الحديث كعدد اسمي في مثل: "فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جَذَعة"، "فإذا زادت واحدة يعني واحدة وتسعين ففيها حِقّتان"، "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، والتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة، قال: قلت يا أبا سعيد.. ما التاسعة والسابعة والخامسة ؟ قال: إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها التاسعة، وإذا مضى ثلاث وعشرون فالتي تليها السابعة".

٣ – عدم ورود أي من العددين الاسميين السابقين في سياق يقعان فيه عددين وصفيين.

* كما تبين لنا بالرجوع إلى مادة لسان العرب[1] استخدام كلمة "أحد" كعدد اسمي مع غير العشرة في مثل قوله: "في كل فقرة أحد وثلاثون دينارا"، "كان له أحد وعشرون..".

ومرة ثانية لم يرد العدد "أحد" في لسان العرب في أي سياق يحتمل فيه أن يكون عددا وصفيا.

---

(١) (برنامج المعاجم العربية – مكتبة التراث الإلكترونية – الإمارات).، وتختلف النسخة الإلكترونية عن النسخة الورقية في أنها تعطيك الفرصة في استخلاص جميع المواقع التي ورد فيها اللفظ المعين، سواء ورد في المداخل أو في لغة الشرح، وسواء ورد في مادته أو في غير مادته.

فإذا انتقلنا إلى المادة المعاصرة، واستقرأنا ما أمكننا جمعه من خلال شبكة الإنترنت، وقاعدة البيانات الخاصة بلغة الصحافة[1] وجدنا الأمر لا يختلف كثيرا عما سبقت ملاحظته، ويمكن تلخيص الملاحظات فيما يأتي:

١ – كثر مجيء لفظ أحد مركبًا مع العشرة كعدد اسمي: "أعلن أحد عشر من نواب جبل لبنان"، "أن أحد عشر شخصا قتلوا صباح أمس"، "قبل الانتخابات بأحد عشر شهرا".

٢ – كثر مجيء لفظ "واحد" معطوفا عليه أحد ألفاظ العقود باعتباره عددا اسميا مثل: "منذ واحد وخمسين عاما"، "عن واحد وسبعين عاما"، "واحد وعشرون بحرا".

٣ – لم يرد لفظ "أحد" في مركب مزجي أو عطفي باعتباره عددا وصفيا.

٤ – التساوي في كثرة الاستعمال بين وقوع لفظي "واحد" و"حادي" كعددين وصفيين مع ألفاظ العقود بدءا من العشرين، فمن الأول: "عالم القرن الواحد والعشرين..."، "تحديات القرن الواحد والعشرين"، "مدخل القرن الواحد والعشرين"، "طائرة القرن الواحد والعشرين الروسية"، "أبواب القرن الواحد والعشرين"، "أعتاب القرن الواحد والعشرين"، "سلاح القرن الواحد والعشرين"، "تحديات القرن الواحد والعشرين"، "مدخل القرن الواحد والعشرين"، "سيعبر بمصر إلى القرن الواحد والعشرين". ومن الثاني: "وبينما قرننا الحادي والعشرون يتأهب.. "، "تحديات القرن الحادي والعشرين"، "مع مطلع القرن الحادي والعشرين"، "في بدايات القرن الحادي

(١) أجري البحث على مادة تقرب من مليوني كلمة تشكل قاعدة بيانات جزئية أخذت من جريدة الحياة لمدة عام (يناير ١٩٩٥ – ديسمبر ١٩٩٥)، ومادة أخرى استخلصت من على شبكة الإنترنت في موضوعات متنوعة (أدب – اقتصاد – سياسة – إعجاز قرآني... إلخ، وشملت مقالات في صحيفة الأهرام، والسياسة الدولية، والنهار اللبنانية، والشرق القطرية وغيرها، وقد بلغت مادة البحث ما يقرب من مليون ومئة ألف كلمة فيكون مجموع مادة البحث قرابة ثلاثة ملايين كلمة.

والعشـرين"، "كـان في الحادية والسبعين مـن العمـر"، "تقـبل علـى القـرن الحـادي والعشـرين"، "يقـبل القـرن الحـادي والعشرون وقد تكاملت"، "مع دخول القرن الحادي والعشرين".

٥ — لم يأت لفـظ "واحـد" أو "واحدة" مركبا مع العشرة مطلقا، وإنما اقتصر الاسـتخدام على "حادي" و"حادية": "وفي الحادية عشرة رصدت المقاومة"، "في الحادية عشـرة صـباحا"، "الـدورة الحادية عشـرة"، "بـين الحادية عشرة صباحا والثالثة"، "في الحادي عشر من آذار"، "في الحادي عشر من الشهر"، "حتى الحادي عشر من إبريل".

* * *

وفـي الخـتام: يقـترح صاحب البحث على لجنة الأصول أن توافق على القرار الـتالي: الفصـيح أن يمـيِّز في الاستعمال بين العدد الاسمي، والعدد الترتيبي أو الوصفي، فيسـتخدم مـع الأول لفـظ "واحـد"، ومـع الثاني لفظ "حادي". ويجوز — جنوحا إلى التيسـير — أن يوضـع "الواحد" مكان "الحادي" بضرب من التأويل يجعل معنى "القرن الواحد والعشرون" هو: القرن المتمم للواحد والعشرين، أو القرن تمام الواحد والعشرين، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ولا ينصح باستخدام لفظ "أحد" في تركيب مزجي أو عطفي باعتباره عددا وصفيا.

القرنُ التاسعُ عشر

المذكـور في كتب النحو أن الوصف من العدد المركب يأخذ حكم العدد المركب في بـنائه على فتح الجزأين ؛ يقول سيبويه: " إذا أردت أن تقول في أحد عشر كما قلت خـامس قلـت: حـادي عشر. وتقول: ثاني عشر.. إلى أن تبلغ تسعة عشر، ويجري مجرى خمسة عشر في فتح الأول والآخر " (٣/٥٦٠)..

ولكن وردت في لغة الإعلام العبارات الآتية:

- من الآن وحتى الخامسِ عشر من هذا الشهر.
- حتى السادسِ عشر من الشهر القادم.
- مات في السابعةِ عشرة من عمره.

ومازلـت أذكر حديثا للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ألقاه في إذاعة القاهرة، قال فيه: وجاء القرن التاسعُ عشر...

وقـد ظللـت حيـنا من الدهر آخذ على المتحدثين إعراب الجزء الأول من العدد الوصـفي المركـب حسب موقعه في الجملة (أخطاء اللغة العربية المعاصرة ص ١٢٩) إلى أن وجـدت المخـرج في كتـب الـنحو، حين الحديث عن إضافة الوصف من العـدد إلى عـدد مسـاوٍ لـه للدلالة على أن فاعلا هذا هو بعض من العـدد الأصلي المحدد (النحو الوافـى ٤/ ٥٥٥)، كقولـه تعــالى: " ثاني اثنين إذ هما في الغار " (التوبة ٤٠) ، أو إلــى عــدد أقــل مــنه ليفـيد معـنى التصـيير والـتحويل (الــنحو الوافــى ٤/ ٥٦١) ، كقولـه تعـالى: "سـيقولون ثلاثـة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم " (الكهف ٢٢).

وعلـى الرغم من أن الرواة لم ينقلوا عن العرب إضافة الوصف من العدد المركب إلى عدد مركب فقد أجازه النحاة، وفى ذلك يقول الأشموني: " لم يذكر ابن مالك هنا صـوغ اسـم الفـاعل مـن المركـب .. لكونه لم يسمع إلا أن سيبويه وجماعة من المتقدمين أجـازوه قياسـا " (٧٧/٤). وبالـرجوع إلـى كـتاب سيبويه نجد فيه: "ومن قال خامس خمسة قال خامسُ خمسةَ عشرَ، وحادي أحدَ عشرَ. وكان القياس أن تقول: حاديَ عشرَ أحـدَ عشرَ.. فإن قلت: حادي أحد عشر، فحادي وما أشبهه يرفع، ويجر، ولا يبنى لأن

أحد عشر وما أشبهه مبني، فإن بنيتَ "حادي" وما أشبهه معها صارت ثلاثةُ أشياء اسما واحدا " (٥٦٠/٣).

وقد ذكر النحاة أن الوصف من العدد المركب إذا أضيف إلى لفظ العدد جاز فيه ثلاثة أوجه:

١- إضافة كامل الوصف المركب إلى كامل العدد المركب: " ثالثَ عشرَ ثلاثةَ عشرَ" وحكم هذا النوع بناء كل من الطرفين على فتح الجزأين، الأول في محل رفع أو نصب أو جر حسب موقعه الإعرابي، والثاني في محل جر بالإضافة.

٢ - إضافة صدر الوصف المركب إلى كامل العدد المركب: " ثالث ثلاثة عشر ". وحكم هذا النوع إعراب الطرف الأول حسب العوامل، وبناء الثاني على فتح الجزأين في محل جر مضاف إليه.

٣- إضافة صدر الوصف المركب إلى عجز العدد المركب: " ثالث عشر "، ويجوز في هذه الصورة وجهان:

أ - بناء الطرفين، أو بعبارة أخرى: الاحتفاظ بوضع كل طرف على الصورة التي كان عليها قبل الاختصار، فيبنى كل طرف على الفتح باعتباره وحدة مستقلة، لا باعتبار تركيبهما وتشكيلهما وحدة واحدة، فيقال: " ثالثَ عشرَ". وعيب هذا الضبط أنه يوقع في خلط بين الوصف المركب المضاف إلى العدد المركب، والوصف المركب.

ب - ضبط الطرف الأول حسب موقعه في الجملة ضبط إعراب، وإبقاء الطرف الثاني على حاله من البناء على الفتح (المذكر والمؤنث لابن الأنباري ٢٥٢/٢)، فنقول: " ثالثُ عشرَ "، و" ثالثَ عشرَ "، و" ثالثِ عشرَ، أوجره (الطرف الثاني) على الإضافة لزوال تركيبه، فنقول: "ثالث عشرٍ" (النحو الوافي ٥٦١/٤). وميزة هذا الرأي أنه لايوقع في خلط بين الوصف المركب المضاف إلى العدد المركب، والوصف المركب، لأن الأول يتميز بضم شطره الأول (أو فتحه أو كسره)، في حين أنه في الرأي الآخر يكون مبنيا مع شطره الثاني على فتح الجزأين (تفصيل ذلك في المخصص ١٧ /١١١، النحو الوافي ٥٦١/٤).

فلو أخذنا بالوجه الأخير وطبقناه على قولهم: وجاء القرن التاسعُ عشرَ (أو التاسعُ عشرٍ) لأمكن تصحيحه على أن يكون المراد منه: " القرن التاسعُ تسعةَ عشر "، أي" البالغ تسعة عشر"، أو " المتمم تسعة عشر "، وعلى حد تعبير الرضي: " هذا المبني على وزن الفاعل وإن لم يكن اسم فاعلٍ حقيقة لكن فيه معنى الوصف بخلاف نحو الحائط" (شرح الكافية٢٧٢/٤). وبهذا تصح الجملة، ويصح ما يشبهها فتقدر الجملة: "حتى الخامس عشر" بالجملة: "حتى اليوم الخامس [خمسة] عشر، أي البالغ خمسة عشر، أو المتمم، أو الموفي، أو تمام الخمسة عشر، أو كمالها... (همع الهوامع ٣١٨/٥).

كتابة الألف اللينة

سبق لمجمع اللغة العربية أن اهتم ببعض جوانب الرسم الإملائي، مثل قواعد رسم الهمزة، ومثل فصل ثلاث إلى تسع عن مئة (مجموعة القرارات العلمية من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين ص١٨٩-كتاب في أصول اللغة ٢٠٠/١- في أصول اللغة ٢٨١/٣ وما بعدها).

كما سبق له أن ناقش مشكلة رسم الألف اللينة، واستمع إلى آراء اللجان وناقشها في أكثر من جلسة، وأكثر من مؤتمر بدءًا من دورته الرابعة عشرة ومرورًا بالدورات الحادية والعشرين والثانية والعشرين والتاسعة والعشرين، وأعادها إلى لجنة الأصول أكثر من مرة، وانتهاء بدورته السادسة والأربعين. ولكن تمخض النقاش بعد ثلاث وعشرين سنة فلم يلد شيئا، لأنه عاد بالأمور إلى نقطة الصفر مرة أخرى، دون أن يحقق الهدف المنشود، وهو تيسير الأمر على جمهور المثقفين وإزالة ما يشوب القضية من خلافات وتفريعات، والأخذ بالرأي الذي يطرد الباب على وتيرة واحدة. ولذا فقد جاء قرار المجمع ليمثل حلاً وسطًا يرضي مختلف الأطراف المتناقشة دون أن يقدم الحلّ لجمهور المثقفين. وهذا هو نص القرار:

"ترسم الألف اللينة بصورة الياء (غير المنقوطة)، أما الياء فتنقط للفرق، وترسم الألف اللينة في آخر الفعل على صورة الياء نحو: رمى وسعى وادعى واستوفى، فإن سبقت بياء رسمت بألف، نحو أحيا واستحيا، أما إذا كان الفعل ثلاثيا مضارعه بالواو فترسم ألفا، نحو غزا ودعا.

وتكتب في آخر الاسم بصورة الياء إذا كانت رابعة فصاعدا، نحو "بشرى" و"منتدى " و"مصطفى"، فإن سبقت بياء رسمت ألفا نحو: دنيا وخطايا، وإن كانت الألف ثالثة جازت كتابتها بالألف مطلقا نحو: عصا ورحا وخطا، ويجوز كتابتها بصورة الياء لمن يعرف الفرق بين موقعيهما نحو: رضا وهدى، وترسم ألفا في آخر الاسم الأعجمي مطلقا مثل: تلا، وسخا، وشبرا، إلا ما اشتهر بغير ذلك نحو: موسى وعيسى وكسرى وبخارى ومتّى. وتكتب في آخر الحرف بصورة الألف ما عدا: إلى، وعلى، وبلى، وحتى، ويلحق بذلك " متى ". (أصول اللغة ٣٠٢/٣).

وهـأنذا أعيد الموضوع للنقاش مرة ثانية من خلال لجنة البحوث واللهجات لعل المجمع يحسم الأمر فيه مراعيًا التخفيف على الناشئة وعامة المثقفين. وقبل أن أقدم اقتراحي أمهد له بمجموعة من الحقائق هي:

١- أن الأصل في الكتابة أن تمثل المنطوق خير تمثيل، أو على حد قول ابن الحاجب: "الخط تصوير اللفظ بحروف هجائه " (الشافية ص ٣١٢)، وقول عبد العليم إبراهيم: "ليس الرسم الإملائي إلا تصويرًا خطيًا لأصوات الكلمات المنطوقة، يتيح للقارئ أن يعيد نطقها طبقا لصورتها التى نطقت بها " (مقدمة عبد العليم إبراهيم لكتابه: الإملاء والترقيم في الكتابة العربية).

٢-أن كثيرًا من الخلاف حول كتابة الألف اللينة نتج عن الخلاف المذهبي بين علماء البصرة وعلماء الكوفة وامتد هذا الخلاف إلى رسم المصحف؛ فالبصريون مثلا يكتبون " والضحا " بالألف، على حين يكتبها الكوفيون بالياء.

وفي هذا يحدثنا ابن الأنباري فيقول: " يحكى أن بعض أكابر أولاد طاهر سأل أبا العباس ثعلبًا أن يكتب له مصحفًا على مذهب أهل التحقيق فكتب: "والضحي" بالياء.

ومن مذهب الكوفيين أنه إذا كانت كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتبت بالياء، وإن كانت من ذوات الواو. والبصريون يكتبون بالألف، فنظر المبرد في ذلك المصحف، فقال: ينبغي أن يكتب: والضحا بالألف، لأنه من ذوات الواو فجمع ابن طاهر بينهما فقال المبرد لثعلب: لم كتبت: " والضحي " بالياء؟ فقال: لضمة أوله، فقال له: ولم إذا ضم أوله، وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء ؟ فقال: لأن الضمة تشبه الواو، وما أوله واو يكون آخر ياء، فتوهموا أن أوله واو، فقال أبوالعباس المبرد: أفلا يزول التّوهم إلى يوم القيامة؟". (نزهة الألبا ٢٨٨، ٢٨٩).

٣ – أن كتابة الألف اللينة تتضمن تشعيبات كثيرة يعيا بحملها أولو العزم من الباحثين، وينوء بثقل قواعدها المتخصصون بله عامة المثقفين. ويكفي أن نرجع إلى هذه التشعيبات في كتاب مثل أدب الكاتب لابن قتيبة (انظر الملحق رقم ١)، أو شافية ابن الحاجب، أو المقصور والممدود لابن ولاد، بل يكفي أن نرجع إلى الكتب التعليمية مثل كتاب الإملاء والترقيم لعبد العليم إبراهيم لنرى مصداق ذلك (انظر

الملحق رقم ٢). بل إن منهم من زاد الطين بلة مثل ابن الحاجب الذي فرق بين الاسم المقصور المنون وغير المنون، فقال: "إن كان الاسم المقصور منونًا فالمختار أنه كذلك (أي حكمه حكم غير المنون بالنظر إلى أصله إن كان ثلاثيا) وهو قياس المبرد، وقياس المازني بالألف، وقياس سيبويه: المنصوب بالألف، وما سواه بالياء." (الشافية ٣/٣٣٢).

٤ — أن ربط كتابة الألف الثالثة بأصلها الواوي أو اليائي هو تعليق للأمر على شرط يستحيل أو يصعب تحقيقه من الكافة.

ويكفي لكى نتصور حجم الصعوبة أن نشير إلى ما يأتي:

أ — استعصاء التمييز على جهابذة اللغويين بدءًا من الخليل صاحب العين الذي أدمج الواو والياء في جذر واحد، ومرورًا بالجوهري صاحب الصحاح وانتهاء بالفيروزابادي صاحب القاموس المحيط. فقد سلك الجوهري طريقا في ترتيب أبواب معجمه إذ أدمج بابي الواو والياء في باب واحد، وتبعه في ذلك الفيروزابادى على الرغم من محاولته التمييز بين البابين باستخدام الرمزين (و)، و(ي) وعلى الرغم من افتخاره في مقدمة معجمه بنبوغه في هذا الفن قديمًا، وتنويهه بأن "من أحْسن ما اختص به هذا الكتاب: تخليص الواو من الياء، وذلك قسم يسم المصنفين بالعِيِّ والإعياء " (مقدمة المؤلف ص ٨٩)، ولكن أنَّى له ذلك وقد اختلطت الأصول، وتداخلت الجذور، وماهت الحدود.

ب — أن الأمر من الناحيتين الإملائية والصرفية قد وقع في الدور الذي يعد باطلا عند المناطقة. فأنت تستدل من كتابة الفعل بالألف على أنه واوي ومن كتابته بالياء على أنه يائي، ثم أنت حين تريد أن تعرف كيفية كتابة الكلمة تقوم باختبارات صرفية عليها تتمثل في الإسناد والتثنية والجمع، ومجموعة أخرى من العمليات التصريفية المتخصصة التي قل من يستوعبها أو يحيط بها علما، وأنت في كلتا الحالتين تستدل بطريقة الكتابة على الاشتقاق، وتستدل بالاشتقاق على طريقة الكتابة.

ج - أن واوية الكلمة أو يائيتها ليست هي المعيار الحاسم وحده، فهناك أيضا قضية ضم الأول أو كسره [١]، وهناك واوية الفاء أو العين [٢]، وهناك همز العين[٣]، وهناك كذلك اعتبار تنوين الكلمة أو عدم تنوينها [٤]، وهناك اختلاف المعنى [٥]، وهناك قضية ازدواجية النوع، وهى قضية تتصف بالشيوع حتى ليكاد يخيل إلى المرء أنها هى السمة الغالبة للكلمات الناقصة (المعتلة اللام)، كما سنبين في الفقرة التالية. وهناك أخيرا قضية حُسْن الإمالة [٦].

د - أنه لم ينج كبار اللغويين من الخلط في هذا الباب، فقد يكتب الواحد منهم الكلمة بالألف وحين يبين جذرها تجده يذكره بالياء، وقد يحدث العكس. وكثيرا ما اقتصر الفيروزابادى على أحد الرمزين (و) أو (ي) ثم نراه يُعدّد الجذر أثناء شرح

---

(١) يقول ابن ولاد: زعم قوم من أهل الكوفة أن ما كان من المقصور على ثلاثة أحرف وكان الحرف الأول مكسورا أو مضموما فجائزأن يكتب بالياء وإن كان أصله الواو، فتكتب ضحى بالياء وأنت تقول ضحوة.. وتكتب رِضيً بالياء وأنت تقول الرضوان (ص ٦، ٧، وانظر ص ١٤٩).

(٢) يقول ابن ولاد: وكل ما كان من المقصور على ثلاثة أحرف وكان الحرف الأول منه أو الأوسط واوا فالاختيار أن يكتب بالياء نحو الوجى، والورى، والنوى، والشوى.. لا يحتاج أيضا إلى امتحان.. كان من ذوات الواو أو من ذوات الياء (ص٥، ٦).

(٣) يقول ابن ولاد: وقد كتبوا ما كان على ثلاثة أحرف من المقصور وأوسطه همزة بالياء ولم يمتحنوه بالياء والواو (ص٦).

(٤) انظر رقم ٣ من البحث.

(٥) يقول ابن ولاد: الخلا: ما اختليته من البقل والرطب مقصور يكتب بالياء، والخلا: الحسن من الكلام يكتب بالألف (ص٣٣)، ويقول: السَّفى: ما سفت الريح.. يكتب بالياء، وأيضا خفة الناصية يكتب بالألف (ص ٥٢).

(٦) يقول ابن ولاد: فإن كانت الألف مجهولة ولا يُعلم ما أصلها كتبت الاسم بالألف إلا أن تكون الإمالة تحسن فيه (ص١٤٨، ١٤٩). ولعله أخذ هذا الكلام من ابن قتيبة الذي ذكر كلامًا مشابهًا في أدب الكاتب (ص٢٥٧).

المدخل. فأول مدخل في باب الواو والياء هو الجذر "أبي" وقد بدأه بالرمز (ي)، ولكنه أثناء الشرح يقول: "وأبْوت وأبيْت: صرت أبا "، ويقول كذلك: " وأَبِيتُ الطعام كرضيت "، ومعلوم أن "رضى " واوى اللام، كما ذكر هو نفسه في فصل الراء. وفي فصل الثاء نجده يصدر مدخل "أثفية " بالرمز (و) ثم نجده أثناء الشرح يقول: " وثفاه يَثفيه ويثفوه: تبعه ". وفي مدخل " الجُثْوة " نجده يصدره بالرمز (و)، ثم أثناء الشرح يقول: " وجثا كدعا ورمى"، ثم يقول: " وجثوت الإبل وجثيتها: جمعتها "... وغير ذلك كثير.

هـ - أن هناك حالات كثيرة وقع فيها اللغويون في الاضطراب والتناقض، ففي الجذر عصو الذي صدره الفيرزابادى بالرمز (و) ورد ما يأتي:

- العصا: العود.
- جمع العصا:.. وعُصِيّ وعِصِيّ.
- عصاه: ضربه بها، وعَصِي كرضي: أخذها.
- عَصَوْت بالسيف، وعَصِيت بالعصا، أو عكسه، أو كلاهما في كليهما.

وحين نعود إلى معجم المقاييس لابن فارس نجده يقول في مادة ع ص (و ي): العصا: سميت بذلك لاشتمال يد ممسكها عليها.. ويقيسون على العصا فيقولون: عَصَيْت بالسيف ". فهل مع كل هذه الاشتقاقات المتضاربة التى يجنح بعضها إلى الياء وبعضها إلى الواو ما يزال الفيروزابادى على حق في تصدير المادة بالرمز (و) ؟ وهل على أحد من حرج إذا هو كتب كلمة " عصا " بالياء ؟

ونعود بطريقة أخرى إلى كلمة " عصا " فنجدها قد جمعت على "عِصِيّ"، فهل يخطئ الباحث إذا تجرأ وقال إن وزن " عصى " فُعول، وإن أصل الكلمة هو: "عصوي" اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فأبدلت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء؟ وإلا فإذا كان أصلها " عصوو" فمن أين جاءت الياء الموجودة في

الجمع ؟ وكيف يكون الاشتقاق دليلا على الأصل ثم لا نستدل بالجمع على أن المفرد يائي[1] ؟

٥ - أن عددًا كبيرًا من كلمات المقصور روتها المعاجم وكتب اللغة بأصلين واوي ويائي مما يجعل البحث عن أصل المقصور نوعًا من العبث الذي لا طائل تحته، وقد قمت بإحصاء سريع في باب الواو والياء من القاموس المحيط فوجدت فيه ما يقرب من مائة وخمسين جذرا وردت بالواو والياء.

وقد سبق صاحب القاموس كثير من اللغويين الذين مثلوا للأفعال الناقصة التي جاءت بالواو والياء، ومن هؤلاء ابن السكيت في كتابه إصلاح المنطق الذي عقد بابا عنونه: ومما يقال بالياء والواو من ذوات الأربعة(الناقص) ذكر منها: حكوت الكلام وحكيت، وطما الماء يطمى ويطمو، ونما ينمي وينمو، وعزوته إلى أبيه وعزيته، وحثوت عليه التراب وحثيت، ومضى يمضي ويمضو، وكنيته وكنوته، ومحوت أمحو ومحيت أمحي، وطغوت وطغيت، وطهوت اللحم وطهيته، وأتيته وأتوته.. إلخ.

وأعد ابن مالك منظومة جمع فيها عددًا من الأفعال الواوية اليائية في لاماتها أورد فيها بضعة وتسعين فعلا نقلها السيوطي في مزهره(٢٧٩/٢)، ثم استدرك البيتوشي (توفي بعد سنة ١٢١٠) في منظومة له اثنين وثلاثين فعلا على ابن مالك. (معجم الأفعال الواوية اليائية ص٩).

وكان ابن ولاد في كتابه المقصور والممدود حريصًا على بيان أصل الألف الثالثة، ومع ذلك لم يخل كلامه من الاضطراب أو التردد، ومن ذلك:

***الأسى**: الحزن مقصور يكتب بالياء لأنك تقول رجل أسيان، وقالوا: أسوان فجائز أن يكتب بالألف على هذا القول(ص٩).

***إلى**: جمعه آلاء.. زعم الفراء أنه يكتب بالياء والألف جميعا (ص١١).

---

(١) لم يجد الصرفيون سببا يجيز إبدال الواو ياء في عصيّ فتمحلوه قائلين "كل جمع كان على (فُعول) ولامه واو قلبت ياء تخفيفا نحو عصيّ.. قال ابن جني: وربما خرج بعض ذلك على أصله مصححا غير معلّ (انظر: نزهة الطرف في علم الصرف لابن هشام ص ١٤١).

*الجبَى: ما يجتمع إلى الحوض من الماء، يجوز كتابته بالياء والألف لأنه يقال جَبَيْت الماء وجبوته (ص٢٣).

*الحشا: حشا البطن.. يكتب بالألف لأن تثنيته حَشَوان، وأجاز بعضهم أن يكتب بالياء، وحكى في تثنيته: حَشَيان(ص٢٧).

*الحثا: دُقاق التبن، يكتب بالألف، وأجاز بعضهم كتابته بالياء، وحكي عن العرب: حثوت وحثيت(ص٢٧).

*الحِمَى: يكتب بالألف على قول الفراء، وإن شئت بالياء لمكان الكسرة التي في أوله لأنه حكى في تثنيته حموان، وقال أبو العباس الأحسن عندي في أوضاع الخط أن يكتب بالياء لأنه من حَمَيْت أحمي. والواو في تثنيته حكاية شاذة، وهي مذهب أهل الكوفة(ص٢٩، ٣٠).

*الخنا: الكلام القبيح.. اختار الفراء فيه أن يكتب بالياء، ولم يذكر الحجة لذلك في كتاب المقصور والممدود، ولعل له فيه حجة لا نعلمها وسماعا دله على أن هذه الكلمة من الياء أصلها. وحكى غير الفراء: خنا يخنو خنًا فلا يكتب على هذا المذهب إلا بالألف(ص٣٥).

*فلان في ذرَا فلان أي في ناحيته. وكتابته بالألف، وأجاز الفراء كتابته بالألف والياء جميعا(ص٤٣).

*الربا والرضا يكتبان بالألف في مذهب البصريين لأن أصلهما من الواو.. وأما قول العرب مرضيّ فليس بالأصل، وقد يتكلمون بالحرف على غير الأصل، وكان الأصل أن يقولوا مرضوٌّ ومرضيٌّ. وأهل الكوفة يجيزون كتابتهما بالياء لمكان الكسرة التي في أولهما، وحكوا في تثنية رضا: رِضَوان ورِضَيان.. فلذلك جاز أن يكتب بالياء والألف (ص٤٨).

*الزنا(كذا).. يكتب بالياء لأنه من زنى يزني فأصله الياء(ص٥٠).

*من المقصور المضموم أوله: السّدى.. والسّرى.. والسمى.. والسهى.. وكل هذا المقصور المضموم الأول يكتب بالياء (ص٥٥).

*الشَّظا (كذا): عُظَيم في ذراع الفرس إذا زال قيل قد شَظِي يَشْظَى شَظًى، وهو مقصور يكتب بالألف (كذا) (ص٥٨).

*شحا: اسم ماءة لبعض العرب... وتكتب بالياء والألف جميعا لأن منهم من يقول شحوت ومنهم من يقول شحيت وهذا عن الفراء(ص٥٩).

*الشَّدَى(كذا): طرف من الشيء.. يقال: شدا يشدو من العلم شَدْوًا إذا أخذ منه طرفا(ص٦٠).

عود على بدء:

ولنعد الآن إلى ما بدأنا به بحثنا، وهو إرادة التيسير على الناشئة وعامة المثقفين، فماذا في جعبتنا للوصول إلى هذا الهدف.

لا سبيل إلى التيسير — في رأينا- إلا بكتابة الألف اللينة المتطرفة ألفا مطلقا مهما كان أصلها، ويغض النظر عن عدد حروف الكلمة أو نوع حروفها، أو حُسن الإمالة، أو ضم أول الكلمة أو كسرها.. إلخ ما جاء من تفصيلات سبقت الإشارة إليها.

وسندنا في المناداة بهذا الرأي جملة أمور، منها:

١ — تحقيق الهدف الأمثل من وضع رموز كتابية، هو تمثيل المنطوق خير تمثيل، أو بعبارة ابن الحاجب: تصوير اللفظ بحروف هجائه.

٢ — فض الاشتباك بين الألف المقصورة التي تكتب ياء(هي في الحقيقة ليست ياء ولكن على صورة الياء)، والياء التي - بحكم طبيعتها- تكتب ياء. وهو موضوع شغل الكثيرين، وشغل المجمع، واتخذ فيه قرارًا لم يلتزم به أحد. وبذلك يزول اللبس بين كتابة: الهُدَى، والهدي ؛ والعَمَى والعُمْي ونحو ذلك.

٣ — التخفف من التفريعات والتشعيبات التي ترهن المتعلم، ولا تفيد نطقا، أو تقيم لسانا.

٤ — كثرة ما ورد من أمثلة للمقصور بالواو والياء يلفت النظر إلى احتمال عموم المسألة، ونسبتها إلى الاختلاف اللهجي، وربما يشي بذلك بعض العبارات التي

وردت في كتب اللغة، كقول ابن السكيت: " أهل العالية يقولون القصوى، وأهل نجد القصيا"(إصلاح المنطق ص ١٣٩).

٥ – طرد الباب على وتيرة واحدة، فلماذا حين ينكشف الحرف الأخير يكتب ألفا أو ياء وإذا اتصل به شيء يكتب ألفا دائما، يقول ابن ولاد: المقصور إذا أضيف إلى مضمر كتبته كله بالألف كقولك مغزاك ورحاهما ورحانا وكذلك مَغْزاة ورحاة..(ص ١٤٩، ١٥٠)، ويقول ابن قتيبة: "ما كان بالياء أو الألف إذا أضفته إلى الضمير كتبت الجميع بالألف.. وكذلك الفعل إذا لحقه الضمير: قضاه، ورماه، ودلاهما.. وقد خالف الكُتَّاب في هذا المصحف"[1] (أدب الكاتب٢٦٠).

٦ – كان بإمكاننا أن نقترح السماح بكتابتها ألفًا أو ياء نظرًا لكثرة ما ورد من أمثلة متعددة الجذور مما قد يدل على أن الاتجاه إلى الواو أو الياء هو خاصة لهجية كما سبق أن ذكرنا في الفقرة ٤، وهذا يفتح بابا أمام الكاتب أن يتجه إلى الألف أو الياء كيفما شاء، فكما يقول ابن جني:" لو أن إنسانا استعمل لغة قليلة عند العرب لم يكن مخطئا لكلام العرب، لكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين.. وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ وإن كان غير ما جاء به خيرا منه" (الخصائص٢/١٢).

وقد فضلنا بدلا من فتح الباب لاختيار الكاتب مما قد يوقع في الفوضى والارتباك- فضلنا تبنِّي طريقة واحدة يسندها المنطق والقياس وهي تعميم كتابة الألف المقصورة ألفا، وكما أثبت الإحصاء فالجذور الواوية أكثر من الجذور اليائية.

٧ – الركون إلى ما صرح به جمهور النحاة من جواز كتابة المقصور بالألف دائما، يقول أبو جعفر النحاس -بعد أن فصل أحوال المقصور- ما نصه:"ولا اختلاف بين النحويين في أنك إن كتبت هذا كله بالألف فجائز" (صناعة الكتاب ص١٣٤، ١٣٥) ثم استطرد قائلا :"ثم اختلفوا بعد إجازتهم إياه فمنهم من قال: كَتْب ذوات الياء بالياء أولى للفرق، ومنهم من قال: الكاتب مخير في ذينك، والأمر واحد فيهما، ومنهم من قال:

---

(١)كتبت في المصحف قَضَىٰها (يوسف٦٨)، فقضىهن (فصلت١٢) فدلّىهما(الأعراف٢٢).

هـذا الاصطلاح -وإن كـان قديما، وقد جرى عليه الكتاب- فإنه خطأ لا يجوز، واحتجّ في ذلك بحجج بينة منها:

أ-أنـه لو كانت العلة صحيحة في الفرق بين ذوات الياء وذوات الواو فقد نقضوا هذا وكتبوا "ضحى" بالياء وهو من ضحا يضحو[١]، وكتبوا ربًى بالياء[٢]، وهو من باب ربا يربو.

ب-كـان الـزّجاج يتعجب من هذا كله ويقول: لم يأخذوا بما في كتاب الله جل وعـز، ولا بالقـياس الصـحيح.. فإن كانوا اتبعوا ما في المصحف، ففي المصحف ما زكى بالياء وهو من زكا يزكو.. وقد علمنا أننا إنما ننقل إلى الكتاب ما كان في اللفظ. وإذا قلـنا: رمـى فليس في اللفظ إلا ألف. ثم ذكر (الزجاج) المناقضة في هذا بإجماعهم على كَتْب ذوات الياء بالألف إذا اتصلت بمضمر. نحو رماه، وملهاك.

ج - يقـول الـزجاج: وقولهم إننا كتبنا رمى بالياء ليدل على أن الألف منقلبة من ياء خطأ، لأنه يلزمهم أن يكتبوا غزا بالواو لأن الألف منقلبة عن واو[٣].

ويقول ابن الحاجب في شافيته بعد أن فصل أحكام كتابة الألف الثالثة والرابعة: "ومـنهم مـن يكتب الباب كله بالألف" (٣٣٢/٣) ويعقب الرضي قائلا: " أي منهم من يكتـب جمـيع بـاب المقصـورة ثالـثة كانت، أو رابعة، أو فوقها، عن الياء كانت أو عن غيرها – بالألف على الأصل "(٣٣٣/٣).

٨- أن ربط كتابة الكلمة بالألف أو بالياء – ربطها بالإمالة أو عدم الإمالة إذا كـان يصلح مسوغا في القديم لاختيار الألف أو الياء فهو لا يصلح في الحديث، حيث لم تعـد الإمالـة مسـتخدمة في فصحانا اليوم. يقول الفارابي: بعد أن ذكر عشرات الكلمات الواويـة الأصـل الـتي جاءت على وزن فَعَل: " وهذا الباب أصل الألف فيه واو، وإنما

---

(١)كتبت في المصحف: والضُحى (الضحى١).

(٢)هي في المصحف بالألف في قوله تعالى:"وما آتيتم من ربا" (الروم٣٩).

(٣)مصـــداقا لكـــلام الـــزجاج كتبت الألف واوا في المصحف في: الصلوة، والزكوة، والحيوة، والربوا، وبالغدوة، كمشكوة، النجوة، ومنوة.

صارت ألفا لأنها سكنت لتحرك ما قبلها ثم جرتها الفتحة التي قبلها فصيرتها ألفا.وهو يكتب بالألف لأن الإمالة لا تصلح فيه،وإنما يمال ما كان من الياء". ويقول: "فإذا كان مضموم الأول أو مكسوره فللعلماء فيه اختلاف، فمنهم من يميل،ومنهم من لا يميل، وهو مثل الضحى، والسهى، والرِّبى، والصِّبى. وكما اختلفوا في إمالته كذلك اختلفوا في كتابته بالألف والياء" (٢٣/٤).

الملحق رقم (١)

الباب الثالث*

الألف اللينة

هي ألف ساكنة مفتوح ما قبلها: مثل ألف كتاب، وعصا، وعاد، ويخشى، وإلى، وعلى، وهي لا تأتي في أول الكلمة، لأنها ساكنة، وإنما تقع في وسط الكلمة، أو في آخرها.

الألف المتوسطة

ترسم ألفًا مطلقًا، سواء أكان توسطها أصليًا، أم عارضًا، فالمتوسطة أصلا هي التي يكون بعدها حرف أو أكثر من الحروف الأصلية في الكلمة، مثل: قال – شارع – ينام، والمتوسطة توسطًا عارضًا هي الألف التي كانت آخر الكلمة، ثم لحق بآخر الكلمة شيء آخر، مثل تاء التأنيث، أو الضمير، أو ما الاستفهامية.

وأمثلتها من الأسماء: فتاة – هُداهم – مُناي – مولاه – بمقتضام فعلت هذا؟

" " الأفعال: ينساك – يلقاكم – يرضاهما – يخشاني.

" " الحروف: إلام تنتطلع؟ علام تقول؟ حتام تظل مفكرًا؟

الألف المتطرفة

في الأسماء:

١ – في الأسماء الأعجمية : ترسم ألفًا. مثل : تلا – سخا – قنا – طما – يافا – حيفا – شبرا – طنطا – زفتا – إسنا – زليخا – فرنسا – روسيا – أستراليا – أمريكا. ما عدا أربعة أسماء. هي: موسى – عيسى – كسرى – بخارى – فتكتب ألفها ياء.

---

*الإملاء والترقيم لعبد العليم إبراهيم

٢ — الأسماء المبنية:

ترسم ألفا — مثل الأدوات: إذا الظرفية — مهما — حيثما — كيفما — ما الاسمية ومثل الضمائر : أنا — نا — أنتما — هما — كما — ومثل أسماء الإشارة : هاتا — هذا — هنا — ماعدا خمسة أسماء هي: لدى — أنى — متى - - أولَى (اسم إشارة) — الألى (اسما موصولا) فتكتب ألفها ياء.

٣ — الأسماء المعربة:

تكتب ألفا إذا كان الاسم ثلاثيا — وكانت الألف منقلبة عن واو مثل: الحجا (العقل) الخفا. الذُّرا — الرِّبا (الزيادة) — الرُّبا. الرضا. الضحا. العصا. العلا. القفا. (أل المعرفة لا تحسب من أحرف الكلمة).

(ب) وتكتب ياء في غير ذلك:

١ — بأن تكون في اسم ثلاثي وهي منقلبة عن ياء. مثل: أذى. دُمى. فتى. قِرى (كرم) قُرى. منى. هدى. نوى. الهوى. السُّرى. القِلى (البغض).

٢ — أو تكون في اسم أحرفه أكثر من ثلاثة وليس قبل الألف ياء. مثل: بشرى. بلوى. تترى. جدوى. جرحى. ذكرى. سعدى. سلوى. صرعى. صغرى. طوبى. قتلى. كبرى. ليلى. مُربّى. مسمّى. القهقرى. الهوينى. منتدى. مصطفى. مستدعى. مستشفى. فإن كان قبل الألف ياء رسمت الألف اللينة ألفا. مثل: ثريا — دنيا — ريّا — محيا — خطايا — رعايا — زوايا — سجايا — قضايا — هدايا — منايا.

إلا إذا كانت الكلمة علما فترسم الأف ياء — مثل: يحيى للتفرقة بينهما اسما وفعلا (يحيا).

في الأفعال:

(أ) ترسم ألفا إذا كانت آخر فعل ثلاثي — وكانت منقلبة عن واو — مثل: ألا — بدا — تلا —جفا — جلا — خلا — دنا — ربا — زكا — سطا — سما — صفا — طفا — عدا — علا — غدا — غزا — قسا — كبا — كسا — لها — محا — نجا.

(ب) وترسم ياء فيماعدا ذلك:

١ – بأن كانت آخر فعل ثلاثي – وكانت منقلبة عن ياء – مثل:
أبى – أتى – أوى – برى – بغى – بكى – بنى – ثوى – جرى – جزى – حكى– حمى – حوى – درى – روى – سرى – سعى – سقى – شفى – شوى – طلى– طوى– عوى – غوى– فدى – قضى – قلى – كوى – مشى – نوى – هدى – هوى.

٢ – أو كانت آخر فعل أحرفه أكثر من ثلاثة. وليس قبل الألف ياء، مثل:
آتى – أبدى – أجرى – أجلى – أخلى – أدمى – أردى – أسدى – أشقى – أصلى– أضفى – أضنى – أعفى – أغفى – أفنى – أقصى – أكدى – ألفى – أمضى – أنجى– أولى.

ربّى – زكّى – سمّى – بارى – جارى – عادى – غالى – نادى – ناجى – والى –اهتدى – انتمى – التقى – استوى – اصطفى – اشترى – افتدى – ارتقى – استثنى – استرعى– استرضى – استعلى – استهدى – استولى؛ فإن كان قبل الألف ياء رسمت الألف اللينة المتطرفة ألفًا. مثل:
أحيا – تزيّا – يتزيا – أعيا.

ملاحظة:

حرف المضارعة يُعَدّ في أحرف الفعل، فالفعل "يُدعى" المبني للمجهول تكتب ألفه ياء ؛ لأنها رابعة (بند٢).

في الحروف:

ترسم ألفًا، مثل: إذا الفجائية – إذما – إلاّ – ألا – أمَا – أمّا – إمّا – أيا– حاشا– خلا–عدا (إذا اعتبرت حروف الجر في الاستثناء) لولا – لوما – ما (الحرفية) – ها (التنبيهية)– هلا – هيا – يا.

ماعدا أربعة أحرف، هي: إلى. بلى. حتى. على، فألفها ترسم ياء.

تعقيبات:

١ – فهم من بعض القواعد السابقة أن رسم الألف الثالثة في آخر الفعل أو الاسم يتوقف على معرفة أصلها (الواو أو الياء) وهذا الأصل يمكن معرفته بالرجوع إلى معاجم اللغة؛ ولكن مما يساعد على معرفة هذا الأصل:

(أ) ملاحظة مضارع الماضي، فإذا جاءت الألف واوًا في آخر المضارع، مثل: يدنو - يرنو - يسمو - يصفو - يطفو - يغزو - ينجو - يمحو - رسمت ألف الماضي ألفًا (دنا- رنا - سما - صفا - طفا - غزا - نحا - محا).

وإذا جاءت الألف ياء في آخر المضارع، مثل: يجزي - يرمي - يبكي - يسري- يهدي - يبني - يأوي - رسمت ألف الماضي ياء (جزى - رمى - بكى - سرى- هدى- بنى - أوى).

(ب) ملاحظة المصدر:

ففي الأفعال: سعى - نأى - نهى تكتب الألف ياء، لأن المصدر سعْي - نأي - نهْي.

أما الألف الثالثة في آخر الاسم فيعرف أصلها بالرجوع إلى المعاجم وملاحظة مثناها وجمعها.

٢ - في اللغة أفعال ثلاثية آخرها ألف، وهذه الألف منقلبة عن واو في لغة، وعن ياء في لغة أخرى، ولهذا يجوز رسم ألفها واوًا أو ياء، مثل: نما - نمى، فالمضارع ينمو- وينمي، ولكن الأحسن أن تكتب على أكثر اللغتين استعمالا.

كما أن في اللغة أسماء ثلاثية آخرها ألف لينة يجوز كتابتها ألفًا أو ياء، مثل: المها (جمع مهاة) وهي البقرة الوحشية فتجمع على مهوات أومهيات، ومثلها: الرحى فتثنى: رحوان- رحيان، وتجمع على رحوات، ورحيات.

٣ - (أ) فيما يلي طائفة من الأسماء الثلاثية المختومة بألف لينة، أصلها واو فترسم ألفًا: الْجَدا (المطر أو العطية) - الجفا - الحجا (العقل) - الحفا - الخُطا - الخَنا (الفحش) - الدُنا (جمع دنيا) - الذرا - الربا (الزيادة) - الرُبا (جمع ربوة) - الرجا (الناحية) - الرضا - الرشا (جمع رشوة) - السنا (الضوء) - الشبا (جمع شباة وهي حد كل شيء) - الشجا (ما يعترض الحلق من عظم وغيره) - الشذا (جمع شذاة وهي الرائحة الطيبة) - الشَّفا (حرف كل شيء) - الصبا - الضحا - الطَّلا (ولد الظبي) - الظُّبا (جمع ظُبة وهي حد السيف) - العِدا - العُرا - العَشا (سوء البصر ليلا) - العصا - العلا - الفلا (جمع فلاة وهي الصحراء) - القفا - النشا.

(ب) وفيما يلي طائفة من الأسماء الثلاثية المختومة بألف لينة، أصلها ياء فترسم ياء: الأذى – الأسى – البِلى – التُّقى – الثرى – الجنى – الجوى – الحصى – الحمى – الدُّمى – الرُّؤى – الردى – الرُّقى (جمع رقية) – السدى (وهو من الثوب ما مد من خيوطه) – السُّرى – الشَّرى (مسكن الأسد) – الشَّوى – (الأطراف أو جلدة الرأس) – الصدى – الضنى – الطوى (الجوع) – العمى – الغنى – الفتى – الفِدى – القذى – القِرى (الكرم) – القُرى – القِلى – الكرى (النوم) – الكلى (جمع كلية) – اللحى (جمع لحية) – اللمى (سمرة الشفة) – المُدى – المُنَى – ندى – نوى – نهى – هدى – الهوى – الورى – الوغى – الونى (التعب).

٤ – الألف اللينة إذا رسمت ياء لا يجوز نقطها، مثل: سعى الفتى إلى الغنى.

٥ – من أنواع الألف المتطرفة:

(أ) الألف المبدلة من ياء المتكلم، وهذه ترسم ألفًا، مثل: ياحسرتا – وا كبدا– وا لهفتا – وا أسفا – ياويلتا.

والأصل: ياحسرتي – وا كبدي – وا لهفتي – وا أسفي – ياويلتي.

(ب) الألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة، مثل: ليعلمًا المسرف أن عاقبة الإسراف وخيمة ؛ ومثل: لنسفعًا بالناصية.

(ج) الألف المبدلة من نون "إذن" وهذه تكتب ألفا على رأي بعض العلماء، ويرى آخرون أن تظل نونًا، لأنها مثل أنْ ولنْ.

رسم الألف اللينة

نعرض في هذا الباب لمسألتين:

١ – يجيزون كتابة الضحا والذرا والربا وأمثالها بالألف والياء ؛ تبعا للخلاف بين البصريين والكوفيين، وأرى ترجيح رأي البصريين والاكتفاء به في كتابة هذه الجموع، إذا كانت واوية اللام، ويكون شأنها في ذلك شأن الأسماء الثلاثية المقصورة الواوية اللام، مثل: عصا، والأفعال الثلاثية الواوية اللام، مثل: صفا.

فإذا كانت هذه الجموع يائية اللام كتبت ألفها ياء مثل: القُرى، الدُّمى، المُدَى، المُنَى – ولنا أن نستأنس بغلبة آراء البصريين، وسيادتها في أكثر المسائل النحوية.

والأخذ بهذا الرأي يضع أمامنا قاعدة مطردة دقيقة، ليس فيها قولان.

٢ – ويكتبون الألف الزائدة على ثلاثة في الأفعال والأسماء غير الأعجمية ياء، مثل: أبدى، التقى، استدعى، ومثل: بشرى، مصطفى، مستشفى، إلا إذا كان قبل الألف ياء، فتكتب الألف الأخيرة ألفًا، مثل أحيا، تزيّا، الدنيا، العليا، ويستثنون من هذه القاعدة الأخيرة العلم المختوم بألف قبلها ياء، فيكتبون ألفه ياء، مثل يحيى، ريّى، ثريّى (أعلاما) وأرى أنه لا داعي إلى هذا الاستثناء، حفاظًا على مبدأ اختصار القواعد، وتقليل المستثنيات، أما الحجة التي يستندون إليها في تبرير هذا الاستثناء ؛ وهي أن كتابة آخر العلم ياء إنما كانت للتفرقة بين العلم والفعل – فهذا واضح في كل كلمة يحيى اسمًا ويحيا فعلا، أما ريّى وثريّى فلا تشبهان الفعل، على أن الحكم على الكلمة بأنها اسم أو فعل، إنما يرجع إلى سياق المعنى، لا إلى هذا المظهر الحسي، وإلا فما رأيك في كلمة "حسن" أهي اسم، أم هي فعل؟ وكذلك كلمة أشرف ويزيد، ونحوها.

الملحق رقم (٢)

باب ما يكتب بالياء والألف*

من الأفعال

إذا كان الفعل على ثلاثة أحرفٍ، ولم تَدْرِ أَمِنْ ذوات الياء هو أمْ من ذوات الواو رَدَدْته إلى نفسك، فما كانت اللامُ فيه ياءً كتبته بالياء، نحو: قَضَى وَرَمَى وسَعَى؛ لأنك تقولُ: قَضَيْتُ وَرَمَيْتُ وَسَعَيْتُ، وما كان لام فعلْتُ منه واوًا كتبته بالألف، نحو: دَعَا وَغَزَا وَسَلاَ ؛ لأنك تقولُ: دعوتُ وغزوتُ وسَلَوْتُ.

وكلُّ ما لحقته الزيادةُ من الفعل لم تَنْظُرْ إلى أصله وكَتبتَه كلَّه بالياء ؛ فتكتبُ "أغْزَى فُلانٌ فُلانًا " بالياء وهو من " غزوتُ " و " أدْنَى فُلانٌ فُلانًا " وهو من "دَنَوْتُ " و " أَلْهَى فُلاَنٌ فُلانًا " وهو من " لَهَوْت " فيُكْتَبُ ذلك كلُّه بالياء ؛ لأنه يصيرُ إلى الياء، ألا ترى أنَّك تقول: أغْزَيْتُ وأدْنَيْتُ وألْهَيْتُ، وكذلك يُكْتَبُ يُغْزَى ويُدْنَى ويُدْعَى ويُلْهَى، وكلُّ ما كان من الياء والواو فَتَثْنِيَتُهُ بالياء ؛ لأنَّك تقولُ: يُغْزَيَانِ ويُدْعَيَانِ وَيُدْنَيَانِ وَيُلْهَيَانِ.

باب ما يُكْتَبُ بالياء والألف

من الأسماء

كلُّ اسْمٍ مقصورٍ على ثلاثة أحرف: فإنْ كان من بنات الياء كتبتَه بالياء، وإنْ كان من بنات الواو فاكْتُبْهُ بالألف، ويدلُّك على ذلك تثنيةُ الاسمِ والرجوعُ إلى الفعل الذي أُخِذَ منه الاسمُ، فَتَكْتُبُ " قَفًا " و" عَصًا " و" رَجَا البئر" بالألف ؛ لأنك تقول في التَّثْنِيَة: قَفَوَانِ وَعَصَوَانِ وَرَجَوَان، وتردُّه إلى الفعل ؛ فتقول: "قَدْ قَفَوْتُ الرَّجُلَ" إذا اتَّبَعْتَهُ، و"عَصَوْتُه" إذا ضَرَبْتَه بالعصا، ولم يُمْكِنْكَ في "رَجًا" أن تَرَدَّه إلى فعل فدلَّتْكَ عليه التثنيةُ، قال الشاعر:

فَلاَ يُرْمَى بِيَ الرَّجَوَانِ، إنِّي ... أَقَلُّ الْقَوْمِ مَنْ يُغْنِي مَكَانِي

* أدب الكاتب لابن قتيبة.

وتَكْتُبُ الهُدَى والهَوَى – هَوى النفس – والمَدَى – الغاية – بالياء، لأنَّك تقول في التثنية: هُدَيَانِ، وتقول: هَدَيْتُه، وتقولُ: هَوَيَانِ وَمَدَيَانِ.

فإن أشْكَلَ عليك من هذا الباب حرفٌ لم تعرفْ أصلَه ولا تثنيتَه فرأيتَ الإمالة فيه أحْسَنَ فاكْتُبْهُ بالياء، وإن لم تُحْسِنْ فيه الإمالةَ فاكتبه بالألف حتّى تعلم.

وإذا ورد عليك حرفٌ قد ثُنِّيَ بالياء وبالواو عَمِلْتَ على الأكثر الأعم، نحو رَحًى؛ لأنَّ من العرب من يقول "رَحَوْتُ الرَّحَا" ومنهم من يقول "رَحَيْتُ الرَّحَى" وأن تكتبَها بالياء كان أحبَّ إليَّ ؛ لأنها اللغةُ العاليةُ، قال مُهَلْهِلٌ:

كَأنَّا غُدْوَةً وَبَنِي أَبِينَا بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحَيَا مُدِيرِ

وكذلك "الرِّضَا"، من العرب من يُثَنِّيه "رِضَيَانِ" ومنهم من يُثَنِّيهِ "رِضَوَانِ" وأَنْ تكتبَه بالألف كان أحَبَّ إلَيَّ ؛ لأنَّ الواوَ فيه أكثر، وهو من "الرِّضْوَان".

وكلُّ مَقْصُورٍ جَاوَزَ ثَلاثةَ أحرفٍ فاكتبه بالياء ؛ لأنَّك إنما تُثَنِّيهِ بالياء، نحو: مُثَنًّى، ومُعَلًّى، ومَغْزًى، ومَلْهًى، ومُدَّعًى، ومُشْتَرًى، وكذلك "أعْمَى" و"أعْشَى"، و"أظْمى" و"هو أدْنَى منك" و"أعْلَى عينًا"، وكذلك "مِقْلًى" وهو من "قَلَوْت البُسْرَ" و"مُعَافًى" و"مُنَادًى" لا تُبَالِ أكان أصْلُه الواوَ أم الياء، وتكتُبُه بالياء على التثنية، إلا ما كان في آخره ياءان فإنه يكتب بألفٍ ؛ لِكَرَاهَتِهِم اجتماع ياءين في آخر الاسم، نحو: "الدُّنْيا" و"العُلْيَا"، و"القُصْيَا" ونحو "مُعَيًّا" و"مُحَيًّا" و"عام حَيًّا" و"رُؤْيَا" و"سَقْيَا"، خلا "يَحْيى" الذي هو اسم ؛ فإن الكُتَّاب اجتمعوا على أن كتبوه بالياء، ولم يَلْزَمُوا فيه القياسَ، وأحسبُهم اتبعوا المصحفَ وكذلك إذا كان مثلُ هذا على "يَفْعَلُ"، نحو "فلانٌ يَعْيا بالأمر" و"يَحْيَا سِنِينَ" كُتِبَتْ بالألف ؛ كراهةً لاجتماع ياءين في آخره.

وكذلك تكتبُ "شَأى فُلانٌ فُلانًا" أي: سَبَقَه، بالياء، وهو من "شأَوْتُ" كراهةً لاجتماع ألفين في آخره.

وتَعْتبر المصادرَ بأن تَرْجِعَ إلى المؤنَّث ؛ فما كان في المؤنث بالياء كتبتَه بالياء، نحو "العَمَى" و"الظَّمَى" لأنَّك تقول: عَمْيَاءُ، وظَمْيَاءُ، وما كان في المؤنث بالواو كتبته بالألف، نحو "العَشَا" في العين، و"العَثَا" وهوكثرة شَعرِ الوجه، و"القَنَا" في الأنف، تقول:عَشْوَاءُ، وقَنْوَاءُ، وعَثْوَاءُ.

وكذلك كلُّ جمع ليس بينه وبين واحده في الهجاء إلا الهاءُ من المقصور، نحو: "الحَصَى"، و"النَّوَى"، و"القَطَا" ؛ فما كان جمعُه بالواو كتبته بالألف، نحو: قَطًا ؛ لأنه يجمع أيضًا "قَطَوَاتٍ"، وما كان جمعُهُ بالياء كتبتَه بالياء، نحو: حَصًى، ونوًى ؛ لأنه يجمع أيضًا "حَصَيَاتٍ"، و"نَوَيَاتٍ".

فكلُّ هذه الحروف إذا أنتَ أضفتَها إلى مَكْنِيٍّ كتبتَ ما كان منها بالواو بالألف، وما كان منها بالياء بالألف ؛ فتكتبُ "صُغْرَاهم" "وكبراهم"، و"حَصَاكَ" و"نَوَاكَ" وأشباه ذلك و"إحدَاهما"، وكذلك الأفعالُ إذا أوقعتَها على مَكْنِيٍّ كتبتَ ما كان منها بالياء بالألف، نحو "قضاه حَقَّه" و"رَمَاهم عن قوس"، ودلَّاهما بغُرور، وقد خالف الكُتَّاب في هذا المُصْحَفَ.

لم يترك بابا للرزق إلا وطرقه

يقول الأشموني (حاشية الصبّان على شرح الأشموني ط الحلبي ١٨٨/٢): "تمتنع الواو في سبع مسائل... الرابعة: الماضي التالي إلا نحو: ما تكلم زيد إلا قال خيرا، ومنه: وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ". وردد هذا الكلام بعض المتأخرين فخطأ إبراهيم المنذر في "كتاب المنذر " (بيروت ط أولى ١٩٢٧) من يقول: " ما اعتلى منبر الخطابة إلا وفتن العقول "، وخطأ زهدي جار الله في كتابه: الكتابة الصحيحة (بيروت ١٩٧٧) من يقول: "ما نعق ناعق إلا وتبعه "، " ما أحسنت إليه إلا وأساء إليك "، " لم يترك سؤالا إلا وسأله " (ص ٣٨٣) وخطأ علي عيسى في سلسلة مقالاته بمجلة أكتوبر (١٩٨٧/١١/٨) قول القائل: " وقف الخطيب أمام الجماهير وما تكلم إلا وقال خيرا "، ووصف عبد المعطي إسماعيل عبادة في كتابه: " مثابة الكاتب: الخطأ والصواب في اللغة العربية " (وكالة الأهرام للتوزيع ١٩٩٤) – وصف قولهم: "ما مر به طير إلا وفزع، ولا نبحه كلب إلا وجزع" بأنه " استعمال نادر حتى في الشعر"(ص١١٥). وتناقض محمد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي في كتابه: " نظرات في أخطاء المنشئين "(النجف ١٩٨٤) تناقض مع نفسه حين قال: " وتزاد الواو بعد إلا لتأكيد الحكم المطلوب إثباته إذا كان في محل الرد والإنكار" ، ثم خطأ قولهم: " المشرف لم يترك المدرسة إلا وذهب إليها "ذاكرا أن الصواب بدون الواو (ص١٦٩) وخطأ ماجد الصايغ وعفيف دمشقية قول القائل: " ما دخلت الدار إلا ورأيتك نائما "، وذكر أن الصواب بدون إقحام الواو، لأنها ليست واو الحالية، وكما ورد في القرآن الكريم: (ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) "، (الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية ص ١٦٢).

ولكننا على الجانب الآخر نجد الرضي في شرحه على الكافية (شرح وتحقيق عبد العال سالم. ط عالم الكتب بالقاهرة –أولى ٢٠٠٠) يقول ما نصه: " فجاز كون الماضي الذي بعد إلا ها هنا مجردا عن قد والواو مع أنه حال.. وجاز أيضا أن ينظر إلى كون مثل هذا الفعل حالا في الحقيقة وإن كان فيه معنى الجزاء فيؤتى به ماضيا، أو مضارعا

مـع الـواو نحـو: مـا زرتـه إلا وأكرمني، ولا أزوره ألا ويكرمني... ويجيء في الماضي مع الواو " قد " أيضا نحو: ما زرته إلا وقد زارني " (١٩٥/٢).

ويتبين من كلام الرضي أن أمام المستخدم اختيارات ثلاثة هي أن يقول:

- ما زرته إلا أكرمني.
- ما زرته إلا وأكرمني.
- ما زرته إلا وقد أكرمني.

دون تفـريق بيـنها. لكننا نجد فريقا من اللغويين يُفرّق بين ما خلا من الواو، وما اشتمل عليها بحيادية التعبير في الأول، وإرادة تأكيده في الثاني. يقول أبو البقاء الكفوي في كتابه الكليات (مؤسسة الرسالة – ط ثانية ١٩٩٣): " وقد تزاد الواو بعد إلا لتأكيد الحكم المطلوب إثباته إذا كان في محل الرد والإنكار، كما في قوله: ما من أحد إلا وله طمع أو حسد ؛ قال البيضاوي: الأصل ألا يدخلها الواو، كقوله تعالى:" إلا لها منذرون " لكن لما شابهت صورتها صورة الحال أدخلت عليها تأكيدا للصوقها بالموصوف "(ص ٩٢٢).

أما المتأخرون فقد مال قلة منهم إلى تصويب إدخال الواو (ولا أقول زيادتها) على الماضي التالي " إلا "، ومن هؤلاء عبد الفتاح سليم في كتابه: اللحن في اللغة: مظاهره ومقاييسه الذى صوّب اقتران الجملة الماضوية الواقعة بعد " إلا "بالواو في نحو: ما ارتقى كرسيّ الخطابة إلا وسحر الألباب " قائلا : " وقد جاء مثله في شعر قديم، هو قوله:

إلا وكان لمرتاع بها وزرا

كما أجاز ذلك الاستعمال الزمخشري وغيره " (القسم الثاني ص ٤٥١).

وجاء على رأس المجيزين المدقق اللغوي المرموق المرحوم محمد العدناني الذي حشد أكبر قدر من الشواهد التي تدعم رأيه في كتابيه " معجم الأخطاء الشائعة "، و"معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ". يقول في الأول (مكتبة لبنان، ط ثانية) ما نصه: "ويخطئون من يقول:ما من أحد إلا وجزع، ويقولون إن الصواب هو: ما من أحد إلا جزع. ولكن جاء في المغني أن الواو تزاد بعد إلا لتأكيد الحكم المطلوب إثباته، إذا كان في محل الرد والإنكار. فهنا لا نقول: ما من أحد إلا وجزع إلا إذا شككنا في تسرب

الجزع في كل قلب " (ص٢٧). ويقول في الثاني (مكتبة لبنان ط ثانية ١٩٩٦) رافضا رأي بعضهم خطأ العبارة: "ما اعتلى منبر الخطابة إلا وفتن العقول " يقول ما نصه: " ولكن قال زهير بن أبى سلمى:

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة   إلا وكان لمرتاع بها وزرا

وجاء في نهج البلاغة في الصفحة ٢٧٩: لا يبقى بيت مدد ولا وبر إلا ودخله الظُّلَمة، وقال ابن زريق البغدادي:

ما آب من سفر إلا وأزعجه   عزم على سفر بالرغم يُزمعه

وقال محيط المحيط، وأقرب الموارد، والوسيط: تزاد الواو بعد (إلا) لتأكيد الحكم المطلوب إثباته، نحو: ما من أحد إلا وله طمع أو حسد " (ص٧١٠).

ويبقى بعد ذلك أن نلفت الانتباه إلى ما يأتي:

١ - أن مَن خَطَّأ الإتيان بالواو قد شاب رأيه قصور في الاستدلال ونقص في الاستقراء ولا شك أن من حفظ حجة على من لم يحفظ.

٢ – أن القرآن الكريم يصلح الاستشهاد به في جانب الإيجاب، دون جانب السلب، وقديما أفتى الأصمعي بخطأ استخدام كلمة " زوجة " للمرأة محتجا بقوله تعالى:" اسكن أنت وزوجك الجنة " فاعترض عليه أحد الحاضرين قائلا : فهل قال عز وجل: لا يقال: زوجة؟ فأرتج على الأصمعي، و" كانت منه في هذا شدة وعسر " على حد تعبير ابن منظور في لسان العرب.

٣ – أن من عبر من اللغويين بزيادة الواو أو إقحامها قد خانه التوفيق في التعبير ؛ لأن واو الحال لا يصح أن توصف بذلك. وإذا كانت قد أفادت التأكيد في هذا السياق، وهو معنى مرتبط بزيادة الواو فهي قد دلت عليه إلى جانب معناها الأساسي وهو الحالية.

٤ – أننا يمكننا أن نساوي في الفصاحة بين الإتيان بالواو أو عدم الإتيان بها، ونفتي بذلك لعامة الناس، تاركين ميلهم إلى أحد الاختيارين لذوقهم الشخصي، وحسهم اللغوي. كما يمكننا أن نربط كل استعمال بسياق معين، فحين يكون التعبير محايدا يخلو من الواو، وحين يراد التأكيد – في مجال الشك أو الإنكار – يشتمل على الواو، ونفتي بذلك للمتخصصين والكتاب المدققين.

مشروع لاغ

أجمع المؤلفون في الصواب اللغوي على خطأ قول القائل: " مشروع لاغ "، "وكلام لاغ"، ذاكرين أن الصواب: "مشروع مُلْغًى"، "وكلام مُلْغًى"، من الفعل "ألغى". ومن هؤلاء عباس أبوالسعود [١]، ومحمد العدناني[٢]، وأبو الفتوح شريف [٣]. ويوافق عبد الفتاح سليم [٤] صاحبَ "حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب[٥]" في تخطئة "لاغي" ، إذ لم يرد الفعل " لَغَى" بهذا المعنى، والوارد " ألغى".

والناظر في كتابات السابقين نجدهم جميعا يستندون إلى نفس الحجة، ويرددون نفس الكلام دون دون أن يحاول أحدهم النظر في الموضوع نظرة موضوعية. ولنعد إلى المصادر الأساسية وإلى القرآن الكريم والحديث الشريف لنرى ماذا جاء فيها:

١- في اللسان: الّلغوْ: الشيء الذي لا يعتد به.

لغا في القول: أخطأ.

اللغو: ما لا يعتد به لقلته أو لخروجه على غير جهة الاعتماد من فاعله.

لغا عن الصواب: مال عنه.

٢ – في المقاييس: اللام والغين والحرف المعتل أصل يدل على الشيء الذى لا يعتد به،

والّلغْو: ما لا يعتد به من أولاد الإبل في الدية.

٣ – في أساس البلاغة: لغا عن الطريق وعن الصواب: مال عنه.

يَلْغون في الحساب: يغلطون.

---

(١)شموس العرفان ص ١١٢

(٢)معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة.ص ٦٠٧

(٣)من الأخطاء الشائعة في النحو والصرف واللغة ص ٤١.

(٤)اللحن في اللغة ص ٤١٣.

(٥)هو أحمد أبو الخضر منسي. وانظر كذلك: أحاديث إذاعية في الأخطاء الشائعة.

٤ – في القرآن الكريم: " لا تسمع فيها لاغية " [1].

وقد قال القرطبي [2]: في المراد بها ستة أوجه منها: الباطل.

وقال أبو حيان [3]: كلمة لاغية، أو جماعة لاغية، أو لغو.

٥ – في الحديث الشريف: " والحَمولة المائرة لهم لاغية "، قال في النهاية[4]: أي ملغاة لا تعدّ عليهم، ولا يلزمون لها صدقة؛ فاعلة بمعنى مُفْعَله.

بالنظر في هذه الاقتباسات نخرج بما يأتي:

١ – أن الفعل الثلاثي المجرد (سواء كان لغا أو لغِي) قد جاء بمعنى: بطل، أو وقع في الخطأ، أو حاد عن الصواب ومال عنه. وقد جاء لازما.

٢ – أن الفعل المزيد " ألغى " قد جاء بمعنى أبطل، وهو متعد.

٣ – أن الاستعمال القرآني قد اقتصر في جميع آياته على الفعل الثلاثي المجرد "لغا" ومشتقاته.

٤ – أن فكرة المطاوعة، أو حدوث الأثر متحققة في الفعل "لغا" بالنسبة للفعل "ألغى"، فيمكن أن يقال: ألغى الشيءَ فلغا، أي أبطله فبطل.

٥ – أن معنى البطلان إذا كان متحققا في كل من ألغى ولغا (أو لغي)فإن ذلك يسمح بأن نقول مشروع " ملغى "، أى مُبْطَل، ومشروع " لاغ أي باطل.

٦ – أن الفعل الثلاثي المجرد يحتمل أن يكون لازما (وهو الأكثر استعمالا)، ومتعديا في الوقت نفسه. ويشهد لذلك قول أبى حيان: "كلمة لاغية أو جماعة لاغبة" فهي في العبارة الأولى بمعنى باطلة، أو متصفة بالبطلان، وفي الثانية بمعنى مُبْطلة أو متحدثة بالباطل.

٧ – أن معنى العبارة المرفوضة مستقيم على عدة احتمالات:

---

(١)الغاشية:١١.

(٢)٢٠/٣٣.

(٣)البحر المحيط ٨/١٦٣.

(٤) ٤/٢٥٨.

أ – أن تكون " لاغ " بمعنى باطل أو ساقط أو لا يعتد به.
ب – أن تكون " لاغ " بمعنى مخطئ.
جـ - أن تكون" لاغ " بمعنى مُلْغًى.

٨ – ومن العجيب أن يذكر الوسيط لغا الشيءُ بمعنى بطل، وألغى الشيء بمعنى أبطله ثم نجده لا يذكر لاغٍ.

٩ – وخيرا فعل المنجد حين ذكر كلمة " لاغ " وأعطاها معنى باطل، أو ساقط، أو ملغى وحين استخدمها بحرّية في شرحه حين قال: حكم مُلْغًى: لاغ غير صالح للاستعمال.

الفصل الثالث

رأي صريح في المعجم الكبير

أولا : المعجم الكبير بديل المجمع عن المعجم التاريخي :

جاء في مرسوم إنشاء المجمع أن من أغراضه "أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية"[١] . وقد تكونت في دورته الأولى لجنة لوضع المعجم المنشود (كان ذلك عام ١٩٣٤). ورأت اللجنة أن يضم المعجم الكبير (التاريخي) كل كلمة قالتها العرب . وكان من بين أعضاء المجمع المستعربين الذين اختيروا في تأسيسه الدكتور فيشر الأستاذ بجامعة ليبزج ، وكان قد اهتم منذ أوائل القرن بوضع معجم تاريخي للغة العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري يوضح الأطوار التاريخية لكل كلمة ودلالاتها المتنوعة على مر العصور مع إثبات الشواهد التي توضح تلك الدلالات . وقد عرض فكرته في مؤتمر اللغويين الألمان الذي عقد عام ١٩٠٧ في بازل فحبذوها .. ثم عاد فعرض مشروعه في مؤتمري المستشرقين اللذين عقدا عامي ١٩٠٨ ، ١٩١٣ فرحب الأعضاء بالمشروع ، ولكنه لم يستطع البدء في المشروع إلا بعد تأسيس معاهد الأبحاث السكسونية في ليبزج عام ١٩١٤ حين صار مدير القسم العربي الإسلامي لمعهد أبحاث الاستشراق. وقد استعان في جمع مادته ببعض تلاميذه وخاصة برجشتراسر وشخت (جمع الأول لغة القرآن ، والثاني لغة صحيح مسلم) وساعده جروهمان بالألفاظ التي عثر عليها في أوراق البردي العربية القديمة ، وأهداه كرنكو مجموعة من مفردات اللغة الواردة في الشعر العربي القديم. مضى فيشر في عمله معتمدا على المعاجم العربية القديمة والكتب الأدبية والكتابات المنقوشة على الأحجار منذ القرن ٤ م والمخطوطات والنقود حتى يستطيع تعيين الأطوار المختلفة لدلالات الكلمات في العربية على مر الأزمنة .

وفي دورة المجمع الثانية (عام ١٩٣٥) ذكر فيشر أمام أعضاء المجمع أن له معجما تاريخيا شرع فيه وقدم لهم نموذجا من مادة "أخذ" ، واستمر الأعضاء يتناقشون حول هذا المعجم خلال الدورتين الثانية والثالثة إلى أن وافقوا على طبعه ، وعلى

(١) مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا ص ١٤٦ وما بعدها.

تشكيل لجنة لمساعدة واضعه[١]. غير أن اللجنة لم تبادر إلى العمل المتتابع فيه ، فما أن جاء عام ١٩٣٨ حتى أعفى المجمع اللجنة المعاونة من مهمتها ، وكان هذا بداية الوهن، والعامل المباشر في عدم ظهور معجم تاريخي للغة العربية حتى الآن .

وقد كان أمل فيشر أن يخرج معجمه بعد بضع سنوات (ست أو سبع) ، ولكن لم تلبث الحرب العالمية الثانية أن نشبت ، وسافر فيشر وحالت الحرب بينه وبين الرجوع إلى مصر ، وحين انتهت كان المرض قد قعد به عن العودة إلى معجمه وظل في بلده إلى أن توفي عام ١٩٤٩ وكان قد أعد للطبع والنشر جزءا من معجمه ينتهي إلى "أبد" مع مقدمة طويلة.

ولم يستطع المجمع أن يلم شتات ما تفرق من جذاذات بين ألمانيا ومصر فتوقف العمل . وزاد سوء الحفظ وغياب التنسيق بين المجمع وفيشر — زاد الطين بلة ، فضاعت الجذاذات وتفرقت بين مصر وألمانيا ، وماتت الفكرة بموت فيشر ، ولم يتبنها أحد — مع الأسف ، أو يحاول محاكاتها بفريق عمل جديد له خبرة ودراية بأصول الصنعة .

ويبدو أن فيشر كان قد انبهر بإنجاز المعجم التاريخي للغة الإنجليزية الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٨ في عشرة أجزاء تحت عنوان " معجم إنجليزي على أسس تاريخية" — فأراد أن ينقل الفكرة إلى اللغة العربية ، ولكن خاب أمله لأنه لم يجد الأرض الخصبة التي تتعهد تلك النبتة الجديدة بالرعاية والعناية . ولم يتوقف المعجم التاريخي عند صدور الطبعة الأولى من المعجم الإنجليزي السابق ذكره فأعيد طبعه عام ١٩٦١ في اثني عشر جزءا تحت عنوان "معجم أكسفورد للغة الإنجليزية"[٢]، كما ظهرت معاجم تاريخية في لغات أخرى ربما كان أشهرها:

١-معجم أستراليا الوطني التاريخي الذي ضم حوالي مليون كلمة ، وجمعت مادته

---

(١) السابق .

(٢) انظر : داود حلمي السيد : المعجم الإنجليزي بين الماضي والحاضر ، في صفحات متفرقة .

من ٧٥٠٠ عمل متنوع[١].

٢-المعجم التاريخي للغة العبرية الذي بدأ العمل فيه عام ١٩٥٩ تحت إشراف أكاديمية اللغة العبرية وجمعت مادته من ٥٠٠ مصدر ، تحوي ٧ ملايين كلمة، وغطى الفترة من القرن العاشر قبل الميلاد حتى العصر الحديث .

٣-معجم الذخيرة اللغوية الفرنسية ، وهو معجم تاريخي يغطي الفترة من ١٧٨٩-١٩٦٠ [٢].

٤-معجم هولندي ظهر أول قسم منه عام ١٨٦٤ واكتمل في ٢٥ مجلدا .

٥-بالإضافة إلى معاجم أخرى كثيرة ظهرت في الدانمرك ، والسويد ، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفييتي وغيرها .[٣]

ولا أدري كيف دب اليأس - بعد موت فيشر - في نفوس أعضاء المجمع، فصرفوا النظر نهائيا عن فكرة المعجم التاريخي وتعللوا بأسباب واهية غير حقيقية لعلها كانت نوعا من التبرير أمام النفس حتى تتبرأ من الشعور بالذنب الذي تولد -ولا شك- عند بعض العارفين بحقائق الأشياء . يقول الأستاذ الدكتور شوقي ضيف بلسان المجمع: "وقد نحت اللجنة عن معجمها الكبير فكرة أن يكون معجما تاريخيا لأن ذلك يقتضي استقصاء النصوص الشعرية والنثرية في مختلف دواوين الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي بل إلى العصر الحديث ، وبالمثل في مختلف الكتب والآثار الأدبية على مر العصور وفي الأقاليم العربية المختلفة . ولا تستطيع أن تنهض بذلك عصبة من العلماء والباحثين . وهو ما تهدد معجم فيشر مع أنه اقتصر فيه على أطوار الكلمات حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، فما بالنا لو حاول المجمع أن يضيف إلى معجمه الحقب التالية . ومعروف أن كثيرا من الدواوين والآثار الأدبية لا يزال مخطوطا . لذلك رأت اللجنة أن تنصرف عن فكرة تأريخ الكلمات ، مع الأخذ بفكرة أن العربية قديمة وحديثة معا ، فهي تضرب بجذورها في أعماق الزمن منذ الجاهلية ، ولا تزال كلماتها

---

(١) صناعة المعجم الحديث ص ١٨٤ .

(٢) السابق ص ٥٧ ، ١٨٥ .

(٣) السابق ص ٥٧ ، ١٨٥ .

تخفق بالحياة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر حتى اليوم، مع ما وسعت في العصور الماضية والحديثة من العلوم وألفاظ الحضارات الأجنبية"[١].

واعجب معي من هذه الأعذار التي طرحها المجمع ليتنصل من فكرة إعداد المعجم التاريخي ، فهي إن كان من الممكن قبولها في مطلع القرن العشرين حين فكر فيشر في صنع معجمه ، مع قلة إمكانياته المادية و لبشرية لم تعد مقبولة الآن مع توفر الدعم المادي، وتقدم وسائل البحث الآلي ، والاعتماد في تخزين المادة على الحواسيب والماسحات الضوئية ، ووجود نماذج ناجحة كثيرة في لغات أخرى .

وإذا كان معجم أكسفورد قد تم إنجازه بإشراف الجمعية الفيلولوجية البريطانية، في نحو نصف قرن بطريقة الجمع اليدوي للشواهد والاقتباسات ، فهل يعجز عصر الحواسيب عن القيام بمثل ذلك ؟ وهل تنوء مؤسسة مجمعية تضم العشرات من الأعضاء، والخبراء، والمحررين بعمل فرد واحد عاش في مطلع القرن العشرين ، وبإمكانياته الضعيفة، وفريق عمله الهزيل ؟ وإذا كان فيشر قد خطط للانتهاء من المرحلة الأولى من معجمه التاريخي (بدءا من عصر النقوش وانتهاء بالقرن الثالث الهجري) خلال ست أو سبع سنوات ، فهل كان المجمع عاجزا عن إنجاز نفس القدر من العمل في نفس الأجل المضروب ؟ وهل كان سيعجز عن تقسيم العمل إلى فترات تضم كل منها مرحلة تاريخية محددة يتم إنجاز معجمها بنفس معدل العمل الذي حدده فيشر ؟ لقد مر الآن أكثر من نصف قرن منذ بدأ مجمع اللغة العربية العمل في معجمه البديل للمعجم التاريخي وهو معجمه الكبير (كانت البداية عام **١٩٤٦** إذا لم نرجع بالزمن إلى عام **١٩٣٤** حين شكل المجمع لأول مرة لجنة لوضع المعجم المنشود) فماذا كان العائد من ذلك ؟

هذا ما سنتناوله في العنوان التالي .

---

[١] مجمع اللغة العربية في خمسين عاما ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ثانيا : معدلات الإنجاز للمعجم الكبير :

سبق أن قلنا إن التفكير في إنجاز معجم كبير بدأ عام ١٩٣٤ ، أي منذ أكثر من خمسة وستين عاما هي عمر مجمعنا اللغوي ، وإن البداية الحقيقية للعمل في المعجم كانت عام ١٩٤٦ . فماذا تم منذ ذلك التاريخ ؟

ظهر الجزء الأول من المعجم في طبعة تجريبية عام ١٩٥٦ ، وقد احتوى على قسم من حرف الهمزة ينتهي عند كلمة "أخي" ويقع في ٤٢٨ صفحة . وقد سيقت المبررات لتأخر ظهوره بأنه معجم ضخم يضم جميع كلمات العربية الواردة في أمهات المعاجم، ولم يقف بها عند ما يسمونه عصر الاستشهاد الذي يجعلون القرن الثاني نهايته، بل يضيف إلى هذا العصر العصور التالية ، حتى لا تصبح العربية كاللغات القديمة التي أدركها الموت والتي تُدْرس كما تدرس الآثار، بينما هي في واقعها لغة حية خالدة وسعت قديما ألوانا شتى من المعرفة والعلم والفلسفة، وظلت تنبض بالحياة مهما تعرض الناطقون بها لكوارث أو لخطوب . حتى إذا أطل العصر الحديث أخذت تتطور وتشارك في العلوم والفلسفة والحضارة . وكل ذلك كان نصب الأعين في الخطة التي وضعت للمعجم الكبير المنشود ، كما قيل إن خطة المعجم قامت على الدقة والتحرز ، وحققت جملة من المبادئ أهمها أنه روعي أن يُذْكر في بدء كل مادة لغوية أصلها أو أصولها في اللغات السامية، إن متَّت أو اتصلت إليها بنسب ، وترتب المادة حسب المعاني الكبرى متدرجة من المدلولات الحسية إلى المدلولات المعنوية ، ويستشهد على ألفاظ المعجم بنصوص من الشعر والنثر على اختلاف العصور ، وترتب الشواهد ترتيبا تاريخيا بقدر الإمكان، وتُرد الكلمات المأخوذة من لغات أجنبية قديمة أو حديثة ، إلى أصولها الأجنبية. ويذكر من الأعلام ما لابد من ذكره ، وتفسَّر تفسيرا موجزا أو في شيء من التبسيط حسبما تتطلب الأحوال . وتذكر أسماء البلاد والأماكن في شيء من الاقتصاد بحيث لا يُهْمل ما يتردد ذكره في النصوص الأدبية من جهة، وبحيث لا يصبح المعجم معجما جغرافيا من جهة أخرى . وتذكر المراجع حين لا يكون من ذكرها بد ، فأما إذا كان الاستغناء عنها ممكنا فلا حاجة للإطالة بذكرها . ويشكل ما ليس من شكله بد لأوساط المثقفين ، وتضبط الكلمات بالنص على طريقة القدماء حين تدعو الضرورة إلى ذلك . ويذكر من

المجاز ما شاع في الشعر والنثر حتى أصبح يشبه ما يسميه أهل البيان واللغة بالحقائق العرفية ، لضرورته في فهم كثير من النصوص القديمة . ولا يُعْتمد من الحديث إلا على ما ورد في أصل صحيح ، ويذكر الحديث كله إلا أن يشتد طوله ، فيقتصر منه على ما يكفي ويغني .[١]

والذي يهمنا الآن أن نقيس معدل الإنجاز في هذا المعجم ، وأن نخمن المدة الزمنية اللازمة للانتهاء منه .

إذا تجاوزنا عن الفترة الزمنيّة التي استغرقها الجزء الأول الذي ضم حرف الهمزة، والذي صدر عام ١٩٧٠ ، لأن أي عمل في بدايته يحتاج إلى تنقيح خطته وتعديل منهجه من حين لآخر - إذا تجاوزنا عن ذلك لوحدنا المجمع قد سار بمعدل جزء كل عشر سنوات على النحو التالي :

الجزء الأول (حرف الهمزة) صدر عام ١٩٧٠ في ٧٠٠ صفحة
الجزء الثاني (حرف الباء) صدر عام ١٩٨١ في ٧٦٨ صفحة
الجزء الثالث (حرفا التاء والثاء) صدر عام ١٩٩٢ في ٣٩١ صفحة
الجزء الرابع (حرف الجيم) صدر عام ٢٠٠٠ في ٧٥٥ صفحة

وشذ المجمع عن هذا المعدل فأصدر في العام نفسه الجزء الخامس الذي يضم حرف الحاء وصدر في ٩٨٩ صفحة . واستغرق إنجاز حرف الخاء ما بين أربع أوخمس سنوات من لجنة المعجم الكبير وشغل ١٢٥٢ صفحة شبه منجزة ، ومكتوبة ببنط ضخم ، وباتساعات في الأسطر تتجاوز المعدلات المعروفة .

وقد سبق في محاضرةٍ لي ألقيتها بدعوة من المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٧ أن قدرت الفترة الزمنية المطلوبة لإنجاز المعجم بحوالي ثلثمائة سنة قياسا على معدل الإنجاز للأجزاء الثلاثة الأولى التي صدرت بمعدل جزء واحد كل إحدى عشرة سنة تقريبا فثار المجمعيون على ما قلت وأقاموا الدنيا ولم يقعدوها (لم أكن حينئذ قد انتخبت عضوا بالمجمع) .

---

(١) مجمع اللغة العربية في خمسين عاما ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

ثـم اطلعـت علـى تقريـر أو مذكـرة قدمهـا إلـى مؤتمر المجمع في دورته الخامسة والسـتين (٩٨– ١٩٩٩) عضـو المجمـع المراسل (حينئذ) الأستاذ أحمد شفيق الخطيب فوجدته يقول في مذكرته ما ملخصه :

١- إذا أخذنـا بمعـدل الإنجـاز لحرف الخاء يكون الوقت اللازم لإتمام المعجم ٩٣سنة مقارنة بمادة محيط المحيط ، و ١٠٩ سنوات مقارنة بمادة المعجم الوسيط .

٢- أما إذا أخذنا بمعدل الإنجاز للأحرف ب ، ت ، ث فيكون الوقت اللازم هو ٤٠٩ سنوات مقارنة بمادة المعجم الوسيط .

ثم عقب على ذلك قائلا :

"وهكذا نرى أنَّ مُعَدَّل الإنجازية لم يكن عمليًا لا سابقًا ولا لاحقًا

وأذكُـر أنَّ قـاموس جونسون الشهير الذي ظَلَّ على مدى عدة أجيال المرجعَ الأساسيَ في اللغـة الإنكلـيزية لم يسـتغرق إعـدادُه أكـثرَ من ست سنوات . وكان العاملون في إعداده الدكتور صمويل جونسون وستة مساعدين مُعظمهم كتبة ومُنتقو استشهادات .

أمـا معجـم أُكسـفورد الكـبير الذي لا يزال المرجع الأساسي في اللغة الإنكليزية (والذي لم تصدر لـه طبعات معدّلة حتى اليـوم لتعذُر المهمة) فقد استغرق إعدادُه قرابـة نصف قرن فقط (٤٩ سنة تحديدًا) .

وعليه ، ينبغي إعادة النظر جديًّا في مشروع المعجم الكبير لأنه عند الانتهاء من المعجـم وصـدوره علـى هذا المُعدّل أو حتى أفضل قليلاً ، ستكون مواد القرنين العشرين والحـادي والعشـرين في الأجـزاء الـتي أُنجـزت أو ستُنجز على بضعة أجيال بحاجة إلى تعديل جذري في عدّة مَجالات" .

ولعـل الإحسـاس الذي تولد عندي وعند الأستاذ الخطيب قد تولد عند رؤساء المجمـع السـابقين ، وإن عـبروا عـنه بقـدر مـن المواربة ، وحاولوا تبريره والدفاع عنه . ودعوني أقتبس من مقدمات الأجزاء التي ظهرت حتى الآن الاقتباسات الآتية :

١- يقـول المرحوم الدكتور إبراهيم مدكور في مقدمة الجزء الأول ما نصه : "منذ ربع قـرن تقريـبا أخـذ المجمـع نفسه بوضع معجم كبير يسـاير الزمن ويتمشى مع فن التأليف المعجمـي الحديث" ، ويقول كذلك : "هذا النوع من التأليف – وإن استعجله الناس – طويـل الـنَفَس لا يقـاس بمقـياس الـزمن ولا يحسـب للوقت فيه حساب" !! (وعلامات

التعجب من عندي فليس هناك عمل لا يقاس بمقياس الزمن ولا يحسب للوقت فيه حساب، حتى ما يستغرق وقتا طويلا يقاس بمقياس الزمن ويحسب فيه للوقت ألف حساب) .

٢- ويقول في مقدمة الجزء الثاني : "وكثيرا ما سئلنا : أين أنتم من المعجم الكبير ؟ ولهذا السؤال دلالته ، وفيه ما فيه مما يعبر عن إحساس بالبطء وتوجيه إلى سير الزمن لاسيما وقد انقضى على ظهور الجزء الأول من هذا المعجم عشر سنوات أو يزيد" .

وما أظن أن ما حاول أن يقدمه الدكتور مدكور من تبريرات لبطء الإنجاز يمكن أن يكون مقنعا لأحد ، أو صادرا عن اقتناع شخصي منه من مثل :

- حاجة العمل إلى وقت طويل نتيجة تطبيق المنهج في تأن وتؤدة وجد وإخلاص.
- تتابع المراجعات للمعجم فبعد إعداد مادته محررة على أيدي محررين دربوا في كنف المجمع يراجعها الخبراء المتخصصون ذوو القدم الراسخ في اللغة وعلومها واللغات السامية والفارسية والتركية ، ثم يدفع بها إلى لجنة المعجم الكبير وأعضاؤها من كبار رجال الأدب واللغة والعلم والفلسفة ، ويجيء أخيرا دور أعضاء المؤتمر . وما من جزء من هذا المعجم إلا عرض عليهم ، وكم أبدوا من ملاحظات قيمة وتوجيهات سديدة . ثم ينتقل العمل إلى فريق التنسيق لتوحيد الصياغة وتنقيح العبارة[1] .

٣- لسنا في حاجة إلى أن نذكِّر بأن الأكاديمية الفرنسية قضت في القرن السابع عشر ما يزيد عن ثمانين عاما في إخراج معجمها .. ، وتطلب إعداد معجم أكسفورد في القرن التاسع عشر ما لا يقل كثيرا عن هذه المدة[1].

وأنا لم أجد في هذه المبررات ما يشفع لهذا البطء الشديد . وحتى إذا قسنا معدل العمل في أواخر القرن العشرين بمعدله في القرن السابع عشر أو التاسع عشر – كما ذكر الدكتور مدكور وهي مقارنة ظالمة نظرا لاختلاف الظروف والإمكانيات – فإننا نجد

---

[1] مقدمة الجزء الأول صفحة و .

(١) مقدمة الجزء الثاني .

السنوات التي ذكرها لم تمر عبثا ، وإنما توجت بإنجازين ضخمين . وقد مر الآن ما يقرب من هذه السنوات على المعجم الكبير دون أن يتم إنجاز عمل مماثل .

أما قضية المراجعات المتكررة التي تحدث عنها ، والتي عدها مسئولة عن التأخير فقد كنت قد صدقتها حتى اقتربت أكثر من المعجم الكبير ، ومن أعمال لجان المؤتمر السنوي فاكتشفت أن إقرار المؤتمر هو إقرار شكلي يتم دون مراجعة حقيقية . وسأحكي لكم قصتي مع المؤتمر الأخير ، والجلسة التي نوقش فيها إنجاز لجنة المعجم الكبير ، فقد تمت مناقشة مواد حرف الخاء من أول الخاء والنون إلى نهاية الحرف وتقع في ثلثمائة صفحة – نوقشت في نصف ساعة ، وجاءت الجلسة بعد رحلة ترفيهية إلى الإسكندرية شغلت الأيام الثلاثة السابقة لهذه الجلسة فلم يجد أحد من الأعضاء الوقت لتصفح هذه الأوراق فضلا عن تدقيقها ومراجعتها. وقد عكفت أنا خلال هذه الأيام – بعد اعتذاري عن عدم المشاركة في الرحلة – على مراجعة هذه الأوراق ولم أستطع إنجاز أكثر من خمسين صفحة منها . وظهرت المفارقة أثناء جلسة المناقشة حيث كنت المناقش الوحيد ، وأخذ باقي الأعضاء يناقشون ما أقول لا ما جاء في المعجم . وحين توقفت بعد الصفحة الخمسين توقف الأعضاء عن الكلام وأنهى رئيس الجلسة باقي الصفحات في دقائق استغرقها في تقليب الصفحات دون معقب . فأي مراجعة يستطيع أحد أن يقول إنها قد تمت من خلال جلسة المؤتمر ؟

ومن يتمعن في المراحل التي تقطعها مراجعة المعجم كما ذكرها الدكتور مدكور يلاحظ أنه أسقط منها مجلس المجمع ، وهذه نقطة تثير تساؤلا مشروعا وهو : لماذا تكون لجنة المعجم الكبير هي اللجنة الوحيدة من لجان المجمع التي لا تعرض أعمالها على مجلس المجمع ؟ ولماذا يغضب الزملاء في لجنة المعجم الكبير حين يبدي أحد من الأعضاء رأيه في المادة المعروضة أمام المؤتمر، وهو لم يجد الفرصة متاحة له ليعبر عن رأيه من خلال اجتماعات المجلس الأسبوعية ؟ أليس من الأفضل والأكرم أن تعرض إنجازات اللجنة على أعضاء المجمع تباعا، وفي أكثر من جلسة حتى تتوفر فرصة الحوار الداخلي، ويتم جبر النواقص قبل عرض العمل على الأعضاء الخارجيين ؟

ويبدو أن كثرة المراحل التي يمر بها العمل لم تكن كافية لإخراجه بصورة ولو شبه كاملة مما أوجد حالة من عدم الرضا عند الكثيرين كما سنبين في العنوان التالي .

ثالثا : آراء المجمعيين في المعجم الكبير :

لاحظت أن المجمعيين قد انقسموا في الرأي حول تثمين هذا العمل ما بين مُدافع ومهاجم، كما لاحظت أن الدفاع قد اقتصر على المسئولين في المجمع ، وعلى أعضاء لجنة المعجم الكبير دون غيرهم .

ولندع الفريق المدافع يقدم رأيه أولا ، وهو يتلخص في صفات المدح الزائد التي جاوزت الواقع بكثير ، والتي جاء من بينها :

١- قل أن يحظى معجم بمثل ما حظي به هذا "المعجم الكبير" من درس متصل ، ومراجعة دقيقة ، ومتابعة واعية(١) .

٢- إن هذا المعجم لون جديد في عالم المعجمات العربية ، فيه تأصيل وتحقيق ، وجمع واستيعاب ، ورجوع إلى المصادر الأولى(٢) .

٣- في هذا المعجم جوانب ثلاثة أساسية : جانب منهجي هدفه الأول دقة الترتيب ، ووضوح التبويب . وجانب لغوي عني بأن تصور اللغة تصويرا كاملا ، فيجد فيها طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم . وفيه أخيرا جانب موسوعي يقدم ألوانا من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات أو الأعلام(٣).

٤- أنفق المجمع في رسم منهج المعجم الكبير سنوات طوالا ، وأخذ يصدر أجزاءه منذ سنة ١٩٧٠ .. وأنا أشكر لهيئة تحرير المعجم الكبير من الشباب ما بذلته من جهود في جمع مواد هذا الجزء وترتيبها في دقة . كما أشكر للجنة المعجم من أعلام المجمع وخبرائه اللغويين ما أدوا فيه من إضافات وتصحيحات وتعبيرات وشروح وتعريفات ..

---

(١) مقدمة الجزء الأول من المعجم الكبير بقلم ابراهيم مدكور .

(٢) السابق .

(٣) السابق .

كما أشكر للأستاذ الجليل الدكتور... مراجعته العلمية لهذا الجزء قبل تقديمه إلى المطبعة[١].

فهل كل ما قيل عن المعجم صحيح ؟

تأتي الإجابة حاسمة في شكل أربعة تقارير كتب أولها باحث بالمجمع ، وثانيها عضوان مراسلان ، ورابعها عضو عامل .

وتجتمع التقارير الأربعة على تقدير الجهد المبذول في إخراج المعجم الكبير ، وتوجيه الشكر إلى أعضاء اللجنة لجهدهم الذي بذلوه في تعاملهم مع المادة المعروضة ، ولمّ شتاتها ، وترتيبها طبقا لمنهجية المعجم ، ورجوعهم إلى كل ما أتيح لهم من معاجم ، مع الحرص على كثرة الاستشهاد ، وعدم الوقوف به عند العصر الإسلامي ، والرجوع إلى الدواوين الشعرية والمجموعات الشعرية دون الاكتفاء بمرويات المعاجم .

وسنبدأ بتقرير باحث المجمع الذي كتبه تعليقا على الجزء الرابع (حرف الجيم) الذي صدر عام ٢٠٠٠ ، ثم نثني بتقريري العضوين المراسلين ، وننتهي بتقرير العضو العامل الذي كتب تعليقه على نموذج من حرف الخاء (من خنأ إلى آخر الحرف) .

* * *

١- يقول الأستاذ عاطف أحمد المغاوري الباحث المساعد بالمجمع في تقريره الذي كتبه بتكليف من رئيس المجمع الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ما ملخصه :

أ- هيئة التحرير يفتقرون إلى أدوات الصناعة المعجمية الحديثة .. حتى صار المجمع بمعزل عن الصناعة المعجمية الحديثة .

ب- مخالفة المجمع قرارا له برسم الألف اللينة بصورة الياء (غير المنقوطة) ، أما الياء فتنقط للفرق (صدر القرار في الدورة السادسة والأربعين — الجلسة السابعة للمؤتمر في ١٩٨٠/٣/٢٤) .

ج- عدم الدقة في ترتيب المداخل وفق منهج المعجم الكبير .

---

(١) مقدمة الجزء الخامس من المعجم الكبير بقلم شوقي ضيف .

د- عدم الالتزام بترتيب الشواهد الشعرية زمنيا بحسب أصحابها بناء على ما نصت عليه منهجية المعجم .

هـ- عدم الالتزام بنسبة الشعر إلى قائله ، فإن لم يعرف فإلى أقدم المصادر التي ذكرته.

و- سقوط أسماء كثيرة من فهرس الشعراء .

ز- الاضطراب في طريقة الشرح ، وعدم الالتزام بخطة محددة .

ح- كثرة أخطاء الطباعة حتى إن "المعجم بصورته الحالية لا يصلح إلا أن يكون تجربة أولى تحتاج إلى العديد من التجارب الطباعية لتصحيحها ومراجعتها قبل إخراجها للقراء . فخلال قراءتي لهذه النسخة الصادرة عن المجمع وجدت بها ما يربي على الألف من الأخطاء اللغوية والطباعية وضبط النص" .

ط- ويختم الباحث تقريره قائلا : "إن الجهد المبذول في المعجم الكبير خلال عقدين من الزمن – أو يزيد – قد ضاع سدى بهذا النحو الذي صدر به" .

* * *

٢- أما التقرير الثاني فقد كتبه المرحوم الأستاذ إبراهيم السامرائي ، ونشره في مجلة الدراسات اللغوية (عدد يوليو / سبتمبر ٢٠٠٠) بعنوان: "مع المعجم الكبير من خضرب إلى خلجم" وشغل اثنتين وعشرين صفحة ، من أهم ما جاء فيها :

أ- لو كنت سليما صحيح الجسم قوي النفس .. لكان لي غير هذا الموجز ، ولكنت أضع فيه كتابا .

ب- الإكثار – بدون داع – من ذكر الأبنية الرباعية والخماسية ، ومعظمها من الغرائب، أو من المصنوع المفتعل الذي يفتقد شاهدا من كلام العرب .

ج- وقوع تكرار كثير في هذا الجزء من المعجم .

د- عدم التوفيق في شرح كثير من الكلمات ، أو في ضبطها ، أو في تخريجها ، أو في رواية الشعر الذي وردت فيه .

هـ- الإسراف في ذكر الأعلام والتوسع في التعريف ببعضها .

* * *

٣-أما التقرير الثالث فقد كتبه الدكتور أحمد الضبيب، وشارك به في مؤتمر "المعجم العربي، الذي عقد بدمشق في أكتوبر ٢٠٠١، وفي هذا التقرير أخذ على واضعي المعجم ما يأتي:

أ-الاستشهاد بشعر مولد مع وجود شعر جاهلي أو قديم كان أولى بالاستشهاد به.

ب-عدم التزام واضعي المعجم بالبدء بالمعنى الحسي، فكانوا أحيانا يبدأون بالمعنى المجازي دون أن يؤسسوه على معنى حسي يسبقه.

ج-الخطأ في نسبة بعض الأبيات، كنسبتهم بيتا للمتنبي (إبّان)، وهو للبحتري.

د-عدم توضيح واضعي المعجم المعايير التي ارتضوها لاختيار الشواهد، والغرض من إيرادها في المعجم، والحدود التي التزموها في ذلك.

هـ-لا تمثل معظم الشواهد المنسوبة إلى الشعراء المولدين والمعاصرين عصورهم، فليس فيها ما يعبر عن ألفاظ أو تراكيب تنتمي إلى تلك العصور، أو ابتكارات لهؤلاء الشعراء.

و-لم يخدم الجانب التاريخي للألفاظ والتراكيب بالقدر الكافي، فقد استفاد مؤلفو المعجم من جذاذات معجم فيشر، لكن لم تبذل جهود واضحة للتقدم خطوات نحو هذا الهدف، على الرغم من أن الوسائل المتاحة الآن خير منها عندما كتب فيشر جذاذاته.

*　　*　　*

٤-أما التقرير الرابع فقد كتبه صاحب هذا الكتاب وعرضه في مؤتمر المجمع (الدورة السابعة والستين ٢٠٠٠ – ٢٠٠١) ، وقد اقتصر على مراجعة الصفحات الخمسين الأولى من القسم المعروض على مؤتمر المجمع ، ويضم ثلثمائة صفحة . وقد اشتمل على الملاحظات التالية:

أولا: أول ما يلفت النظر عدم الاطراد في التعامل مع الكلمات الأعجمية والمعرّبة :

أ- فتارة ينص على أن الكلمة معرّبة وينص على أصلها في لغتها (الخُنابث ص ٩٥٦).

ب- وتارة يهمل النص على تعريبها (الخُنابس ص ٩٥٧). وقد جاء في معجم المعرّبات الفارسية للتونجي أنها معرّب خون = دم + بيس = رديء. وغير ذلك كثير.

ج- وتارة ينص على أن الكلمة معربة ولا ينص على أصلها في لغتها (الخَنْبَش ص٩٥). وقد ذكر التونجي أنها معربة عن الفارسية : خون = دم + بيش = كثير .

د- وتارة يترك أصلها ويطلب إحالتها إلى متخصص في اللغة الفارسية(ص٩٧٢).

ثانيا: تركت اللجنة كثيرا من الكلمات بدون ضبط ، وأحيانا كانت تضبط ما لا يستحق الضبط وتترك ما يستحق الضبط ومن ذلك :

المأبض — ثنى (ص ٩٥٥) : تركتا بدون ضبط .

خناثات (ص ٩٦٥) : تركت بدون ضبط .

ثالثا: مع الفاعل المؤنث كان يجب أن يوضع بعد الخط ـ : ت للإشارة إلى أن اللفظ مؤنث . مثال ذلك : الفعل "خنب" حين جاء مع الفاعل "رجله" كان يجب أن يقول : وـــ ت رِجْله: وهنت (ص ٩٥١) .

رابعا: مع الفعل المتعدي كان يجب أن توضع هاء الضمير للإشارة إلى المفعول به كما في "أخنب" ، فيقال : وـــ ه : أعرجه . (ص ٩٥١) .

خامسا: أخطأت اللجنة في ضبط كثير من الكلمات ، وسواء كان الخطأ من الطابع أو من غيره فالأمر لن يختلف . ومن أمثلة ذلك :

- خَنْبُ — خَنْبِ (ص ٩٥٢) والصواب تنوينهما.
- قال المغيرة بن حبناءِ التميمي (ص ٩٧٠) ، وصحتها : حبناءَ.
- دِيَّة (ص٩٥٥) ، والصواب : دِيَة .
- امرأة خُنْث (السطر الثاني ص ٩٦٤)، صحتها: خُنُث، كما في اللسان والجمهرة(١/٤١٨) .

- لكونها ليّنةٌ (ص ٩٦٥) ، والصواب : لينةً .

سادسا:الأخطاء المطبعية متفشية ، مثل :

الخِنّابين ، والصواب : الخِنَّابتين (ص ٩٥٥) .

- المَخَنَبَةُ ، والصواب : المخْنبة (٩٥٥) .
- جُرِئ ، والصواب : جَرِيء (ص ٩٥٧) .

وانظر أثكلت (ص ٩٦١) ، التي كتبت بهمزة وصل ، والثاء (ص ٩٦٧) التي كتبت تاء .

سابعا: بعض النقول لم يكن دقيقا . ففي ص ٩٥٦ جاء : الخنبجة : القملة الضخمة، (ج) خُنْبُجٌ عن الأصمعي . والمنقول عن الأصمعي ، كما في اللسان أن الخنبج: القمل (دون ذكر للحجم) ، قال الرياشي : والصواب ما قال الأصمعي .

وفي ص ٩٦١ في السطر قبل الأخير : و- :تكسر وتلوّى (جم ٣٦/٢). والذي في الجمهرة (ط دار العلم للملايين – تحقيق رمزي بعلبكي ٤١٨/١): وخَنِث الرجلُ يَخْنَثُ خَنَثًا : إذا تكسّر وتلوَّى . وهو المناسب ، لأن خَنَث (بفتح العين) لم يأت إلا متعديا بنفسه أو بحرف الجر .

وفي ص ٩٧٢ نقل عن الجمهرة أن الخندريس ضرب من الخمر فيه أفاويه . ولم أجد النص في الجمهرة .

وفي ص ٩٧٨ ذكر "أبو الرَّعّاس" ، وفي اللسان وسيرة ابن هشام: "أبو الراعش" .

ثامنا : حرصت اللجنة على ذكر روايات الشعر ، ولكن ندّ عنها روايات لم تذكرها ، كتلك الموجودة في بيت الشعر (أسفل ص ٩٦٣) ففيه رواية أخرى ذكرها اللسان ، وهي : أرى في خُنث لحيتك اضطرابا .

تاسعا : بعض التحليلات لم يكن دقيقا . ففي ص ٩٦٥ ورد أن الخنوثة مصدر مأخوذ من الخُنثى.. ولكن لماذا لا تكون مصدرا للفعل خنُث الوارد في ص ٩٦٢ ؟

عاشرا : بعض المصادر ليس ثقة مثل أقرب الموارد (ص ٩٦٦) .

حادي عشر : مادام المعجم حريصا على نسبة الشعر إلى صاحبه ، فقد كان الواجب أن يذكر الخلاف كذلك ، ففي ص ٩٥١ : قال ابن أحمر الباهلي :

أبي الذي أخنب رجلَ ابنِ الصعِق

وقد ذكر الأستاذ عبد السلام هارون أن الرجز لتميم بن العمرِّد بن عامر ، وكان العمرد طعن يزيد بن الصعق فأعرجه . وقال ابن بري : وجدته في شعر ابن أحمر الباهلي .

ثاني عشر : بالغت اللجنة في ذكر المعلومات الموسوعية واستطردت فيها دون مقتض. والأمثلة كثيرة ، مثل ما جاء في نصف الصفحة الأعلى (ص ٩٦٨) ، وغزوة الخندق (ص ٩٧٧) ، والخنزير (ص ٩٩٠) . وهي – إلى جانب ذلك – لم يكن لها منهج يحدد ما تأخذ وما تترك من الأعلام . وعلى سبيل المثال فقد اقتصر المعجم على بعض من اشتهروا باسم الأخنس ، وترك البعض (ص ٩٩٧). وقارن ذلك بما ورد في التاج .

ثالث عشر : هناك بعض تصحيفات في أبيات الشعر ، مما كسر الوزن ، مثل :

- درَّ دَرُّ الشباب والشَّعْر الأسود .. (ص ٩٨٠)، وصحتها : والشَّعَر.
- فلم يَنُوَ خَنْزَجَةً وكيرا (ص ٩٨٧)، وصحتها : يَنُؤْ.
- وراءك ما لأروى شياه خوانس (ص ٩٩٥)، وصحتها: ما الأروى.
- ولقد مت غير أني حيّ (ص ٩٩٩)، وصحتها: غير أنيَ.

رابع عشر : هناك ظاهرة غير مقبولة في المعاجم القديمة ، وهي أنها لا تقوم بتوزيع مصادر الثلاثي على أبواب أفعالها ، ولا تراعي تعدي الفعل ولزومه في ذلك . وقد وقعت اللجنة فيما وقع فيه القدماء ، فخلطت المصادر . مثال ذلك (ص ٩٩١) في قول المعجم الكبير :

خَنَس خَنْسًا وخُنوسا وخِناسا : توارى وغاب .

وأرى ربط الخُنوس والخُناس بـ خَنَس اللازم .

والخَنْس بـ خَنَس المتعدي .

والخَنَس بـ خنِس المكسور العين .

ثم تربط خُناس بالمعنى الخاص (ص ٩٩٨) الذي يدل على داء.

أما خِناس فلا وجود لها في المعاجم .

خامس عشر: لا يصح الشرح بلفظ غامض مثل : يتجعثن (ص ٩٩٨)، ومثل: عَفَبِيّ (ص ٩٩٨).

سادس عشر: بالنسبة لكلمة خُناس (ص ٩٩٨) :

أ-تركت اللجنة أن "خناس : موضع باليمن بل أحد مخاليفها" .

ب-ذكرت اللجنة أنه اسم امرأة . هل هو كذلك ؟ أو اسم تدليل ؟ أو غُيِّر في الشعر للوزن كما ذكر صاحب التاج ؟ (وانظر ص ١٠٠٠) . وماذا عن قول الرسول للخنساء: إيه يا خُناس ؟

سابع عشر : ينقص المعجم حسن السبك ، وتوحيد الصياغة ، والانفكاك من ربقة التعبيرات التراثية التي جعلته يكرر المعنى الواحد بعدة ألفاظ .

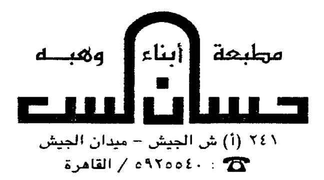
ثامن عشر : يلفت النظر أن المعجم لم يتبع طريقة واحدة في بدء المادة بذكر معناها أو معانيها العامة على طريقة "المقاييس" فتارة يفعل ذلك وتارة لا يفعل .

وأخيرا : أقول إن المجمع لم يحسن تطبيق مبدئه الأساسي الذي طرحه في مقدمة الجزء الأول وهو عدم الاقتصار على ما ورد في المعجمات وحدها ، والرجوع إلى كتب الأدب والعلم. فالذي بدا لي أن المجمع قد اقتصر على الرجوع إلى دواوين الشعراء، وإلى المجاميع الشعرية تاركا ما سبق أن نبه عليه "فيشر" في مقدمة معجمه من ضرورة الرجوع إلى قصص البطولة ، وكتب السيرة والمغازي ، والتاريخ ، والأدب وغيرها ، ولو أنه فعل ذلك لجمع ثروة لغوية طائلة .

كتب أخرى للمؤلف

١- تاريخ اللغة العربية في مصر- الهيئة العامة للتأليف والنشر- القاهرة ١٩٧٠م.
٢- النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي-الجامعة الليبية ١٩٧١م.
٣- البحث اللغوي عند العرب- سبع طبعات- عالم الكتب ١٩٧١- ١٩٩٧م.
٤- البحث اللغوي عند الهنود- دار الثقافة بيروت ١٩٧٢م.
٥- أسس علم اللغة- ترجمة عن الإنجليزية- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٣، ١٩٨٣م.
٦- من قضايا اللغة والنحو- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٤م.
٧- ديوان الأدب للفارابي-تحقيق ودراسة-مجمع اللغة العربية بالقاهرة في خمسة أجزاء ١٩٧٤- ١٩٧٩م.
٨- المنجد في اللغة لكراع- تحقيق بالاشتراك- عالم الكتب بالقاهرة- ١٩٧٦، ١٩٨٨م.
٩- دراسة الصوت اللغوي- ثلاث طبعات- عالم الكتب بالقاهرة- ١٩٧٦- ١٩٩١م.
١٠- العربية الصحيحة- عالم الكتب بالقاهرة- ١٩٨١، ١٩٩٨م.
١١- اللغة واللون- دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٨٢م، وعالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٧م.
١٢- علم الدلالة- دار العروبة بالكويت ١٩٨٢م، وعالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٨م.
١٣- معجم القراءات القرآنية (بالاشتراك) ثمانية أجزاء- جامعة الكويت- طبعة أولى ١٩٨٢- ١٩٨٥م، وطبعة ثانية ١٩٨٨م، وطبعة ثالثة- عالم الكتب ١٩٩٧م.
١٤- النحو الأساسي(بالاشتراك)- ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤- دار الفكر بالقاهرة ١٩٨٨، ١٩٩٦م.
١٥- المعجم العربي الأساسي (تأليف بالاشتراك) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٩م.
١٦- أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩١م.
١٧- تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٢م.
١٨- لغة القرآن- مؤسسة الكويت للتقدم العلمي- الكويت ١٩٩٣م.
١٩- معاجم الأبنية في اللغة العربية- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٥م.
٢٠- اللغة واختلاف الجنسين- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٦م.
٢١- التدريبات اللغوية والقواعد النحوية- تأليف بالاشتراك- ذات السلاسل بالكويت ١٩٩٦م.
٢٢- أسماء الله الحسنى: دراسة في البنية والدلالة- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٧م.
٢٣- صناعة المعجم الحديث- عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٨م.
٢٤- المكنز الكبير: معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات- شركة سطور ٢٠٠٠م.
٢٥-دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته – عالم الكتب ٢٠٠١.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٩١٦ لسنة ٢٠٠١
I. S. B. N : 977 - 232 - 287 - o


مطبعة أبناء وهبه
حسان
٢٤١ (أ) ش الجيش – ميدان الجيش
: ٥٩٢٥٥٤٠ / القاهرة